ما بعد الصهيونية
وأكذوبة حركة السلام
في إسرائيل
ودراسات أخري

إعداد

أحمد بهاء الدين شعبان

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب:	الصهيوينة وأكذوبة حركة السلام في إسرائيل
المؤلف:	أحمد بهاء الدين شعان
الطبعة:	طبعة ثانية / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م
تصميم الغلاف:	أحمد بهاء الدين شعبان
التنفيذ:	جمال عبد الحميد
الناشر:	مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيداع:	
الترقيم الدولي:	

مكتبة جزيرة الورد – القاهرة / ميدان حليم

خلف بنك فيصل شارع ٢٦يوليو من ميدان الأوبرا

٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٢/٩٩٦١٦٣٥

٠١٠/٠١٠٤١١٥ - ٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦

تقديـــم

تقديــم

د. سيد البحراوي

شرف كبير لى أن أكتب هذه المقدمة القصيرة لكتاب المهندس أحمد بهاء الدين شعبان الجديد " الصهيونية وما بعدها " لأسباب متعددة تتعلق بأهمية الكاتب والكتاب، وما يقدمان من نموذج للفكر الجاد والملتزم والمناضل، نحن في أشد الحاجة إليه في هذه اللحظات الخطيرة من حياة وطننا العربي، هذه اللحظات التي يُفتقد فيها الوضوح، ويُفتقد فيها المثال، ويُفتقد فيها الأمل.

وتقديرى أن أحمد بهاء الدين شعبان هو واحد من قلائل بين المثقفين المصريين المعاصرين الذين يمتلكون القدرة على تحقيق هذه القيم المفتقدة. فقد ظل منذ مشاركته في قيادة الحركة الطلابية في السبعينات وحتى الآن نموذجًا للمثقف المناضل الوطني المتمسك بقيم الوطن والعدل والاشتراكية والحرية، وظل نضاله وفكره طوال العقود الثلاثة المنصرمة صلبا واضحا لا لبس فيه ولا التواء ولا هوى شخصي، مهما كانت التعقيدات والالتباسات في المواقف والأزمات التي مررنا بها خلال هذه العقود، ومهما كانت التضحيات التي تترتب - بالضرورة - على هذه الصلابة والاستقامة.

وطوال العقود الثلاثة كانت القضية الفلسطينية - باعتبارها قضية كل المصريين وخاصة طبقاتهم الشعبية، أبناء الوطن الحقيقيين - هي الشغل الشاغل لأحمد بهاء الدين شعبان في نضاله وفى بحثه وفى كتاباته في الصحف والمجلات. وبشأن هذه القضية، ومع كل تطوراتها المأساوية التي انتهت إلى ما هي عليه الآن، كان موقف أحمد بهاء الدين واضحًا إزاء حق الشعب الفلسطيني في كامل ترابه

الوطني، ودولته المستقلة. وكان رفضه واضحًا أيضًا لكافة الحلول الاستسلامية التي قدمتها القيادات العربية، مصرية كانت أو فلسطينية أو غيرها.

وفى سياق هذا الموقف يأتي هذا الكتاب الذي تتابع دراساته المتعددة التطورات الجديدة في القضية الفلسطينية، فاضحًا بالوقائع والحقائق المحايثة للأطراف المختلفة في الصراع العربي الصهيوني، مدى الزيف والتضليل الذي تمارسه القوى السياسية والأجهزة الإعلامية لوضع الصراع ومستقبله من وجهة نظر المهيمنين في اللحظة الراهنة. وهذه هي الأهمية الكبيرة لهذا الكتاب الذي يحتاج إليه حتى المناضلون، من أجل كشف الحقائق وتوضيح الاتجاه الصحيح وإزالة الغيوم الكثيفة التي يحرص الأعداء على إحاطة الوقائع بها، تحت مسميات جديدة دائما، " ما بعد الصهيونية "، " السلام الآن ".. وغيرها.

ولذلك بدأت هذه المقدمة وأختمها بأن الكاتب والكتاب يقدمان نموذجًا للمثقف المناضل، مثالاً لما نحن في أشد الحاجة إليه في لحظات الظلام الكثيف التي نعيشها.

فهذا النموذج سيبقى - مهما ندر - هو الشمعات القليلة التي تبدد بعض هذا الظلام، وتقود أبناء الطريق لإضاءة مزيد من الشموع، وكلما تكاثرت تبدد الظلام، وهذا هو الأمل الذي يبقى ملاذنا الوحيد.

* * *

هذا الكتاب

مقدمة الطبعة الثانية

د. أحمد بهاء الدين شعبان

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في نهايات عام ١٩٩٩، أي مضى على صدورها ما يزيد على العشر سنوات، ولازالت كل الاستنتاجات والفروض التي تضمنتها الدراسات المنشورة فيه، صحيحة، وقاطعة، ربما بأكثر مما كان الحال عليه وقت كتابتها. إذ كانت هذه الدراسات في تلك الآونة، تتناول بالبحث ظواهر حديثة قيد التكوين، مثل ظاهرة " المؤرخون الإسرائيليون الجدد "، أو ملتبسة مثل" حركات السلام الإسرائيلية "، أو مراوغة مثل: " تحالف كوبنهاجن "، أو مثار صراع سياسي وثقافي، مثل قضية " التطبيع "، ومزاعم " ثقافة السلام "، وتُرَّهات " الحوار مع الآخر ".. وغيرها من القضايا الحسّاسة، بالغة الأهمية، وقد قُيِّض لهذه الدراسات أن تُكتب في حمىّ الصراع الفكري العنيف، الذي انفجر، وكان مُحتدمًا في المجتمع المصري، آنذاك ، وهذا الصراع كان جزءًا لا يتجزأ من معركة طاحنة، اشتعل أوارها بين المعسكر الأمريكي الصهيوني، المدعوم من طبقات اجتماعية محلية مهيمنة، ونظم حاكمة فاسدة متسلطة وتابعة، لها مصالح استراتيجية متداخلة، معهما، من جانب، وبين الجماهير الشعبية، والجماعة الثقافية والسياسية الوطنية، من جانب آخر. وكانت ساحة القتال في هذه المعركة ساحة خطيرة، ميدانها: الفكر والعقل، والوعي والإدراك في المقام الأول، باعتبار أن الفوز في هذه المعركة أبرز غايات هذا الصراع، إذ ماذا يبقى للشعوب، ترتكز عليه وتقاوم من خلاله في مواجهة قاهريها ومغتصبي أوطانها وثرواتها إذا انحلّت

إرادتهـا، واسـتطاع العـدو، بأسـلحته الخبيثـة الفتّاكـة، احـتلال عقلهـا، وتخريـب وجدانها، وتشويه فكرها، والتشويش على وعيها ومداركها ؟!

وقد تضمن هذا الكتاب ضمن دراسات متكاملة:

أولاها: مناقشة موضوعية ومبكرة [لعلها أن تكون أول ما كتب في مصر عن موضوعها، في هذا الوقت المبكر] لظاهرة كانت قد بدأت تلفت الأنظار، في تلك الفترة، هي ظاهرة " المؤرخون الإسرائيليون الجدد "، ولمفهوم من المفاهيم الجديدة، التي بدأت تصك الأسماع، آنذاك، هو مفهوم : " ما بعد الصهيونية "، التي صاحب طرحها حملة إعلامية ضخمة لتحقيق مكاسب سياسية من ورائهما، ربما لم تكن في بال الأسماء (التي باتت معروفة) التي تصدرت لطرفهما!

ولقد تلقف لوبي التطبيعيين العرب "، الذين بنوا استراتيجياتهم على تصيُّد أي بادرة اختلاف، ولو متواضعة، يشهدها المجتمع الإسرائيلي، حول السياسات الداخلية أو الخارجية، والنفخ فيها، وتضخيمها، وتلوينها، وتزيينها، وتسويقها للجماهير العربية، " هنود " العالم، " الحمر " الجدد، وتصويرها باعتبارها علامة تغيُّر هائلة، ودلالة تطور ضخمة، في توجهات المجتمع والدولة الصهيونيتين، تجاه (السلام) المزعوم، وباتجاه العطف على مطالب شعب فلسطين والعرب!!، ومحاولة الاندماج في المنطقة والتخلي عن الماضي العدواني العنصري، لبناء مستقبل " المنطقة " المشترك الجديد ؟!

وفور إيقاف القتال عام ١٩٧٣، ومع بداية المفاوضات بين نظام السادات والولايات المتحدة وإسرائيل، دارت تروس آلة إعلامية هائلة القرارات، لمحاولة زرع هذه الأفكار في وجدان المواطن المصري والعربي، شارك فيها كتّاب

وسياسيون وفنانون ومراكز أبحاث، ودور نشر، وجامعات، ووزارات، وشركات وفضائيات ورجال أعمال وتسويق، ورُصدت لها مئات الملايين من الدولارات، بهدف إقناع شعوبنا أن عصر السلام والوئام قد حّل، وأن كل ما علينا أن ننسى الصراع وأيامه، وأن نقبل على حصد نتائج " عصر السلام "، وأن ندير الظهر الوطن السليب، والدور المهدومة، والدماء المهددة، ولأولئك " المهووسين " الذين يُصَّرون على التمسك بالشعارات البائدة: " تحرير الأرض المحتلة "، مواجهة الصهيونية "، التصدى لمؤامرات الاستعمار "، " التنمية المستقلة ".. إلخ.

وكانت معركة " تحالف كوبنهاجن "، الذي أطُلق عليه مسمى " التحالف العربي الإسرائيلي من أجل السلام " من أبرز المعارك التي دارت في مفتتح عام ١٩٩٧، وستظل ماثلة أمامنا، باعتبارها واحدة من الملاحم البطولية للمثقفين الوطنيين المصريين، التي خاضوها ضد " لوبي التطبيع " في مصر والعالم العربي، المدعوم أمريكياً ورسميًا وغربيًا، وحققوا فيها نتائج باهرة، انتهت بهزيمة محاولة الاختراق " الكوبنهاجن "، وتفكك أوصال هذا التحالف الخبيث.

ولمن لا يذكر التفاصيل، وللأجيال الجديدة من الوطنيين الشباب، أقول أن معركة " تحالف كوبنهاجن "، الذي استمد اسم من أسماء العاصمة الديناماركية التي كان يعقد اجتماعاته بها، قد دارت رحاها على صفحات الجرائد وفي قضاء " الميديا " الإعلامية، وفي الندوات والمؤتمرات والمظاهرات، وبين التكتل الوطني الواسع الذي ضم أطيافًا وطنية من اليمين لليسار "، وبين الفريق التطبيعي، الذي ضم من مصر: " لطف الخولي "، الكاتب الصحفي، ود. عبد المنعم سعيد، الكاتب الصحفي ومدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية المؤسسة في تلك الفترة (ورئيس مجلس إدارة مؤسسة " الأهرام " الآن)، ود. منى مكرم عبيد، ود. محمد رضا

محرم، واللواء. أحمد فخر، وغيرهم بعد أن انسحب الأستاذ/ محمد سيد أحمد، الكاتب السياسي من المشروع – رغم أنه كان صاحب الفكرة الأصلية له لتشككه في دوافع ونوايا وتوجهات رموزه!.

وعلى الجانب الأردني، فقد شارك في إنشاء هذا التحالف، رئيسان سابقان للديوان الملكي: طاهر المصري وعدنان أبو عودة، كما شارك فيه على الجانب الفلسطيني: " رياض المالكي "، و " سري نسيبه "، و " حنا سنيورة "، و " عدنان أبو عودة "، و " مروان البرغوثي " (الذي اعتقل بعد ذلك!)، وآخرون.

أما على الجانب الصهيوني، فقد كان أبرز المساهمين في تأسيسه: ديفيد كيمحى"، المدير العام السابق لوزارة الخارجية الإسرائيلية، ومسؤول جهاز " الموساد " في أوروبا، و " ثلومو بن عامي "، عضو الكنيست عن حزب " العمل "، (ووزير الخارجية في وقت لاحق)، و " يهودا لينكري "، عضو الكنيست عن حزب " جيشر "، والصحفي " ناحام نوفاك " وآخرون.

وقد أثار الجدل الفكري العارم، الذي صاحب معركة " تحالف كوبنهاجن " الحوار حول كل القضايا المرتبطة بالغايات الاستراتيجية للمشروع الصهيوني الاستيطاني العنصرى، وحول طبيعة العدوانية، وارتباطاته العضوية – الموضوعية، بالإمبريالية الأمريكية، والمشروع الرأسمالي الغربي للهيمنة على الشعوب وثرواتها، وكان طبيعيًا – في هذا السياق – أن يتم مناقشة مسألة " السلام " والدعاوى اللصيقة به، وكذلك فكرة " الشرق أوسطية "، الهوية البديلة للهوية العربية، التي طُرحت مجددًا – بعد أن استُخرجت من أضابير الفكر الاستعماري القديم والتحديثات المعاصرة على يد " برنارد لويس " وأشياعه، لكي يتم تمريرها، وتقديمها في ثوب جديد قشيب، على لسان واحد من أمهر دهاقنة الصهيونية،

وأخطر مفكريها الاستراتيجيين: " شمعون بيريس "، في كتابه الهام " الشرق الأوسط الجديد "، " The New Middle East "، الذي كان قد صدر، وتُرجم، وأصبح " مانيفستو " التطبيعيين العرب، من المحيط إلى الخليج!.

وهكذا..

فالقارئ لهذا الكتاب، إذ يستحضر المناخ الذي كُتبت فيه صفحاته، والذي أشرنا إلى طرف منه في السطور السابقة، سيجد أن القضايا التي تناولها بالشرح والدحض، والتحليل والتفكيك، والتحرير والمجابهة، لازالت هي ذاتها المطروحة علينا الآن، ومن هنا تأتي مسوغات إعادة طبع هذا الكتاب، فهو لا يتحدث عن تاريخ مضى وعبر، أو وقائع مرّت وانقضت، وإنما يتحدث عن واقع حي، لازالت توابعه، وآثاره، تواجهنا أينما أدرنا أبصارنا، وتثقل بثقلها على كواهلنا: وقائع صراع المستقبل الحياة، والوجود والمصير بيننا وبين عدو أمتنا، ونضالنا من أجل استعادة حقوقنا المهدرة وتحرير أراضينا المحتلة، وإرادتنا المحبوسة، في فلسطين والعراق، وشتى بقاع الوطن الكبير، والعالم أجمع.

.... وأخيرًا:

فسلام على فلسطين وترابها المقدس.

وعلى الصامدين في ربوعها، رغم مؤامرات الطرد والاقتلاع.

وعلى شهداء الحرية الذين رووها بدمهم الزكي.

وعلى كل نبتة خضراء انغرست في طينها، وطائر طليق رفرف في سماها.. حتى تعود.

القاهرة سبتمبر ٢٠١٠

* * *

هذا الكتاب
مقدمة الطبعة الأولى

أحمد بهاء الدين شعبان

ترتبط حياة جيلنا - بصورة عضوية - بالصراع العربي الإسرائيلي، وبقضية فلسطين، حتى ليصح القول أن ميلاد ومسار تطور هذه القضية، هو تاريخ شخصي لكل فرد من أبناء هذا الوطن، بصورة عامة، ولكل واحد من أبناء هذا الجيل - على وجه الخصوص - الذين أبصرت عيونهم النور حوالى منتصف هذا القرن، قبل إعلان الدولة الصهيونية المغتصبة، واكتمال مأساة الشعب الفلسطيني، أو بعدها، بقليل.

وفى سنوات الطفولة الأولى، تفتحت رؤيتنا للوجود على وطننا وهو يقاتل دول العدوان الثلاثي (وفى القلب منها إسرائيل) ويتصدى لهم ببطولة، في بورسعيد عام ١٩٥٦، أما في مفتتح شبابنا فقد هزت أعماقنا الهزيمة الفادحة في يونيو ١٩٦٧، وألقت بظلالها السوداء على سنوات صبانا اليافع، فأثرت تأثيرًا مباشرًا على مكونات وعينا، ووضعت أمامنا أولوية أولى - كهدف مصيرى لوجودنا - هو النضال من أجل تحرير الوطن، والتصدى للهجمة الصهيونية - الإمبريالية، التي تتهدده بالخطر على كل الجبهات.

وقد كان هذا الاختيار وراء دفع جهدنا، في الجامعة، باتجاه إنشاء جماعات " أنصار الثورة الفلسطينية "، وكان أيضًا حافز التفجرات الطلابية التي هزت جامعات مصر،

في عقد السبعينات، ثم كان من خلف قرارى بمعايشة الثورة الفلسطينية على امتداد أكثر من أربع سنوات من أواخر السبعينات حتى قبيل الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، ثم هو أيضا كان الحافز لتكريس أغلب جهدي الثقافي والسياسي بعدها، وطوال عقد التسعينات، من أجل متابعة ما يحدث على ساحة الصراع المصيري مع العدو الصهيوني، فكان أن قدمت إسهاما متواضعا - في هذا السياق - متمثلاً في ثلاثة كتب، هي على التتابع: " الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية عام ٢٠٠٠ " و " اتفاقية غزة أريحا " [بالاشتراك مع الأستاذة نادية رفعت]، وأخيرًا " حاخامات وجنرالات: الدين والدولة في إسرائيل "، حاولت عبرها - جهد طاقتي - تتبع مجتمع العدو الصهيوني في مظاهره الرئيسية:

(١) اتجاهاته الأمنية السياسية والعسكرية، التي يسعى بواسطتها لفرض هيمنته كقوة إقليمية أولى في المنطقة.

(٢) سعيه لاستكمال مقومات هذه الهيمنة بسيطرته اقتصاديا على بلادنا، عن طريق اتفاقات إذعان يحقق بها جانبا متعاظما من أغراضه التوسعية.

(٣) وأخيرا طبيعة التناقضات البنيوية المتفاعلة داخله، وحدود تأثيرها على وضعيته الراهنة، وعلى مستقبله.

كذلك، فقد بذلت غاية جهدى في محاولة متابعة التطورات الاستراتيجية والسياسية والثقافية والاجتماعية المتعلقة بصراعنا التاريخى مع عدونا، عن طريق الكتابات الصحفية والتحدث أمام المنابر المصرية والعربية، باعتبار ذلك واجبا أساسيا ينبغى القيام بعبئه مهما كانت الظروف.

وفى إطار هذه الجهود المبذولة لتتبع ما يطرأ على الدولة الصهيونية من تغيرات وما يُستحدث فيها من وقائع، تحاول هذه المجموعة الجديدة من الدراسات، التي يحتويها هذا الكتاب، أن تلقى مزيدا من الضوء على مجموعة من الظواهر

والمفاهيم المستجدة فيها، والتي كانت سببا للعديد من الالتباسات لدى البعض من المثقفين والمواطنين العرب، بما صاحبها من خلط مُتَعمد، وما شاب طرحها من تعتيم مقصود، فأحدثت بلبلة كبيرة، وسببت تصادمات فكرية عاتية، وشكلت مدخلاً لاختراقات أيديولوجية ملموسة على الجبهة الثقافية المصرية والعربية، ومنها قضايا " ما بعد الصهيونية "، و " حركة السلام في إسرائيل "، وجدوى مشاريع " التطبيع " بين المثقفين العرب والمثقفين الصهاينة.. وغيرها من القضايا، التي ستتصاعد أهميتها مع التطورات الحافلة التي ستشهدها المنطقة في الفترة القادمة، وخصوصا إذا أعادت الانتخابات القادمة حزب العمل إلى السلطة، وبدأ ما يصفه - عن حق - أحد الأساتذة الزملاء بـ " موسم الحج إلى (اليسار) الإسرائيلي "!!.

وأخيرًا، فمن واجبي أن أوجه شكري لكل الأصدقاء والزملاء من المعنيين والمهتمين، الذين قدموا لي العون بطيب خاطر، وهيؤوا لي كل أشكال الدعم والمساندة، حتى يخرج هذا العمل بصورته اللائقة. القاهرة ١٩٩٩/٢/٤

الفصل الأول

الصهيونيـة
وما بـعدها
قراءة في أبـعاد
ودلالات ظاهـرة
" المؤرخين الجدد"

الفصل الأول

الصهيونية وما بـعدها

قراءة في أبعاد ودلالات ظاهرة " المؤرخين الجدد

" إن السياسيين الإسرائيليين كذابون منذ أن ولدتهم أمهاتهم " [١].على أعتاب الاحتفال بمرور نصف قرن على إعلان الدولة، استيقظت إسرائيل - على حد وصف " دانيئيل بن - سيمون " - فوجدت نفسها " دولة أخرى " [٢]!؟ وفى نظر العديد من المراقبين، فقد بدت إسرائيل عشية العيد الخمسيني " دولة منقسمة على نفسها " [٣]، وشبّه البعض ما تمر به من أعراض بـ " أزمة منتصف العمر "، متسائلين مثلما تساءل " بوب سايمون " مراسل الـ C.N.N: " ترى هل تعيش إسرائيل للاحتفال بعيدها المئوي!؟ " [٤].

فالدولة التي بُنيت عنوة، وفُرضت فرضا على الواقع العربي المعادى المحيط، وقطعت شوطا مرموقا على مدارج التطور العلمي والنمو الاقتصادي، وأعدت جيشًا جرارًا مدججا بأحدث ما تنتجه ترسانات السلاح في العالم، والدولة التي تحصنت وحدها - في المنطقة - بجدار الردع النووي المنفرد، وتحدت بغطرسة - غير مسبوقة - العالم و " شرعياته "... باتت عاجزة عن أن تلم شتاتها الممزق، أو أن تحمى بيتها الداخلي من التداعي، وفى الوقت الذي يتباهى رئيس الوزراء " بنيامين نتنياهو " بأن دولته ستصبح، في غضون سنوات قليلة، واحدة من أغنى وأقوى دول العالم، تجتذب المليارات - من أنحاء العالم - للاستثمار، اعتمادا على " الطاقة الحيوية الكامنة " [٥]، يبدو البناء للمدققين، ولعديد من المحللين، ولكثيرين من القائمين فيه هَشًا، مُهددًا بالانهيار، وتُطرح فيه - وربما الأولى - " أسئلة البداهة " التي وجدت الشعوب السوية في الأرض كافة إجاباتها منذ قرون: من

نحن؟! ومن أين أتينا؟! وإلى أين نذهب؟!، وهى أسئلة على بساطتها، عصية - في مثل الحالة الإسرائيلية - على الإجابة، لأنها - في واقع الأمر - تمس جوهر الوجود الملتبس للدولة الصهيونية ذاته، وتصيب عمق المشروع الصهيوني في مبناه ومبتغاه، ولأنها أيضا، تأتى في وقت حرج، تتصاعد فيه نذر التفسخ، وتدق طبول الصدام بين " شظايا " الدولة المتنافرة، والمتصارعة، إلى الحد الذي دفع البعض للتحذير من نشوب " حرب أهلية بين اليهود في إسرائيل " [٦]، بينما رأى الآخرون أن " الصراع اليهودي - اليهودي في إسرائيل هو أشد من الصراع الإسرائيلي/ الفلسطيني " [٧]، الأمر الذي جعل إسرائيل تبدو للناظر من علٍ " مكانا لشتات اليهود، يتشاجرون، ويتنازعون بينهم " على حد وصف يهودية بريطانية! [٨].

مقدمات ودوافع نشأة ظاهرة " المؤرخين الجدد " :

هذه الأسئلة، وغيرها، كان وقعها أشد وطأة، وأعمق تأثيرًا على جيل " الصابرا "، المولود على الأرض الفلسطينية المغتصبة، التي أصبح اسمها " إسرائيل "، فهو وُلد فوقها، وعاش عمره فيها، واكتسب جماع تجربته من حياته عليها، وهو الذي يدفع الثمن الفادح في سبيل الاحتفاظ بها، وهو الذي زيفوا له وعيه، ورسموا له صورة زاهية، امتدت لتشمل تاريخ دولته المصطنع، وهالة " المجد " الذي أحاط بزعمائه وقادته (الأبطال) المزعومين!.

ومثلما كانت حرب ١٩٦٧ مدعاة للفخر، ودعامة من دعامات ترسيخ الفكرة الصهيونية، والدولة الإسرائيلية، أصبحت حرب " يوم الغفران "، حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، دافعا مضادا، لإعادة التفكير في الجدوى الاستراتيجية لجوانب أساسية من المشروع الصهيوني ذاته... فالانتصار في حرب يونيو لم يمنح إسرائيل الأمان، وترسانات السلاح المتقدم لم تمنح مواطنيها ما يطلبون من استقرار ودعة، ودفعت تداعيات حرب أكتوبر، ثم وقائع الغزوة البربرية - غير المبررة - للبنان، وأخيرا تَفَجُّر انتفاضة الشعب الفلسطيني، في عقد الثمانينات العديدين إلى التفكير بعمق، وطرح الكثير من القضايا المصيرية، في محاولة للحصول على إجابة لتساؤل موضوعي لا مفر من مجابهته: لماذا حدث ما حدث؟! وهل " التاريخ " الذي روته المصادر الرسمية عن نشأة الدولة وحروبها وسلوكياتها كان تاريخا حقيقيًا أم مزيفا؟!.. وأهم من هذا كله: هل حقا كانت " أرض إسرائيل "، أرضا بلا صاحب تنتظر " شعبًا بلا أرض " على النحو الذي صوره " الآباء المؤسسون " ودارت به الدعاية الصهيونية على مر العقود؟!.

وقد ساعد في طرح هذه الأسئلة، ودفع باتجاه العمل على تبين أبعاد ومضامين الإجابة عليها العديد من " المتغيرات " التي عمت العالم أجمع، وكان لها انعكاساتها داخل إسرائيل، والعديد من " التطورات " التي عصفت باستقرار الدولة، وغيرت الكثير مما كان قد استقر فيها، وأهم هذه " المتغيرات "، وتلك " التطورات " ما يلي:

(١) انهيار الاتحاد السوفيتي وما نتج عنه من آثار، وأهمها - بالنسبة لإسرائيل - الهجرة الضخمة لليهود (السوفييت) إلى الدولة الصهيونية، الأمر الذي يعنى أنه خلال العقد القادم سيهاجر كل اليهود - تقريبا - من دول الاتحاد السوفيتي سابقا، إليها وهو ما يقود إلى أن تصبح إسرائيل دولة ضامة لـ " أغلب يهود العالم " [٩].

(٢) غزو اتجاهات " ما بعد الحداثة " [١٠]، و " العولمة "، وانعكاساته على الواقع الإسرائيلي.

(٣) التطورات على مسار عملية التسوية السلمية، وبروز احتمال دخول إسرائيل في شبكة العلاقات مع الدول العربية و المحيطة، وانفتاحها الواسع على النظام السياسي الدولي [١١].

(٤) التحولات العميقة التي طالت مجمل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في إسرائيل، حيث يرى بعض المحللين أن ما عزز من توجهات " المؤرخين وعلماء الاجتماع الجدد " حدوث مجموعة من التغيرات الداخلية حفزتها التطورات العالمية الخارجية، بحيث ضعفت سيطرة الدولة والهستدروت على الاقتصاد لحسابات المصالح التجارية الخاصة، وأصبح الصرح المؤسساتي الذي أوجدته " حركة العمل " أو " الصهيونية العمالية " حول " الهستدورت " يُنظر إليه بوصفه عائقا

أمام " الرفاه والازدهار "، وكذلك طالت هذه التطورات " الروح الاستيطانية "، " الريادية " ومؤسساتها، والتي كانت أمرًا حيويا للدولة ولعملية بنائها، بحيث أصبحت - في نظر الأجيال الجديدة - " شيئا من مُخلّفات الماضي " وعائقا أمام المصالح الاقتصادية والسياسية " لشرائح من المجتمع، وعبئا على مؤسسات الدولة، حيث ظهر ما وصف به " الاستيطان مكيف الهواء "، و " المستوطنون المرتزقة " (١٢)، كناية عن أركان حركة الاستيطان الجديدة، التي أغدقت عليها حكومات الليكود اليمينية مئات الملايين من الدولارات في الحقبة الأخيرة.هذه الأسباب وغيرها، أدت إلى بروز ما أطلق عليه ظاهرة " المؤرخين الجدد "، و " علماء الاجتماع الجدد "، وطرح الحوار - داخل المجتمع الإسرائيلي وخارجه - حول مفهوم " ما بعد الصهيونية ".

ما بعد الصهيونية : البحث عن تعريف :

وحينما نأتي إلى محاولة تعريف مفهوم " ما بعد الصهيونية " سنكتشف التباين الواسع، والحد المتعاظم من الالتباسات المحيطة به.

فبينما يعلن " توم سجيف "، وهو أحد " المؤرخين الجدد "، " المتهمين " بالترويج لمفهوم " ما بعد الصهيونية "، أنه يجهل مضمون " هذا الشيء المسمى " ما بعد الصهيونية! " (١٣)، وأنه لا يعدو أن يكون " شتيمة موجهة إلى شخص تختلف مقاربته للصهيونية عن مقاربة من شتمه! " (١٤)، يعرفها " أمنون روبنشتاين " أستاذ القانون، ووزير التربية والتعليم، سابقًا، باعتبارها: " نظرة تعتبر الصهيونية حركة كولونيالية " (١٥)، اتخذت مواقف صماء تجاه الظلم الذي ألحق بالعرب، ويضيف، أنها - بحسب رأيه - مجرد " لملمة مذاهب تافهة، أو ترهات احتيالية! (١٦)، ويتفق رأى البروفيسور " يوسف جورني "، رئيس معهد " حاييم وايزمن "

لدراسة الصهيونية، مع هذا الرأي تقريبا، حيث يرى أن الغاية المتسترة خلق مفهوم " ما بعد الصهيونية "، هي " معاداة الصهيونية " [١٧]، في حين ينكر البروفيسور يو آف جلبر "، رئيس معهد - هرتسل " لدراسة الصهيونية المفهوم ذاته، لأنه " كما لا يمكن لحديث عن " ما بعد الأسبانية "، أو " ما بعد الفرنسية "، فمن غير الممكن الحديث عن " ما بعد الصهيونية "...، لأن الصهيونية - من وجهة نظره - هي " الزي العصري للقومية اليهودية " [١٨]، أما " إيلان بابيه "، وهو واحد من أكثر " المؤرخين الجدد " راديكالية، فيرى أنها نظرة جديدة للصهيونية، تسعى - على سبيل المثال - إلى تحويل إسرائيل إلى " دولة جميع مواطنيها "، وهى نظرة تتطلع إلى ماضي الصهيونية بنظرة انتقادية و " كئيبة "، وإلى المستقبل بنظرة غير صهيونية " [١٩]، بينما يربط الحاخام " آفي جيسر " بينها وبين الصهيونية: " أنا صهيوني.. أنا " ما بعد صهيوني؟! " [٢٠].

وهذه الفروقات الكبيرة في تحديد ملامح مفهوم " ما بعد الصهيونية "، تعكس اختلاف المواقع والدوافع والمنطلقات والغايات، ومنظور الحكم، الذي يؤدى - في نهاية المطاف - إلى هذه التباينات الكبيرة في التعريف والتقييم.

وبصورة أقرب للصحة، يمكن صياغة مفهوم " ما بعد الصهيونية "، استنادًا إلى مجمل الأفكار المطروحة - إسرائيليا - على النحو التالي:

" إنها رؤية أكاديمية: فكرية / تاريخية / اجتماعية، [ذات أبعاد سياسية]، تتناول بالبحث والتمحيص " الأساطير المؤسسة " للدولة الصهيونية، والروايات الإسرائيلية الرسمية التاريخية، والمفاهيم المستقرة، حول طبيعة الصراع العربي / الإسرائيلي، والغايات الاستراتيجية للمشروع الصهيوني، وكذلك تاريخ الحروب (اليهودية) ضد العرب، ومسلكيات القادة الإسرائيليين (الفعلية) في مواجهة

أصحاب الأرض الأصليين، وغير ذلك من القضايا المرتبطة بتاريخ وتكتيكات وسسيولوجيا الصراع "، ومن أجل تحقيق هذه الغاية، تلجأ هذه الرواية لفحص " المسكوت عنه " في الوقائع والتحركات اليومية الرئيسية التي تم الكشف عن وثائقها مؤخرا، وأساسا في الأرشيفين الإسرائيلي والبريطاني، يقوم بهذه المهمة عدد من المؤرخين وعلماء الاجتماع (الشباب)، الذين لم تتعد أعمارهم عمر الدولة نفسها، وهم من مواليد فلسطين، (الصابرا) في الأغلب الأعم.

يدين بعض هؤلاء " المؤرخين وعلماء الاجتماع الجدد " بمرجعية (ماركسية)، أو (نيوماركسية)، لكن حسب " أمنون روبنشتاين "، فإن معظمهم، (إن لم يكن كلهم) من أنصار النزعة المسماة " ما بعد الحداثة " ، " post - Modernism " ومضمونها في الحقل التاريخي - على سبيل المثال - أنه " لا يوجد تاريخ موضوعي يسعى الباحث لمعرفته، حتى لو لم يتوصل إليه دائما، وإنما هناك سلسلة من الروايات التاريخية، (narratives)، تعبر عن مجموعات متنوعة لم يأبه التاريخ الرسمي لرؤيتها للأحداث؟ وينبغي للمؤرخ المعاصر أن ينتبه لكل هذه الروايات، وألاّ يكتفي بالشهادات والوثائق، لأنه يوجد دائما شك في أن هذه قررتها النخب بصورة منحازة، وأملاها موقع هذه النخب الاجتماعي " [٢١].

ومن أبرز الأسماء التي لعبت دورا طليعيا في هذا السياق كل من " بني موريس "، صاحب دراسة " **مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧ - ١٩٤٩** "، و " **إيلان بابيه** " صاحب دراسة " **بريطانيا والصراع العربي الإسرائيلي/ ١٩٤٨ - ١٩٥١** "، و " **سيمحا فلابان** " صاحب دراسة " **مولد إسرائيل: أسطورة ووقائع** "، و " **توم سجيف** " صاحب دراسة " **١٩٤٩/ الإسرائيليون الأوائل** " ودراسة " **المليون السابع** "، و " **آفى شلايم** " صاحب

دراسة " **صدام حول نهر الأردن** "، و " **ديفيد جروسمان** " صاحب دراسة " **الهواء الأصفر** " (عن أطفال الحجارة)، و " **أنيتا شابيرا** ": " **سيف الحماقة: الصهيونية والقوة** " و " **السير فوق خط الأفق** " و " **يهود حداثيون ويهود سلفيون** "، وأستاذ علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا " **جرشون شافير** ": " **علم الاجتماع النقدي وتصفية الواقع الاستعماري الصهيوني** "، وكذلك " **باروخ كيرلنج** "، أستاذ علم الاجتماع بالجامعة العبرية.. وغيرهم.

وثمة من يُقسِّمُ " المؤرخين الجدد " وأعمالهم النقدية إلى تيارات ثلاثة:

الأول: يرى أن نهاية المشروع الصهيوني قد وصلت غايتها وقاربت على الاكتمال، بإتمام عملية استيعاب أغلبية (الشعب) اليهودي في بنية الدولة الإسرائيلية، وأن على إسرائيل - انطلاقا من هذا - " أن تكف عن أن تكون دولة يهودية، وعليها أن تصبح دولة اعتيادية، أي دولة كل مواطنيها " فحسب، أي لا يعود لها صلة رسمية وخاصة بيهود الشتات (مثلما هو حادث الآن)، وهذا القسم يرى أن قانون العودة " قد مضى زمانه، ولم يعد له ضرورة عملية أو فكرية " (٢٢) ، بل على العكس فهو ينتج آثارًا ضارة لجهة كونه قانونًا شديد الإجحاف والتمييز ضد (عرب إسرائيل) وحقوقهم المتساوية.. وبالرغم من أن أفراد هذا القسم لا يُنكرون " شرعية القومية اليهودية " (٢٣)، فإنهم يدعون أن " الصهيونية نجحت في مشروعها إلى حد أنها لم يعد لها لزوم " (٢٤).

والثاني: ويمثله أساسا " بني موريس "، وهذا التيار " لا ينكر هو أيضًا شرعية الصهيونية "، لكنه ينظر بالاعتبار إلى " أعمال الظلم " تجاه العرب، وكذلك جهود إخفائها - وتنطلق هذه المحاولات من إقرار أن " إسرائيل قوية بما فيه الكفاية لتسمح لنفسها بتفحص الماضي القريب، حتى ولو أدى ذلك إلى كشف حقائق قاسية

" [٢٥].

أما التيار الثالث: فهو النوع من النقد الذي يتحول من " ما بعد صهيونى " إلى " مُعادٍ للصهيونية! "، وهو تيار " لا يتورع عن استخدام أى تكتيك من أجل إظهار الصهيونية وإسرائيل كأنهما ملطختان منذ البداية! " [٢٦].

والواقع أن أي كتابات " ما بعد الصهيونيين "، كما سيتضح فيما بعد، لم تصل في أكثر معطياتها راديكالية وحدة في نقد تجربة بناء الدولة الإسرائيلية ومسار المشروع الصهيونى في نصف القرن الأخير، حدود " معاداة الصهيونية " التي يشير إليها " روبنشتاين "، بل وعلى أكثر الفروض اقترابًا من الدقة، فهى تعمل على تصحيح صورة الدولة وتجميل سمعتها، بمحاولة الإشارة إلى بعض ما علق بها من أوحال، لإزالتها، وحتى تكتمل الملامح " الأخلاقية " لها، على حد ما أشار البعض من هؤلاء، ولكى تدخل النصف الثانى من مئويتها الأولى، وهى أكثر قدرة على مجابهة ما يحيط بها من مشاكل، وما يواجهها من تحديات.

أطروحات وقضايا " المؤرخين الجدد " :

أ - " الخطيئة الأولى " والمولودون في الإثم :

" إذا كانت الخطيئة الأولى - بموجب اللاهوت المسيحى، هي تلك التي يحملها الإنسان معه منذ ساعة مولده، بل منذ ساعة تكونه في الرحم، فإن مرادف الخطيئة الأصلية - بالنسبة إلى إسرائيل - منذ قيامها كدولة قبل خمسين سنة، بل منذ إرساء اللبنة الأولى لوجودها مع صدور كتاب " تيودور هرتزل " عن " الدولة اليهودية " عام ١٨٩٥، هي خطيئتها بحق الفلسطينيين " [٢٧].

فلأن المشروع الصهيوني مشروع استيطاني إحلالي، فإن جوهره الحقيقي هو

السعى لتفريغ الأرض الفلسطينية من سكانها، مصداقا لزعمه بأن فلسطين كانت " أرضا بلا شعب " تنتظر " الشعب الذي بلا أرض " لكى يُعَمِّرُها.

ويفصح "بني موريس " ، في كتابه الصادر عن منشورات " جامعة كمبردج "، عام ١٩٨٧، باسم " مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين: ١٩٤٧ - ١٩٤٩ "، الخطط والإجراءات والممارسات المتخذة - عمدا وقصدا - من القيادات الصهيونية لـ " تنظيف " الأرض من سكانها العرب، وقدم " موريس " في الصفحات الأولى من سفره، وعلى خريطة تحدد مواقع ٣٦٩ مدينة وقرية عربية أزيلت، وبُنى مكانها أو احتل موقعها مواقع لمدن وتجمعات يهودية بديلة، ما يثبت أنه من مجموع القرى والمدن العربية المذكورة، تم ترحيل أصحاب ٢٢٨ موقعا بفعل القوة المسلحة والهجمات العسكرية الصهيونية المنظمة، فيما تسببت موجات الإرهاب الصهيوني وأخبار التنكيل والمذابح الدموية (خاصة مذبحة دير ياسين) في إخلاء ٩٠ موقعا، وبينما لم يستطع الباحث التحقق من مصير تفريغ ٤٥ موقعا، فإنه ذكر أن ستة مواقع فقط أخليت بإيعاز من السلطات العربية المحلية، وكإجراء تكتيكى مؤقت، أى أن كل مزاعم القادة الصهيونيين، عن أن الفلسطينيين قد غادروا بلادهم طوعا، أو استجابة لتحريض من القيادات العربية، هي افتراء وكذب صراح، واليقين القاطع أن ما تم هو خطة منظمة لتطهير عرقى هدفه إخلاء الأرض الفلسطينية لاستكمال مشروع الاستيطان الصهيوني، وباعتبار أن الاستيطان، كما كان يقول " بن جوريون " هو " الاحتلال الفعلي " [٢٨] لأرض فلسطين... ويذكر " توم سجيف " أنه بعد أن أعلن وزير الدفاع تقريره عن أعمال القتل - " الذبح " كما وصفها - وأعمال الاغتصاب التي قام بها جنود الجيش الإسرائيلي كسياسة لدفع الفلسطينيين للنزوح، أعلن " أهارون شيزلنج "، وزير الزراعة " أن أعمالا نازية " قام بها

اليهود أيضا " [٢٩].

وحتى الذين رُوّجَ لهم كمعتدلين و " حمائم " و " دعاة سلام "، مثل" شاريت " و " أبا إيبان "، لم يختلف موقعهم - في هذه الموضوعة بالذات - عن " الصقور " ورموز الحرب، فلقد كانت محل إجماع (قومى) " كسياسة مُقَرَّةٌ ومعترفٌ بها، ولا يجادل أحد في أهميتها وضرورتها، فعلى حد تعبير " شاريت " يعتبر إجلاء العرب " حدث رائع في تاريخ البلد، وهو بمعنى معين، أكثر روعة من إقامة دولة إسرائيل! " [٣٠]. وبعد الحرب نفذت القيادة الصهيونية خطة محكمة بهدف المنع الصارم والكلى لعودة اللاجئين إلى ديارهم، وأعلن " بن جوريون " بأنه " لا وجود للاجئين "، هناك مقاتلون أرادوا اقتلاعنا من الجذور " [٣١]. وتساءل مستنكرا: " أُعيد اللاجئين لكى يبيدونا مرة أخرى؟! " [٣٢].

إن القتل، والتنكيل، وإشاعة الإرهاب ومناخ الرعب والفزع، وسفك الدماء، والاغتصاب، ونهب الثروات، وإحلال المستعمرين اليهود الصهاينة محل أصحاب الأرض والدور من العرب الفلسطينين، لم تكن مجرد تصرفات أجبرت الحرب الطرف الصهيوني إلى اللجوء إليها، كما يَدَّعي بعض المؤرخين اليهود الجدد، حتى بعد كل ما قدموه من وثائق، وما قاموا به من قراءات، بل إنها في واقع الحال، كانت خطة محكمة ومنظمة، وعملية " ترانسفير " أو " طرد" مُنَظَّمةٌ هدفها إبقاء " أرض إسرائيل " المدّعاة " بدون عرب " لأنه - حسب قول " يوسف ويتز "، مدير الإدارة العقارية في الصندوق القومى اليهودي آنذاك: " ليس هناك مكان لشعبين في تلك البلاد " [٣٣]!.

٢ ـ " ترانسفير " مع سبق الإصرار:

وقد أوضح كل من البروفيسور الفلسطيني " وليد الخالدى " والمؤرخ الفلسطيني " إلياس صنبر "، الأول في دراسة بعنوان " خطة دالت "، والثانى في دراسته: " فلسطين عام ١٩٤٨: الطرد "، أبعاد الخطة الصهيونية للاستيلاء على فلسطين وتصفية الوجود العربي بها، والتي تمثلت في إكراه ما بين ٧٠٠ ـ ٩٠٠ ألف مواطن على الرحيل، باستخدام القهر والقوة المسلحة والمذابح لفرض عملية " التفريغ "، بينما تصور الرؤية الإسرائيلية الأمر على نحو مغاير وكاذب، حيث تَدَّعى أن ما لا يزيد عن ٥٠٠ ألف فلسطينى قد غادروا أرضهم وهربوا طواعيةً، استجابة لنداء زعمائهم، الذين وعدوهم بالعودة السريعة بعد تحقيق النصر!.

ويذكر " بنى موريس " في " ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين: ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ " أنه ابتداء من أبريل عام ١٩٤٨ تَشَكَّل مما عُرف باسم " لجنة الترحيل " (*)، بقيادة " يوسف ويتز " التي أنشئت كـ " جهاز يقود الحرب، بهدف إجلاء أكبر عدد ممكن من العرب "، وهى اللجنة التي قادت عملية منظمة لتدمير القرى العربية المهجورة أو إعادة تسكينها بمهاجرين يهود جدد، بهدف الحيلولة دون أية إمكانية لعودة اللاجئين الفلسطينيين، ثم أضيف إليها مهمة جسيمة أخرى وهى مضاعفة المستوطنات اليهودية على الحدود.

ورغم الكم الضخم من القرائن التي تؤكد، بما لا يدع مجالا لأدنى شك، حدود وصيغة مؤامرة الطرد المنظم للسكان الفلسطينيين، وهو ما لا تخلو منه صفحة من كتاب "موريس "، أو كتاب " توم سجيف ": " الإسرائيليون الأوائل: ١٩٤٩ "، إلا أنه من اللافت للنظر تجاهل هؤلاء لمضمون هذه القرائن ودلالة تلك المعلومات،

(*) أسماها " بن جوريون " في مذكراته لجنة شؤون " الاقتلاع والطرد " [٣٤].

وقد شَدَّ هذا الموقف انتباه الكاتب الفرنسي " دومنيك فيدال " الذي كتب في " لوموند دبلوماتيك " مستغربا من أن هذا الوضع، لم يمنع " موريس " وغيره من زملائه " من مواصلة استبعاد كل فكرة عن وجود خطة طرد يهودية!، وتبرئة " ديفيد بن جوريون "، رئيس الوكالة اليهودية آنذاك، ثم رئيس الوزراء ووزير الدفاع في دولة إسرائيل الوليدة بعد ذلك " (٣٥)!، ففى رأي "بني موريس" بعد كل ما تقدم، أن ما حدث من نزوح وتهجير كان عملية عشوائية، وكنتيجة جانبية من أعراض الحروب، وليس كهدف تم التخطيط له والعمل على تنفيذه!.

٣ ـ خرافة " داود " و " جوليات " :

ولعل من أهم الخرافات التي ذاعت وشاعت، ورَوَّجَتْ لها أجهزة الإعلام الغربية والصهيونية، خرافة الجيش الإسرائيلي الأسطورى الذي لا يُقهر، والذى تَمكَّنَ، رغم قلة عدده وعتاده، من أن يهزم الجيوش العربية الجرارة المجتمعة من أجل الفتك به، تماما كما فعل الصبى اليهودي " داود " في مواجهة العملاق المعتدى " جوليات " ، على حد ذكر الأسطورة الإسرائيلية / اليهودية.

يثبت " المؤرخون الجدد " بالوقائع والوثائق والمعلومات الرسمية المؤكدة أن هذا الأمر كان محض اختلاق لا أساس له من الصحة، بل أن العكس تماما هو الذي حدث، فقد كان الجيش الإسرائيلي هو الأكثر عددًا من القوات العربية، والأكثر تسليحًا والأفضل تنظيمًا، كما أن الظروف المحيطة، والعوامل الداخلية والخارجية كانت أكثر مواتاة، وأشد ملائمة بالنسبة له، فبحسب وثائق " المؤرخين الجدد " بلغ عدد مقاتلى " الهاجاناة "، حملة السلاح، ٣٥ ألف مقاتل، (مقابل ٢٥ ـ ٣٠ ألف جندى عربى معظمهم غير مهيئين للقتال)، كما كان لدى "الهاجاناة" في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧، ما مجموعه ١٠٤٨٩ بندقية

و٧٠٢ رشاشا خفيفا، و٢٦٦٦ رشاشا متوسطا، و١٨٦ رشاشا ثقيلا، وكان لدى " اليشوف " اليهودي صناعة عسكرية متقدمة، فقد أنتجت مصانع "الهاجاناة"، في تلك السنة، ثلاثة ملايين طلقة و١٥٠ ألف قنبلة و٦٠ ألف مسدس. كما تدفقت الأسلحة (طائرات - مجنزرات - مدافع - ذخائر.. إلخ) من الدول الغربية إلى التجمع الصهيوني بفلسطين استعدادا للحظة الحاسمة [٣٦]، وفى حين كانت ظروف الاستعمار والانقسام والتخلف لدى الطرف العربي عوامل غير مواتية، أجمع "المؤرخون الجدد " على إبراز أهمية عدد من " الأوراق الرابحة " التي كانت تمتلكها الدولة اليهودية الوليدة في مواجهة أعدائها مثل: تحلل المجتمع الفلسطيني، والتمزق العربي، وتردى أوضاع قياداته، وتدنى مستوى جيوشه (في العدد والتدريب والتسليح)، ومساندة بريطانيا العظمى والولايات التحدة - وغيرهما من الدول الكبرى للحركة الصهيونية، وكذلك تعاطف الرأى العام العالمى (بعد النازية) والخيانات العربية، وغيرها من الظروف التي ساعدت الطرف الصهيوني على تحقيق الانتصار. إن ما يورده " "المؤرخون الجدد " من حقائق تدحض بوضوح ادعاء " بن جوريون " الشهير، الذي أطلقه يوم ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٨: " لقد واجه ٧٠٠ ألف يهودى ٢٧ مليون عربى: واحد مقابل أربعين " تلك العبارة التي أصبحت في إسرائيل والغرب بمثابة " أيقونة دعاوية تختصر وترمز إلى الملحمة البطولية اليهودية " [٣٧] المزعومة!.

٤ ـ تدمير السلام.. صناعة صهيونية:

ولعل من أهم القضايا التي ألقى عليه " المؤرخون الإسرائيليون الجدد" أضواء ساطعة ، قضية الموقف الحقيقى، للقادة الصهيونيين، من مسألة السلام، ومساعى إنهاء الحرب!.

الرواية الإسرائيلية الرسمية تقول بأن إسرائيل كانت المبادرة بطرح مشاريع السلام، وأن الدولة العربية هي التي اتخذت مواقف متعننة ورافضة، لكن " فلابن " يثبت الرفض الإسرائيلي المستمر [منذ نهاية الحرب العالمية وحتى ١٩٥٢]، لجميع المقترحات التي قدمتها الدول العربية من أجل التسوية، ويؤكد " توم سجيف " الموقف القاطع للقادة الإسرائيليين الرافض لهذا التوجه، فـ" بن جوريون" كان - من وجهة نظر البعض - يرى أن حالة الصدام المستمر تساعد على توفير " التوتر المطلوب لتوحيد المجتمع الإسرائيلي وبلورته، وعلى استمرار سلطة ماباى " [٣٩]، وقد انطلق " بن جوريون " - حسب رأى " سجيف " - من أن "الزمن يعمل لمصلحة إسرائيل، فإذا ما استطاعت إسرائيل الصمود وتعزيز قوتها وبناء قوة رادعة، سيرضخ العرب. وسيجبرون على الاعتراف بوجودها" !، وتبلورت آنذاك " مدرسة فكرية " ترى أن " السلام غير مُجدٍ " [٤٠]، وتطالب بالتوقف حتى عن الإدلاء بتصريحات عن رغبتنا في السلام، الأمر الذي يفسره العالم العربي بأنه "علامة ضعف واستعداد للرضوخ! ".. بل علينا - كما أعلن موشيه شاريت، وزير الخارجية - " أن نقول عكس ذلك: لا حاجة بنا للسلام! " [٤١]، " ومن هنا كان تعمد إفشال كل مساعى التسوية (السلمية)، وهو المنهج الذي تم ترسيخه هناك.. ولا زال مستمراً حتى الآن.

٥ ـ تناقضات " الهوية " وأزمة الديمقراطية :

تعيش إسرائيل لحظة تناقض حاد، بين هويتها الواقعية كدولة عنصرية لليهود، وبين ادعاءاتها باعتبارها " واحة للديمقراطية " في " صحراء الديكتاتوريات العربية القاحلة" !، إلى الحد الذي يتبجح فيه " بنيامين نتنياهو "، رئيس الوزراء الصهيوني، فيدعى أن الاتفاقات مع العرب، لا تساوى

وزن الريشة، بسبب أنها اتفاقات وُقِّعَتْ بين حكومة ديمقراطية (إسرائيل)، وحكومات ديكتاتورية، غير مأمونة الجانب في كل بلدان العرب!.

وقد لمس " المؤرخون الجدد " هذا الوتر الحساس، والتناقض الهيكلي، في بنية وتشكيلة إسرائيل الأيديولوجية: ليس هذا فحسب، بل أن " باروخ كيرلنج " يُزايد، مشيرا إلى أن التنازلات التي قُدِّمَتْ لصالح التيارات الدينية المتطرفة، جعلت إسرائيل " ليست حتى يهودية، وإنما هي يهودية - أرثوذوكسية " [٤٢] وتتحول إسرائيل شيئا فشيئا، ومن جراء نقل المزيد والمزيد من صلاحيات المجتمع المدنى/ العلمانى إلى أيدى التجمع الدينى المتطرف إلى " دولة ثيوقراطية (خاضعة لحكم رجال الدين جزئيا)، لا تنسجم مع أى تعريف للديمقراطية، ويفرض هذا النظام قيودا شديدة على المواطنين العلمانيين أو المواطنين المنتمين إلى تيارات دينية أخرى " [٤٣]، فالمشروع الصهيوني - من وجهة نظر " كيمرلنج " - حينما اختار أرض فلسطين لكى يرمى شباكه عليها، ولكى يفرض سيطرته الاستعمارية على أركانها، لم يكن ذلك الاختيار راجعا إلى " رحابة أراضيها الخصبة، أو ثرواتها الطبيعية، أو قوة العمل الرخيصة الموجودة فيها، أو أسواقها الموجودة فيها، وإنما بسبب دواعٍ أيديولوجية - دينية " [٤٤] وقد أدى هذا الاختيار، ليس فقط إلى جعل المشروع الصهيوني "عاجزا عن إعالة نفسه من ناحية اقتصادية " بل حولته " إلى مشروع دينى من أساسه، لا يستطيع الانفصال عن هويته الأصلية لحركة شبه مسيحانية " [٤٥].. إن جوهر حق هذا المجتمع وهذه الدولة، يقول " كيمرلنج "، وسبب قيامها أيضا، " كانا متجذرين في الرموز والأفكار والكتب المقدسة الدينية، وإن كانت [الصهيونية]، حاولت ربطهما بتفسيرات وسياقات علمانية " [٤٦].. إن هذا الوضع حمل في طياته تناقضا لا يمكن حله - موضوعيا - فبناء الدولة كـ " ملاذ لليهود "، وكدولة يهودية جعلها، بحكم تعريفها نفسه، دولة عنصرية، دولة غير ديمقراطية، لأنها تحرم أتباع الديانات الأخرى من حقوق المواطنة الكاملة بسبب من اختلاف ديانتهم، وهى إذ تكف عن هذه الممارسات، وتسمح لهم بأن يصبحوا مواطنين من الدرجة الأولى بها، تكف في ذات اللحظة عن أن تكون دولة يهودية، وهذا هو جوهر المأزق الإسرائيلى، لأن هذه الصيغة العنصرية هي مبرر الوجود الأوحد للدولة، وحيث " من دون الأساطير الصهيونية، التي هي ليست إلا أكاذيب عن أكاذيب في أكاذيب، سوف ينهار والمجتمع الإسرائيلي [٤٧] كما يقول " إيلى أمينوف

" ناقدا هذا المنحى، لأنه لكى يتم خلق مجتمع عادى ودولة عادية يجب - ليس فصل الدين عن الدولة فحسب، إنما الشروع أيضا بعمليات إجرائية لبناء " إطار ديمقراطى علمانى مستقر ودائم" (٤٨)، ومن ثم فإن " إيلى أمينوف " يرد على مزاعم البروفيسور " شلومو أفيرى " الذي يقول: إن هذه الأساطير تعبير عن " الحاجة للحفاظ على رموز تاريخية مربوطة في الذاكرة والتجربة الجماعية " (٤٩)، ومن المؤكد أن هذا السياق لابد أن يقود إلى وضع يُحَتِّمُ ممارسة سياسات التطهير العرقى للحفاظ على " نقاوة الدم " (*) - وهى نفس ادعاءات النازية ذاتها - تحت تبريرات جديدة ترى أن الدولة " أحادية القومية "، " هى الوحيدة القادرة على بناء ديمقراطية مستقرة!! " (٥٠)، مدفوعة في ذلك بأحط ما في الطبائع البشرية من صفات، أى " غريزة البقاء "، كما يقول " أمنون روبنشتاين "، الأمر الذي دفع " إيلان بابيه " للرد: " إذا كان محظورا علينا انتقاد غريزة البقاء هذه ومظالمها، فلن نكون مختلفين عن أسوأ ما في الشعوب، الذين برروا - باسم غريزة البقاء - مجازر رهيبة " (٥١).

" المؤرخون الجدد " : محاولة للتقييم

نادرا ما يمكن لظاهرة مثل ظاهرة " المؤرخون الجدد "، متفاعلة وديناميكية ومعاصرة. أن تحصل على تقييم موضوعى مبنى على مفاهيم إدراكية شبه متجردة من التحاملات أو التحيزات المسبقة، بالنظر إلى كونها تمس " تابوهات "، احتلت وضعية تقرب من القداسة، بحيث أصبح المس بها، أو الخروج عليها، سلوكا يقترب من التجديف.

ومع هذا فلا مناص من محاولة تَلَمُّس الملامح الإيجابية والسلبية لهذه الظاهرة، سعيا إلى محاولة بلورة نهج أقرب للصحة في التعاطى معها، ومع تداعياتها ونتاجها الفكرى، ومن ثم السياسى.

(*) " إن الدم الإسرائيلي هو المفضل عند الله، إنه أكثر إحمرارًا من دم الآخرين!! ".. (ولابد من العنف)، بدون الانتقام يسقط الإنسان في هوة المرارة واللاتقوى!! " (٢٥).
الحاخام الإسرائيلي " إسحاق بنسبرج ".

ويمكن رصد هذه الملامح من منظورين متقاطعين، متناقضين ومتلازمين في نفس الوقت:

أ - المنظور الإسرائيلي. ب - المنظور العربي.

أ - المنظور الإسرائيلي:

لا يعتبر أغلب المنتمين لتيارات " ما بعد الصهيونية " أنفسهم معادين للصهيونية، أو خارجين على ناموسها، فـ " بنى موريس "، على سبيل المثال، يرفض الربط أو التماثل بين " ما بعد الصهيونية " و " معادٍ للصهيونية "! [٥٣].

ويعتبر " موريس " نفسه، تحديدا، " مواطنا وصهيونيا " [٥٤]، بل وأن دراساته - كما يراها - تُعَتبر " عملاً صهيونيا " [٥٥]، وتساعد دراساته على تلافى بعض مسارات الخلل في القراءة التاريخية لماضيها القريب، وإضاءة لجانب من مسارات تاريخية مهمة.. بما يخدم صورة المشروع الأصلية، ويزود عنها ما يتناثر عليها من أوساخ، ويحسن هيئتها أمام أنصارها، في الداخل، وأساسا في الخارج.

و " توم سجيف " هو الآخر ينحو هذا المنحى ذاته، وربما يتخذ موقفا أكثر تخلفا، بالرغم من أن كتابه " ١٩٤٩: الإسرائيليون الأوائل " مليء بالوقائع التي كان ينبغى أن تقوده إلى نتائج أكثر قطعا وتحديدا، فهو يؤكد أن الحوار حول تاريخ إسرائيل " يجرى بأجمعه داخل الصهيونية، فمع الشيوعيين أو مع الأرثوذكسية الدينية، مثلا، لا يمكن أن يُجرى نقاش كهذا، من يُعَرِّفُ نفسه بأنه غير صهيونى أو ضد الصهيونية هو خارج النقاش " [٥٦]!

ويأتى النقد لتيارات " المؤرخين الجدد " ومفاهيم " ما بعد الصهيونية "، من على

يمينها، ومن على يسارها أيضًا.

فمن الاتجاهات اليمينية ينصب الهجوم عليهما تحت منظور يدين من حيث المبدأ، أى محاولة للخروج على الصهيونية (الأرثوذكسية)، صهيونية " الآباء المؤسسين " و " الرواد الطلائعيين "، أو الحيدة عن " خطها القويم "، باعتبار هذا الأمر نوع من " اللاسامية الداخلية " ومن أبرز ممثلى هذا التيار " أمنون روبنشتاين " (*) الذي عرضنا للكثير من آرائه ورؤاه فيما مضى من البحث، ومنهم البروفيسور " يوآف جلبر " الذي ينكر أن يكون الفلسطينيون " ضحايا ساذجة " أو أن تكون الحركة الصهيونية " هي استعمار " (٥٧). ويعادى الأرثوذكسية الدينية، والشيوعية، وتيار الاندماج الفردى، باعتبارها خطر على " الهوية القومية " تذيب اليهودي في محيطه، وتجعله مثل كل الآخرين من البشر، مثل كل الأغيار (الجوييم) (٥٨)!، وهو ما يتفق معه البروفيسور " حاييم جورى " أيضا (٥٩).

أما النقد من على يسار هذه الحركة فنموذج منه، تقييم الكاتب " عمانوئيل سيفان "، الذي يرى أنهم مجموعة " غير متجانسة "، وإن كتاباتهم محصورة التوجه لقراء، ذوى ميول يسارية بالأساس، ومن أبناء " البيئة العلمانية، لا الدينية "، ومن رفيعى المستوى التعليمى لا الأقل تعليما، مما يعنى في النهاية دائرة محدودة للفعل والتأثير، ويقول " سيفان " أنه لا يزال ينتظر " لقاء شخص ما يمينى (أو حتى وسطى) أمكن لآرائه أن تتغير من خلال قراءاته " المؤرخين الجدد " في أعمالهم الأجود، وذات الحجج الأكثر إحكاما "، وهو قاطع في نصيحته بألا تكون لدى المرء أية أوهام بصدد الأثر المباشر لكتابة التاريخ، " حتى ولو كانت كتابة جديدة "، ذلك أن تأثيرا ثقافيا كهذا، من غير أن يكون سياسيا في

(*) المفروض فيه أنه من حزب العمل (اليسارى)!!.

صورة " صريحة ومعلنة "، هو بطبيعته " بطيء الحصول " [٦٠].

أما النقد اليسارى الأكثر جذرية فمصدره الكاتب اليهودي التقدمى " إيلى آمينوف " الذي كتب في مجلة " رؤية أخرى "، التي تصدر في الأرض المحتلة [٦١]، مقالا بعنوان " ما بعد الصهيونية تعيد تحصين أسوار الجيتو اليهودي "، مُعتبرًا أن الغرض من أطروحات " المؤرخين الجدد "، وأفكار " ما بعد الصهيونية "، هو بالتحديد:

(١) " إعادة تعريف حدود الخطاب الصهيوني الشرعى، وقلع " الأعشاب الضارة " التي اخترقت الإجماع في حقبة الاحتلال الجديد للمناطق التي احتلت عام ١٩٦٧ " [٦٢].

(٢) (تخفيف حدة التناقض الفكرى الذي نشأ لدى قسم من النخبة الفكرية الإسرائيلية على أثر نضال الشعب الفلسطيني من أجل التحرير، واعتبار هذه النخبة الاعتراف الشكلى بإسرائيل من قبل مؤيدى التسوية الفلسطينيين كإثبات على شرعية المشروع الصهيوني " [٦٣]، ويُثَمِنُ " آمينوف " أعمال المؤرخين الجدد، رغم إدراكه لقصورها، ذلك أن " التوجه النقدى الجزئى لدى المؤرخين الجدد، يُحدث شرخا في جدار الخطاب الصهيوني، ويُسَهِّلُ أمام جيل الباحثين القادم مهمة اختراق هذا الخطاب والوصول إلى الحقيقة " [٦٤].

ويرفض " آمينوف " اتهام " روبنشتاين " الموجه لـ " هؤلاء النقاد الما بعد صهاينة " بأنهم معادون للصهيونية، رغم أنهم (في الحقيقة، من وجهة نظر آمينوف)، " ليسوا إلا صهاينة خجولين " [٦٥]، يُعَبِّرُ عن غاية أطروحاتهم " زئيف شطرنهيل "، واحد من " المؤرخين الجدد "، الذي كتب يقول: " إن الاعتراف بالضرر الذي سببه المشروع الصهيوني للآخرين لا يضر بهذا المشروع، إنما على العكس تماما، يُضفى عليه قيمة أخلاقية " ! [٦٦]، ويقول أن " مع أولئك الذين ينفون حق

إسرائيل فى الوجود لن نتحدث أبدا!! " [٦٧].

ب ـ المنظور العربي :

يرى المؤرخ الفلسطيني " إلياس صنبر " في ولادة " نص نقدى " للرواية التاريخية الإسرائيلية السائدة أمر إيجابى جدا " [٦٨]، ومرجع قيمتها ووزنها أنها نبعت من إسرائيليين، ولأنها خلقت عددا من التساؤلات والاضطرابات داخل إسرائيل، ويرى " صنبر " أن النتيجة الأكبر (لأعمالهم) ليست داخل إسرائيل، وإنما في الخارج [*]، حيث تساعد أعمالهم في ضرب صورة إسرائيل المثالية، الأسطورية، لدى العالم، كما أن " المؤرخين الجدد " أثبتوا الرواية الفلسطينية على الرغم من أنهم ينكرونها، وزعزعوا الشعور الخاطئ بالبراءة حول ما حدث عام ١٩٤٨ "، يضاف إلى ذلك أنهم " قدموا فكرة رئيسية مفادها أن " إسرائيل وُلدت من خلال جريمة بحق شعب " [٦٩].

ويلمس الكاتب المصرى " سعد الطويل " التناقض البنيوى الكامن في ثنايا مواقف بعض " المؤرخين الجدد "، بسبب " سيادة العقلية الصهيونية "، الأمر الذي يمل إلى حد " الشيزوفرينيا "، ويضرب مثلا لذلك، " بنى موريس "، الذي أثبت في كتابه " مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين: ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ "، وبالأرقام أن ٧٣% من الفلسطينيين غادروا قراهم تحت الضغط المباشر والمذابح التي قام بها الهاجاناة

(*) يقول المؤرخ والأكاديمى اليهودي " برنارد فسرشتاين ": " إننا في الشتات نشعر بالاعتزاز بإسرائيل، ولكن السنين الأخيرة جعلت أى إنسان عنده إحساس يشعر بالخجل، ومن أسباب هذا ما كشفه " المؤرخون الجدد " من كذب كنا أخبرنا به، وقبلناه مثل حمار مطيع، مثل قضية خروج الفلسطينيين من فلسطين بين الأعوام ١٩٤٧ - ١٩٤٨، كما أننا لابد أن نشعر بالخجل لعدم مساعدتنا لهم عندما اضطهدوا في الأراضى المحتلة " [٧٠].

(جيش الدفاع الإسرائيلي فيما بعد) وعصابات شتيرن والإرجون، وأن ٢٢% منهم رحلوا بسبب الخوف من بطش الإسرائيليين، وأن ٥% فقط هم الذين رحلوا تحت تأثير الوهم الذي خلقته الدعاية العربية بأنهم سيعودون مع الجيوش العربية المنتصرة، والذى يذكر أن الحكومة الإسرائيلية قامت بعد رحيل الفلسطينيين بتدمير ٤٠٠ قرية، وإزالتها بالكامل من على وجه الأرض، واستولت على أراضيها ووزعتها على الكيوبتزات، كما استولت على ممتلكات الفلسطينيين وحساباتهم بالبنوك، ولكنه رغم كل ذلك يصل في كتابه إلى النتيجة: " أن رحيل الفلسطينيين تم " جزئيا " تحت ضغط القوى الصهيونية! " (٧١)، كما يشير إلى أنه من نتائج هذه " المراجعة "، للفكر الرسمى الإسرائيلي، كشف الطبيعة اللاديمقراطية للدولة اليهودية، بالضبط لأنها تصف نفسها بأنها يهودية، أى أنها دولة ٨٠% فقط من سكانها متجاهلة الحقوق الأساسية لخُمس عدد السكان، ويضيف مؤرخون فلسطينيون انتقادا آخر - بعد أن دونوا تاريخ النكبة بناء على شهادات من عاشوها - قصور كتاب " موريس "، " نشأة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين "، عن الاستنتاج الموضوعي بأن فكرة الترحيل كانت راسخة في العقلية الصهيونية، وأن ما جرى في العامين ١٩٤٧ و ١٩٤٨ لم يكن إلا تنفيذا للمشروع الذي رسمته تلك العقلية، بهدف الوصول إلى مبتغاها، أى إقامة الدولة اليهودية في فلسطين بعد إخلائها من أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين (٧٢).

أما المثقف الفلسطيني الكبير " إدوارد سعيد " فيلمس، أيضا، العديد من التناقضات في مواقف وكتابات " المؤرخين الجدد "، مثل اعتبارهم الصهيونية، (كعقيدة ونظام)، ضرورية لليهود، وتبرير بعضهم للصهيونية كحركة استحواذ - رغم اعترافهم بالظلم الفادح الذي تعرض له الفلسطينيين - بكونه " استحواذا ضروريا

"، (زئيف شطرنهيل)، كما أنهم، برغم إقرارهم باستخدام القوة لتفريغ الأرض الفلسطينية من سكانها، فإنهم - في نهاية المطاف - عازفون عن الإقرار بالمسؤولية الصهيونية، وتبريرهم ذلك بسبب " ظروف الحرب "، (بنى موريس)، رغم اعترافهم بأن ذلك كان عملا " لا أخلاقيا ".

وعلى الجانب الآخر، فإن " إدوارد سعيد " يجد ميزة في أعمال " المؤرخين الجدد " هي أنها - على الأقل - تدفع التناقض الصهيوني (مع الديمقراطية) إلى حدود لم تكن بادية لغالبية الإسرائيليين، وحتى للكثيرين من العرب، كذلك فإن دراساتهم أكدت ما سبق وقال به الفلسطينيون، من المؤرخين وغير المؤرخين، " عما حصل لنا كشعب على أيدى إسرائيل "، ويدعو " سعيد " إلى ترجمة أعمال " موريس " و " بابى " و " شترنهيل "، بأسرع ما يمكن، كما يدعو المثقفين العرب، إلى المبادرة " بالاتصال المباشر مع هؤلاء المؤرخين، ودعوتهم إلى النقاش في الجامعات، ومراكز الثقافة، والمنابر العامة في العالم العربي " (٧٣).

وفى إطار هذا السجال حول الموقف من " المؤرخين الجدد " وأطروحاتهم، دفع الكاتب الفلسطيني " هشام الدجانى " الأمور إلى حدها الأقصى، برفضه كل ما تقدم من تقديرات إسرائيلية وعربية تؤكد محدودية تأثير ظاهرة " المؤرخين الجدد "، ويزعم أنها ظاهرة " لم تعد سطحية أو هامشية " (٧٤)، وأن الجدل حولها - على عكس كل مقولات أصحابها حتى - لم يعد مقتصرا على الأكاديميين، بل انتقل إلى مراكز الثقافة والإعلام " (٧٥)، ويدعو " الدجانى " للحوار مع " ما بعد الصهيونية " باعتبار أن الحوار مع دُعاتها له نفس أهمية الحوار مع " عرب فلسطين " (٧٦) أو (اليسار الإسرائيلي)، ثم يؤكد - في حماسة لم نر لها شبيها في كل الكتابات

الإسرائيلية والعربية، التي تناولت بالبحث هذه القضية - أن (حركة ما بعد الصهيونية) - وهنا يضفى عليها قيمة حركية لم يدَّعيها أى من أنصارها أبدا - هي " مستقبل إسرائيل " ! [٧٧]، ويحسم جازما بأنها " ستنتصر عاجلاً أم آجلاً على بقايا معاقل اليمين الصهيوني المتعنت، والاتجاهات الدينية المتطرفة " [٧٨]!، دون أن يضع يدنا ولو على دليل واحد يبرر هذا اليقين، أو يفسر إيمانه (الميتافيزيقي) شبه الدينى بحتمية انتصار بضع أفراد، محدودى العدد والعُدّة، على تحالف يمينى دينى شرس وعدوانى، ومتعصب، ويزداد همجية وتطرفا في كل ساعة!.

ويرد الكاتب الفلسطيني " عبد القادر ياسين " على " إدوارد سعيد " مباشرةً، وضمنيًا على " هشام الدجانى "، مع الإقرار بالفارق النوعى الكبير بين منطلقات وغايات كل منهما، فيرصد أن من اتفق على تسميتهم بـ " المؤرخين الجدد " في إسرائيل، " ظاهرة جديدة لا تعكس إلاّ أزمة ضمير أكاديميين على ما اقترفه آباؤهم في حق شعب فلسطين، ما جعل أولئك المؤرخون يبحثون، حثيثا، عن مخرج يفضى إلى إراحة ضمائرهم وتبرئة أشخاصهم من الأعمال البربرية التي اقترفها أسلافهم، إلى ذلك فإن الاعترافات بالجرائم لا تعدو غسل تاريخ دولة، تريد أن تستثمر ما بين يديها، بعد أن تفلت به من رقابة الرأى العام العالمى " [٧٩].

ويرى الكاتب أن اقتراح " سعيد "، " الاتصال المباشر بهؤلاء المؤرخين ودعوتهم إلى النقاش في الجامعات ومراكز الثقافة والمنابر العامة في العالم العربي، " نتيجة لا تتفق مع المقدمات التي طرحها، والتي تُسَلّمُ بأن النسبة الأكبر من أولئك المؤرخين لا تزال صهيونية دما ولحما " [٨٠]، ويطرح " ياسين " - بديلا عن الحوار الذي يدعو له " إدوارد سعيد "، أو " الانفتاح " الذي يدعو إليه " هشام الدجانى " - استخدام أسلوب حقيقى في الصراع، ثبتت نجاعته، باعتبار أن " ثمة

طريقة واحدة لا تدعم دعاة السلام في إسرائيل فحسب - إن وجدوا - بل أيضا تسهم، بقسط كبير في خلق " دعاة سلام ". إنها الطريقة التي اقترحتها فيتنام، حين شددت كفاحها المسلح ضد القوات الأمريكية هناك، ما أزعج الآباء والأمهات الأمريكيين على أبنائهم الذين يموتون في ذلك البلد دون مبرر ".. هنا فحسب - يقول " عبد القادر ياسين " : " استطاع الفيتناميون توظيف تناقضات المجتمع الأمريكى، وهى الطريقة نفسها التي تحاول المقاومة اللبنانية اليوم، أن تثمر، وقد نجحت في هذا المضمار إلى حد بعيد " (٨١).

ويتفق مع هذا الموقف، الكاتب المصرى " أمين إسكندر "، الذي يأخذ على المؤرخ الإسرائيلي " الجديد "، أنه " ما زال ينقد في " الهوامش "، ولا يجرؤ على طرح الأسئلة الكاشفة والكلية مثل: من الذي تسبب في المآسي التي وقعت على اليهود؟!، ولماذا بالذات يدفع ثمنها الفلسطينيون العرب؟ ولماذا وقع الاختيار على فلسطين؟ ولماذا ساعد الاستعمار الحركة الصهيونية في احتلال فلسطين؟ وقبل ذلك: هل من الممكن أن تؤسس حركة تحرير قومى على أساس دينى؟! (٨٢) ".. وأخيرا فإن " أمين إسكندر "، يطالب " المؤرخين الجدد "، إذا كان " ضميرهم " قد استيقظ (أو " نقح " عليهم بالتعبير المصرى الدارج!)، فالأفضل أن يُطالبوا بإلغاء الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين (كل فلسطين)، وأن يطالبوا الصهاينة بالعودة إلى أماكنهم التي جاؤوا منها، أو أن " يبقوا يهودا على أرض العرب، مثلهم مثل المسلمين والمسيحيين " (٨٣).

د. " عزمى بشارة ": " ما بعد الصهيونية " قد يكون الفاشية!

ويختتم " عزمى بشارة "، المثقف والمناضل والأكاديمى والسياسي الفلسطيني، رأى الكتّاب العرب في هذه القضية، إذ يرى أن " الخطاب الذي يهيمن، بالتدريج،

على الشـارع (الإسرائيلي)، ويصل إلى القمة في مرحلتها الحالية، هو خطاب " يمينى متطرف، يندمج ويتفاعل مع الخطاب الدينى " (...)، وهو خطاب " يكاد يكون فاشيا في أطروحاته " (...) وبالتالى، فإن " ما بعد الصهيونية ".. في رأى د. بشارة " قد تكون اليهودية وليس الليبرالية، قد يكون ما بعد الصهيونية هو الفاشية وليس بالضرورة الليبرالية " (٨٤).

" المؤرخون الجدد " : ملاحظات أخيرة :

بعد أن تم فيما تقدم مناقشة ظاهرة " المؤرخين الجدد " ومفهوم " ما بعد الصهيونية "، وتاريخ نشاطهم الفكرى، وأبرز أطروحاتهم، وتقييم آرائهم، إسرائيليًا وفلسطينيًا / عربيا، نخلص الآن إلى مجموعة من الملاحظات الأخيرة، على النحو التالى:

١ - إنها ظاهرة قيد التشكل، لم تكتمل بعد، وعمرها كله لم يتعد العقد من السنين، وهى مدة أقل من أن تمنح فرصة لحكم قاطع موثوق به على الظاهرة محل البحث، والزمن وتطورات الوقائع، كفيلان بأن يحددا إما أن تستمر هذه الظاهرة، وتتعمق أو أن تندثر وتتبدد، كغيرها من الظواهر الطارئة - وما أكثرها - على ساحة الصراع العربى - الصهيونى.

٢ - إنها - حتى الآن - ظاهرة محدودة التأثير. ومجال حركتها الأساسى هو أوساط عناصر النخبة الأكاديمية ذوى المرجعية (اليسارية)، والمتعلمين الجامعيين، ولا يتعدى هذا النطاق للتأثير السياسي على الجمهور الواسع، العادى، أو يمينى التوجهات (*).

(*) يشير " إيلان بابيه " إلى أن الجدل بشأن " ما بعد الصهيونية " لم يتعد شريحة ضيقة من المعنيين والنقاش حولها يدور في أطر نخبوية محدودة حتى الآن. (جريدة هاآرتس الإسرائيلية - ١٥/١٠/١٩٩٥).

٣ - أغلب ممثلى هذه الظاهرة حريصون، بشدة، على إبقاء تفاعلاتها ضمن ديناميات المجتمع الصهيوني وحده، وبعيدا عن امتداد آثارها للتفاعل مع الوضع العربي أو الفلسطيني، أى أنهم حريصين على أن يظل الحوار مجرد حوار " داخل حدود البيت "، ولا يتعداه إلى حدود " الجيران " :

٤ - لا ينفصل منتوج هذه الظاهرة، عن مجمل منتوجات التطورات الأخيرة في المجتمع الإسرائيلي، الذي تتسع آلياته، وتتحمل ميكانزمات إدارته، تباينات واسعة في الأفكار، وانتقادات ذات طبيعة (ليبرالية) تنال الكثير من عناصره، دون أن يعتبرها - مثلما يحدث في عالمنا العربي - خروجا يستحق الإدانة، ويدفع للنبذ!.

٥ - الميزة الرئيسية في أعمال " المؤرخين الجدد "، هي إماطة اللثام عن كثير من القضايا والوقائع والأحداث التي تعمدت القيادات الصهيونية التاريخية التعمية عليها، وسعت لإسدال ستائر النسيان فوق تفاصيلها، لأنها تدينهم، وتدين أيديولوجيتهم، وتفضح مشروعهم، وفى هذا مجال إيجابياتها الأساسى، وخدمتها - حتى ولو لم تقصد - لقضية الشعب الفلسطيني والقضية العربية، بتأكيد ما ارتُكب - تاريخيا - في حقهما من جرائم ومذابح، كانت محل إنكار وتجاهل، حتى وقت قريب، من المسؤولين عنها سياسيًا وفكريًا وعسكريًا.

٦ - نفوذ وتأثير هذه المجموعة من المؤرخين، الأكبر، هو خارج إسرائيل، في الغرب والولايات المتحدة، وفى هذا الإطار فإن أعمالهم تلعب دورًا هامًا - بالنظر إلى كونها آتية من نفس المعسكر – في التعريف بعدالة قضية الشعب الفلسطيني وتعرضه لظلم تاريخي فاضح، وفي فضح وتعرية ممارسات الإرهاب الصهيوني على مر تاريخ مشروع الدولة الإسرائيلية، وفى كشف حقائق التاريخ التي تبين زيف إدعاء أن أرض فلسطين كانت " أرضًا بلا شعب " تنتظر شعبًا بلا أرض "،

وأن الفلسطينيين قد تركوا بلادهم طائعين، وليس لأن مناخ الإرهاب المنظم وسلسلة عمليات التهجير بالعنف والقسر، هي التي كانت من وراء ذلك.

إن هذه القضايا وغيرها، مما يثيره بنفاذ وعمق العديد من نقاد ومؤرخى " ما بعد الصهيونية "، يساعد بلا شك في إزالة أوهام " الدولة المعجزة " و " واحة الديمقراطية والإنسانية "، التي انبنت عليها دعايات إسرائيل، في دول أوروبا وأمريكا وغيرها من البلدان الخارجية.

٧ - ينطلق أغلب " المؤرخين الجدد " من مواقع صهيوينة، ويستهدفون خدمة المشروع الصهيوني في الأساس، بعد أن أكد - من وجهة نظرهم وجوده وثبتّ دعائمه وأصبح قويًا إلى الدرجة التي يحتمل فيها الانتقادات الأشد حدة، من جهة، ولأن هذه الانتقادات تساعد في تحسين صورته، وتلميع واجهته، وباعتبارها انعكاساً " للروح الإنسانية " و " الأخلاقية " لمواطنيه من جهة أخرى.

٨ - لا يزال " المؤرخون الجدد " - لأسباب إما ذاتية أو موضوعية - بعيدين عن نقد أسس الأيديولوجيا اليهودية / الصهيونية، ونقض ركائزها الفكرية والسياسية، لأن تحقّق هذا الأمر يُقوضُ المشروع من أصله، ويقتصر عملهم - بدلاً من ذلك. على مناقشة جزئية، تفكيكية، تشريحية، لبعض انعكاسات هذه الأسس وتلك الركائز في الممارسات العملية لمنفذي خططه الإنشائية، كما وقعت، في الماضي القريب، مُجسدة في السلوكيات الإسرائيلية تجاه فلسطين والعرب.

ومن هنا فسيظل تأثير هذه الظاهرة محدودًا طالما لا يطال عمق الاستراتيجية الصهيونية ومنطلقاتها الأولية ومبادئها الأيديولوجية الأساسية.

٩ - العنصر الرئيسي في ميلاد، وبروز، وتطور ظاهرة " المؤرخون الجدد "،

والذي دفع الكثير من المثقفين الإسرائيليين لولوج عتبة " التفكير المغاير "، هو تصعيد العمل على أرض الواقع الفلسطيني، والعمل العربي في دول الطوق، لمقاومة الاحتلال، والتصدي لكافة مظاهره، بأعلى أشكال الكفاح قدرةً وتأثيرًا، وبأشدها وطأة على الوعى والفكر الإسرائيليين.. فباعتراف الجميع، فإن نشوء ظاهرة " المؤرخين الجدد " جاء - كنتيجة مباشرة - لاصطدام الإرادة العربية - الفلسطينية بالمخططات الصهيونية العنصرية، والعاملين الرئيسيين في هذا السياق هما حرب أكتوبر بمقدماتها (حرب الاستنزاف) وتداعياتها، وانتفاضة الشعب الفلسطيني ونتائجها في الثمانينات، وهو ما دفع العديد من المثقفين والأكاديميين الإسرائيليين للبحث في أسباب هذه الانفجارات وعلاقتها ببنية الممارسات الإسرائيلية ذاتها.

ومن هنا، فإن مساهمتنا - كعرب وفلسطينيين - في تطوير ظاهرة " المؤرخين الجدد " ودفعها بحيث تزداد تجذُّرًا، مرهون بتصعيد نضالاتنا، وعلى كافة الأصعدة ضد العدو الصهيوني، وتأكيد أحقية الشعب الفلسطيني - عمليا - في أرض الواقع، وإحكام الطوق حول إسرائيل، واستعادة روح المقاومة العربية في مواجهتها.

١٠ - وتأسيسا على كل ما تقدم، ينبغى التحذير من المبالغة المفرطة في تقدير أهمية ووزن وتأثير ظاهرة " المؤرخين الجدد "، و " ما بعد الصهيونية "، حتى لا يقع الطرف العربي - كعادته - في حسابات جديدة عقيمة، مبنية على العاطفية والنزوع إلى اللاموضوعية، وذاتية الأحكام، مُكرِّرا أخطاء " الهرولة "، وأخطار الجرى وراء كل بادرة غير مفهومة، أو ظاهرة غير محددة، طمعا في نتائج سريعة لا تتوفر لها أسس حقيقية، وهذا بالطبع لا يمنع، ولا يعنى بأى صورة من الصور عدم الاستفادة -

في الدعاية المضادة للمشروع الصهيوني - من كل جهد علمى إسرائيلى ينطق ببعض الحقائق، ويرصد بعض الوقائع، ذات الدلالة في توضيح طبيعة إسرائيل وكيف أنشئت، وعلى حساب من، وبأي ثمن، ولماذا؟!.

ويبقى، في هذا المجال، الإشارة إلى أن أفضل ما يمكن فعله - في مواجهة هذه الظاهرة - أن نتركها تكتمل اعتمادا على تفاعلاتها الداخلية، وأن يتم تدعيم هذه العملية من خلال جهد المفكرين والأكاديميين العرب الفلسطينيين، في المناطق الفلسطينية المغتصبة والمحتلة، فهم الأفهم والأقدر على إدارة الحوار (الطبيعى في هذه الحالة بحكم الالتصاق المباشر بين الطرفين)، كما أنهم الأقدر على عرض الحقائق التاريخية، بما يساعد على تبلور هذه الظاهرة، وتقدمها باتجاه مواقع أكثر راديكالية.

أما دور المثقفين العرب، فهو في الأساس دراسة تطورات هذه الظاهرة بعمق ودقة - كجزء من محاولة تعمق فهم الواقع الإسرائيلي ومجريات الأحداث فيه، ويفيد في تحقيق هذه الغاية، ترجمة كتاباتهم، وطبعها، ونشرها، وإدارة حوار واسع حولها، لإطلاع الأوساط العربية المعنية على جهدهم، وللاستفادة مما توفر لهم من مصادر، وما تيسر لهم من معلومات، ولتأكيد الحقيقة الأولى خلف ميلاد وصعود هذه الظاهرة، الحقيقة التي تؤكد أن تصاعد المقاومة الفلسطينية / العربية للمشروع الصهيوني العنصرى، والقتال من أجل استرداد الحقوق المسلوبة، بكل أدوات القوة الفعلية المتاحة، والصمود الواعى في وجه كل محاولات الاقتلاع، هي العناصر الرئيسية لتفجير التناقضات الداخلية في المجتمع الإسرائيلي، وهى أساس أى تغيير حقيقى في مساره.

* * *

هوامش الفصل الأول

(١) جريدة " معاريف " الإسرائيلية، مذكورة في جريدة " الأسبوع "، القاهرة، ٢٦ /١/١٩٩٨.

- انظر عرض كتاب " دولة أخرى " الصادر في مطلع عام ١٩٩٧، مجلة " مختارات إسرائيلية "، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، مؤسسة " الأهرام " القاهرة، العدد: ٣٢، أغسطس (آب) ١٩٩٧، ص: ٤٦.

- جودى دميسى " في الذكرى الخمسين لتأسيسها: إسرائيل دولة منقسمة على نفسها "، Financial Times 18 - 19/10/1997.

(٢) جريد ة " الأهرام "، ١٢/٨/١٩٩٨.

(٣) ديفيد ميكوفسكى " حوار مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نيتنياهو "، جريدة " هاآرتس " الإسرائيلية، ١/ ٨/ ١٩٩٧.

(٤) " موتى بادر أور "، (مؤسس مركز أيلول لتخفيف الصراع بين الأرثوذكس والعلمانيين)، مذكورة في: جعفر هادى حسن " في الذكرى الخمسين لنشوء الدولة "، جريدة " الحياة "، لندن، ١١/٥/١٩٩٨.

(٥) " تيدى كولك "، الرئيس السابق لبلدية القدس، المصدر نفسه.

The Gardian, London, 18/4/1998.

(٧) ألعازرسكويد، " أهداف الصهيونية اليوم "، مذكورة في السيد ياسين: " ما بعد الصهيونية: نظرة مستقبلية "، جريدة " الأهرام "، القاهرة، ٢٦ /٢/١٩٩٨.

(٨) أحمد تهامى " ما بعد الصهيونية: توجهات جديدة في الخطاب الأكاديمى الإسرائيلية "، جريدة " الأهرام "، القاهرة، ٢٨/١١/ ١٩٩٨.

- " منذ تأسيس إسرائيل انشغلت الحكومات المتعاقبة بمسألة وجود الدولة وأمنها، أما الآن، فإننا نعيش في أرض برية ومُرَوِّعة وبلا قيادة سياسية، وأدت بنا الطريقة التي نحياها إلى أزمة هوية، حيث يتساءل الناس: لماذا نحن هنا، وهل نستطيع فعلا تأسيس مجتمع إسرائيل تعددى؟! ": " موتى بار أور "، مؤسس " مركز أيلول لتخفيف الصراع بين الأرثوذكس والعلمانيين في إسرائيل "، Financial Times، مصدر سبق ذكره.

- " بعد السلام مع العرب، ستكون الحرب القادمة بين المتدينين والعلمانيين هنا في إسرائيل " ! : الحاخام " شلومو بنزرى "، المصدر نفسه.

- " كان التهديد العربي كافيا لأن يجعل الناس متحدين، ومع عملية (السلام) خف الضغط الخارجى، مما جعل الإسرائيليين يواجهون مسألة الهوية " المصدر نفسه.

(٩) أحمد تهامى، مصدر سبق ذكره.

(١٠) " حول الصهيونية وما بعد الصهيونية ومعاداة الصهيونية "، ندوة جريدة " هاآرتس " الإسرائيلية ١٩٩٥/١٠/١٥، منشورة في " مجلة الدراسات الفلسطينية "، عدد ٣٣، شتاء ١٩٩٨، ص: ١١٥.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) المصدر نفسه، ص: ١١٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص: ١١٧.

(١٤) المصدر نفسه، ص: ١١٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص: ١١٥.

(١٦) المصدر نفسه، ص: ١١٦.

(١٧) المصدر نفسه، ص: ١٢٢.

(١٨) أمنون روبنشتاين، " الثورة فشلت، الصهيونية نجحت "، جريدة " هاآرتس الإسرائيلية "، ١٩٩٧/٦/١٠. منشورة في " مجلة الدراسات الفلسطينية "، العدد ٣٣، شتاء ١٩٩٨، ص: ١٠٢.

(١٩) المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

(٢٠) المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

(٢١) المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

(٢٢) المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

(٢٣) المصدر نفسه، ص: ١٠٦.

(٢٤) انظر عرض " جورج طرابيشى " لكتاب " دومينيك فيدال ": خطيئة إسرائيل الأصلية " Le peche Original D'israel، الصادر عام ١٩٩٨ بباريس، جريدة " الحياة " اللندنية، ١٩٩٨/٧/١٩.

(٢٥) توم سجيف " الإسرائيليون الأوائل "، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨٤، ص ١١١.

(٢٦) المصدر نفسه، ص: ٣٦.

(٢٧) المصدر نفسه، ص: ٣٦.

(٢٨) المصدر نفسه ص: ٤٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص: ٤٥.

(٣٠) " بنى موريس " مذكورة في " مولد مشكلة اللاجئين "، انظر دراسة " دومينيك فيدال "، " المؤرخون الجدد يكشفون النقاب عن حقيقة الخروج الفلسطيني "، Le Mande Diplomatigue، عدد ديسمبر ١٩٩٧.

(٣١) " الإسرائيليون الأوائل "، مصدر سبق ذكره، ص: ٧٥.

(٣٢) مذكورة في Le Mande Diplomatigue، مصدر سبق ذكره.

(٣٣) رندة حيدر " نكبة فلسطين بين التاريخ الصهيوني الرسمى ورواية المؤرخين الإسرائيليين "، جريدة " الحياة " اللندنية، ١٩٩٧/٥/٢٢.

(٣٤) انظر: " تقييم فرنسى ناجح لأعمال المؤرخين الإسرائيليين الجدد "، عرض لكتاب " دومينيك فيدال "، " خطيئة إسرائيل الأصلية "، حسن الشامى، جريدة " الحياة " اللندنية، ١٩٩٨/٥/٣١.

(٣٥) " رنده حيدر "، مصدر سبق ذكره.

(٣٦) " توم سجيف "، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٥، ٤٦.

(٣٧) " توم سجيف "، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٧.

(٣٨) " توم سجيف "، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٠.

(٣٩) باروخ كيمرلنج، " لا هي ديمقراطية، ولا هي يهودية "، جريدة " هاآرتس الإسرائيلية "، ١٩٩٦/١٢/٢٧.

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) إيلى آمينوف " ما بعد الصهيونية تُعيد تحصين الجيتو اليهودي "، مجلة " الهدف "، العدد (١٢٥١)، ٢٤ تشرين الثاني / أكتوبر ١٩٩٦.

(٤٥) المصدر نفسه.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) " بنى موريس "، " قمنا بعمل صهيونى "، جريدة " هاآرتس "الإسرائيلية، ١٩٩٧/٦/١٦.

(٤٩) " إيمانويل هيمان "، " الأصولية اليهودية "، ترجمة: سعد الطويل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة " الألف كتاب " الثانية، القاهرة، ١٩٩٨، ص: ١٦٣.

(٥٠) " بنى موريس "، مصدر سبق ذكره.

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) ندوة حول " الصهيونية وما بعد الصهيونية ومعاداة الصهيونية "، مصدر سبق ذكره، ص: ١١٤.

(٥٤) المصدر نفسه، ص: ١١٧.

(٥٥) المصدر نفسه، ص: ١٢٣.

(٥٦) " إيلان بابيه "، ما بعد الصهيونية: " توجهات جديدة في الخطاب الأكاديمى الإسرائيلي حول الفلسطينيين والعرب "، هآرتس الإسرائيلية، ١٩٩٥/١٠/٢٥.

(٥٧) " عمانوئيل سيفان "، " محاولة فى تقييم المؤرخين الجدد "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/١/٦.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) المصدر نفسه.

(٦٠) المصدر نفسه.

(٦١) المصدر نفسه.

(٦٢) المصدر نفسه.

(٦٣) جريدة هآرتس، ١٩٩٦/٩/١٥.

(٦٤) المصدر نفسه.

(٦٥) " يستحيل التوفيق بين تاريخ يضعه المتطرفون وآخر يضعه الضحايا "، حوار مع المؤرخ الفلسطيني " إلياس صنبر "، جريدة " الحياة " اللندنية، ١٩٩٨/٦/١٤.

(٦٦) المصدر نفسه.

(٦٧) مذكورة في " سمحا فلابان " مولد إسرائيل "، انظر، " جعفر هادى حسن ":

" الإسرائيليون يطرحون أسئلة الهوية والمستقبل "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٥/١١.

(٦٨) " سعد الطويل "، " الخطيئة الأولى لإسرائيل "، مجلة " اليسار "، القاهرة، العدد (١٠١)، يوليو ١٩٩٨.

(٦٩) " ربى الحصرى "، " خمسون عاما على النكبة: إعادة كتابة تاريخ المجازر لن تغير الموقف من الصراع مع الفلسطينيين "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٥/٨.

(٧٠) " إدوارد سعيد "، " تاريخ جديد.. أفكار قديمة "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٥/٢٦.

(٧١) " هشام الدجانى "، " فلنحاور رموز "، " ما بعد الصهيونية ".. أعُدَّ الأمر تطبيعا أم لم يُعَد " !، جريدة " الحياة " لندن، ١٩٩٨/٥/٢.

(٧٢) المصدر نفسه.

(٧٣) المصدر لفسه.

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) المصدر نفسه.

(٧٦) " عبد القادر ياسين "، " المؤرخون الإسرائيليون الجدد يسعون إلى إراحة ضمائرهم وغسل تاريخ دولتهم "، جريدة الحياة"، لندن14/٧/١٩٩٨.

(٧٧) المصدر نفسه.

(٧٨) المصدر نفسه.

(٧٩) " أمين اسكندر "، " المؤرخون الإسرائيليون الجدد ونقد التفاصيل "، جريدة " الرأى العام " ا لكويتية، ١٩٩٨/٦/٢٠.

(٨٠) المصدر نفسه.

(٨١) حوار مع الدكتور " عزمى بشارة ": مجلة الهدف، العدد (١٢٧٥)، يناير ١٩٩٨، ص: ٦٠٦٢.

الفصل الثاني

حركة السلام الإسرائيليــة من الميــــلاد إلــى المـــأزق

الفصل الثاني

حركة السلام الإسرائيلية من الميلاد إلى المأزق اتجاهان في الموقف من " التسوية " :

غداة حرب ١٩٦٧ بنتائجها " الصادمة "، بدأ التمايز - داخل المجتمع الإسرائيلي - إلى قسمين رئيسيين:

أولهما: بات يرى - في غمرة النشوة الناجمة عن الانتصار الساحق على الجيوش العربية، وجيش مصر أساسا، أن إسرائيل قد حققت فوزًا تاريخيًا كاملا، واستطاعت أن تُلقّنَ العرب، مجتمعين، درسًا لن ينسوه أبدًا، يتيح لها - اعتمادا على عنصر التفوق العسكرى، والموازين الحربية، واستراتيجية العنف، وفلسفة القوة - أن تفرض شروط الإذعان التي يُمليها المنتصر على المهزوم، وأن ترسم حدود المنطقة بما يمنحها " الأمن المطلق "، ويضمن مصالحها العليا إلى أطول مدى زمنى ممكن، انطلاقا من تصور سائد، مفاده أن العرب " لن تقوم لهم قائمة " بعد الآن "، وليس أمامهم سوى الركوع، طالبين - من السيد الإسرائيلي - الصفح والغفران، مقدمين فروض الولاء والطاعة، وقابلين بحدود التسوية التي ترتئيها الدولة اليهودية - الصهيونية، وتقبل بها، والتي لا تتعارض مع الخط الاستراتيجى لها، في إطار منظور " دولة إسرائيل الكبرى "، بحدودها " التاريخية "، " التوراتية "، و " المقدسة "، التى لا ينبغى التفريط في شبر منها مهما كانت الدوافع التوراتية.

أما القسم الثانى، فيبنى على نتائج الحرب ذاتها موقفا مختلفا، منطلقا أيضا من واقع الانتصار الضخم، الذي يمنح إسرائيل - من وجهة نظر عناصر هذا القسم - فرصة تاريخية، قد لا تتكرر، لـ " تطبيع " وضعها في المنطقة، بما يضمن - كذلك - أمنها

ومصالحها ومستقبلها، ويمنع عنها النتائج والمضاعفات المتوقعة لـ " الاحتقان " الناتج عن واقع الهزيمة العربية الثقيلة.

وبمعنى آخر: فإن هذا القطاع من الإسرائيليين، كان يرى أن إسرائيل قد استطاعت - في هذه الحرب - أن تحقق إنجازا هائلا، سيترتب عليه مكاسب ضخمة، ينبغى حتى يتم " هضمها " واستيعاب توابعها، اللجوء إلى " سياسية التهدئة "، أو " المرونة " التي يعكسها القبول بالمشاركة في مفاوضات قد تتضمن الانسحاب من أجزاء - محدودة القيمة الاستراتيجية - من الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧، في مقابل مكاسب عظمى تخلص بها الدولة الصهيونية: كالاعتراف العربي، والعلاقات الاقتصادية، والهيمنة الفكرية، والدور الريادى في (المنطقة)، وتحجيم الدور التاريخي المصرى القيادى، والتحطيم الكامل لمبادئ وسياسات " حركة التحرر العربية "، والتحول عن رموزها.. إلخ.. أى أن تتحول إسرائيل من السعى لبناء " إسرائيل الكبرى " إلى تشييد " إسرائيل العظمى " كقوة إقليمية مهيمنة ومعترف بها.

استراتيجية واحدة وتكتيكات متعددة :

من الوجهة " الاستراتيجية " لم يكن هناك اختلاف عميق بين الطرفين، فكلاهما كان يسعى لتحقيق غاية واحدة، وهى ضمان أمن ومصلحة إسرائيل وتكريس هيمنتها في المنطقة، حتى لو تباينت السبل واختلفت المسارات، وكانت المجموعة الثانية ترى في سلوك القسم الأول حماقة قد تؤدى بإسرائيل إلى الكارثة، التي تفقد معها كل ما تم كسبه، ويضيع بسببها كافة الإنجازات المحققة.

وإجمالا، فيمكن - مع استثناءات نادرة - ملاحظة أن معظم المنتسبين للقسم الأول كانوا من أصحاب الاتجاهات (اليمينية)، [الليكود - الاتجاهات الدينية - المتطرفين العسكريين - حركة المستوطنات]، فيما تَجَمَّعَ في القسم الثانى تحالف عريض ضم عناصر من ذوى الاتجاهات (اليسارية، تجاوزًا): [من، أو منشقين عن حزب العمل - التجمعات اليسارية كحزب " ميرتس " - حركة الكيوبتزات..]، وقد عَبَّرَ إسحاق رابين "، رئيس الوزراء الإسرائيلي المغتال عن هذا التباين، فيما بعد، فقال: " إن هؤلاء (أى اليمينيين) يقيسون قوة إسرائيل بما تستولى عليه من أراضٍ، أما نحن، فنقيسها بمقدار ما نسيطر عليه من أسواق " [١].

تحركات من أجل (السلام).. ولكن أى سلام؟ !

وقد كان أول تجسيد لهذا السياق، تلك المجموعة التي أطلقت على نفسها اسم " حركة السلام والأمن " [٢]، والتي تشكلت بعد شهر واحد من وقف القتال عام ١٩٦٧، ويبدو واضحا من مضمون اسمها، هدفها النهائى، وغايتها الأساسية: (السلام) الذي يحقق مطالب إسرائيل، ويكفل لها الأمن (من وجهة نظرها)، أى " الأمن المطلق "، بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى!.

لكن صوت هذه الجماعة الصغيرة، الخافت، سرعان ما تبدد في فورة النشوة العارمة التي اجتاحت المجتمع كله، وأسكرته بخمر الانتصار المذهل، حتى الثُمالة، ونتيجة أيضا للتناقضات الكامنة في تكوينها الداخلى، وأخيرا لغياب تصور واضح، أو خطة محددة، لسبل وطرائق تحقيق هذا (السلام) المطلوب، الذي يحقق أمن إسرائيل، ويضمن مستقبلها، ويفرض - من جهة أخرى - على العرب القبول بها والاعتراف بشرعية مراميها وأطماعها!.

المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية [الماتسبن] :

لكن أبرز الظواهر (السلامية)، في تلك الفترة الملتبسة، في الواقع، مثلتها جهود " ا المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية "، [" الماتسبن "، " Matzpen "، " البوصلة "] التي كانت قد تشكلت قبل نحو خمس سنوات من عام الحرب (خريف ١٩٦٢)، وضمت ائتلافا من ثلاث جماعات يسارية صغيرة: أولها انشقاق عن الحزب الشيوعى الإسرائيلي، والثانية: انشقاق عن " حركة العمل السامي " (Semitic Action Movement).. أما الثالثة فمجموعة ذات اتجاه تروتسكى.

وكما تذكر " ليلى سليم القاضى "، فبالرغم من أن اسم " المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية "، قد ارتبط في الأذهان - بعد الحرب - بمواقفها من القضية الفلسطينية عامة، ومعاداتها للمؤسسة الصهيونية، إلا أن تأسيسها في البداية لم يكن مرتبطًا، بصورة مباشرة بالقضية الفلسطينية نفسها. أو بالصراع العربي - الإسرائيلي، بقدر ما كانت جزءا من موجة " اليسار الجديد " ومفاهيمه وتنظيماته، التي انبثقت في كثير من أنحاء المعسكر الرأسمالى، والعالم الثالث [٣]، ويرى " آدم كلر " [٤] أنه بالرغم من محدودية عدد أعضاء هذه المنظمة، إذ لم تكن تضم أكثر من بضع عشرات من الملتزمين، إلا أن " مثابرتها " على حملتها ضد الاحتلال، منذ عام ١٩٦٧، أثّرت في قطاع مهم من الإسرائيليين، وأصبحت أطروحاتها - بصورة إجمالية - مقبولة من قبل " حركات السلام الإسرائيلية "، فيما بعد.

حرب يونيو : مرحلة جديدة :

وقد شهدت الأعوام الثلاثة التي تلت حرب يونيو ١٩٦٧، تصعيدا مصريا متناميا

محكوما للصراع، في محاولة لمواجهة نتائج الهزيمة، وتمثلت هذه الحالة في وقائع " حرب الاستنزاف " التي شكلت التمهيد العملياتى الفعلى لحرب ١٩٧٣، وأدى تساقط المئات من الجرحى والأسرى والقتلى الإسرائيليين إلى خلق مناخ جديد مخالف لذلك السائد في أعقاب انتصار ١٩٦٧ الخاطف، إذا تزايد الإدراك بأن الموضوع لم ينته كما كان يُظن، وأن قضية الصراع العربي الإسرائيلي مستمرة، وأن العرب قادرون على تحمل أكثر من هزيمة، والنهوض للقتال مرة أخرى، الأمر الذي يقطع بألاّ نهاية لنزيف الدم الإسرائيلي، وأن القوة وحدها - مهما كانت حدودها غير قادرة على حسم الأمور بصفة نهائية.

وفى ظل هذا المناخ المحموم، بادرت منظمة التحرير الفلسطينية بفتح الحوار مع أفراد منتقين من الإسرائيليين، صنَّفتهم باعتبارهم " يهود غير صهاينة "، مثل " يورى أفنيرى "، عضو الكنيست السابق، ورئيس تحرير " هاعولام هازيه "، الذي التقاه الدكتور " عصام السرطاوى "، وإسرائيليين آخرين، في باريس، وتعددت اللقاءات على مستويات عدة، قبل أن يتكون ما أطلق عليه " المجلس الإسرائيلي للسلام الفلسطيني – الإسرائيلي "، [ديسمبر ١٩٧٥]، وهو تَجَمُّع شارك في تأسيسه كل من: " آرييه إلياف "، أمين حزب العمل السابق، و " يعقوب أرنون "، المدير العام السابق لوزارة المالية، و " ميتى بيليد "، عقيد الاحتياط، وعضو الكنيست " مائير باعيل "، وقد ساهم أعضاء هذا التجمع، فيما بعد، في تشكيل " حزب شيلى "، [حزب السلام والمساواة في إسرائيل]، الذي حاز مقعدين في انتخابات ١٩٧٧(٥).

م.ت.ف : " صهيوني " ! ... لا يهم !! :

ويمكن أن نفهم المنهج " البرجماتى " الملتبس، الذي تبنته م. ت. ف (منظمة

التحرير الفلسطينية)، وتجسد عميقا فيما بعد، من تحليل رد " جمال الصوراني "، عضو اللجنة المركزية لـ " م. ت. ف "، الذي التقاه " أمنون زخروني "، حيث دار بينهما حوار هام، وضع فيه المحامى الإسرائيلي المعروف، و " داعية السلام " المرموق!، " قاعدة " رئيسية للحوار بين الطرفين، لازالت مطبقة بحذافيرها - حتى الآن. قال " زخروني ": " يجب أن يفهم الفلسطينيون، بأن الطريق إلى السلام، أو الطريق الصحيح للسلام، أو الفرصة الوحيدة للسلام، هي إيجاد طريقة للسلام مع إسرائيل.. كبلد صهيوني! "... " لدى انتقادات كثيرة للحركة الصهيونية.. إنما إسرائيل دولة صهيونية! " (٦).

وفى مواجهة هذا الموقف القاطع من داعية مزعوم للسلام، والذى يصر على إقرار الصفة الصهيونية لإسرائيل، قبل أى حوار، أى احتفاظها بكل مقوماتها العنصرية، ومكونات أيديولوجيتها الاستيطانية العدوانية، فإن رد " الصوارني " المتهافت يعكس سطحية الفهم العربي / الفلسطيني لطبيعة العدو الذي يواجهونه، والإقبال على أية بادرة تسوية مهما تضمنت من مخاطر ظاهرة وكامنة. قال " الصوراني " : " ليس هناك من فارق إذا كان (السيد زخروني) يسمى نفسه صهيونيا (أو أى شيء آخر!).. فإذا كان السيد " زخروني " مؤيدا للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وحقهم في تقرير المصير!، وإنشاء الدولة!، فأنا لا أهتم بما تعنيه الصهيونية له ولى!! " (٧).

كان هذا المنهج القاصر، والذى قاد لمأزق المنظمة الراهن، والذى لا يميز بين التكتيكى والاستراتيجى في السياسة الإسرائيلية، والذى لا يدرك كُنه الأيديولوجية العنصرية الصهيونية، المتناقضة - موضوعيا - مع كافة حقوق الشعب الفلسطيني الأساسية في استعادة أرضه السليبة، وفي تقرير المصير وإنشاء الدولة.. هو

المتحكم والدال في مسار العلاقات الفلسطينية – الإسرائيلية حتى الآن!، كما كان أحد الأسباب العميقة للقصور الذي واكب مسار " حركات السلام " الإسرائيلية، وشاب مواقفها، نتيجة للرؤية الخانعة، وغير النقدية، في تعامل الطرف الفلسطيني، معها ثم الأطراف العربية الأخرى جميعها، فيما بعد.

رصاصات " أبو نضال ".. لن توقف " المسيرة " !! :

وفى ذات الوقت الذي تعددت العلاقات، وتنوعت مواقع وصور ومستويات اللقاءات بين أعضاء من م. ت. ف ومَن أُسموا (دعاة للسلام)، على كل لون وشكل، من الإسرائيليين واليهود، انطلقت رصاصات (المنشق) أبو نضال، لكى تُردى " المحاورين "، الفلسطينيين الأساسيين: سعيد حمامى وعصام السرطاوى، وآخرين فيما ظل " إسحاق رابين "، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، على تشدده: " إن الاتصال الوحيد مع م. ت. ف، هو في أرض المعركة! " (٨).

.... كان الوقت لم ينضج تماما لفتح قنوات الاتصال الرسمية: فالمنظمة لم يتم كسر عودها وتحطيم إرادتها بالكامل بعد، وأسباب تماسكها كانت لم تزل قائمة وإن بدت في طريقها للتآكل، ومن ناحية أخرى، استمرت أشكال جديدة للعمل (السلامى) تتوالد وتتكاثر، خاصة في أعقاب زيارة السادات للقدس ثم توقيع اتفاقيتى " كامب ديفيد "، التي أشاعت جوا مزّيفا من التفاؤل، وبدت لقطاع من الإسرائيليين بمثابة الفرصة التاريخية التي يندر تكرارها، والتي ينبغى استغلالها جيدا، لإقرار وضعية إسرائيل في المنطقة وتقنين مكتسباتها، فأعلنت مجموعة مقدسية، أطلقت على نفسها اسم " الحركة الصهيونية المختلفة " عن نشاطها، بتنظيم عدة مظاهرات مضادة لحركة الاستيطان في الضفة الغربية، والتي كانت قد استشرت وباتت تُنذر بخطر عظيم يتهدد (العملية السلمية) برمَّتها.. وإضافة لحركة " شيلى " - التي

أشرنا إليها سابقا - كَوّنَ " الحزب الشيوعى الإسرائيلي " جبهة عام ١٩٧٧، تحت اسم " الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة "، وتكونت في تل أبيب " كتلة الإيمان بالسلام "، ووُلدت هنا وهناك تجمعات محلية شبيهة، أرهصت بميلاد " حالة " في المجتمع الإسرائيلي كانت تشى بتوقع ميلاد شيء أكبر تأثيرًا، وتهيئ لاستقبال عمل أوسع مجالا.

تنظيمات و " حركات السلام " الإسرائيلية:

حركة السلام الآن "، " رسالة الضباط ":

يجمع الدارسون على أن التاريخ الرسمي لميلاد " حركة السلام الآن "، يعود إلى شهر مارس ١٩٧٨، أى في العام التالى للانتخابات، التي دفعت - لأول مرة في تاريخ الدولة الصهيونية - بمعسكر (اليمين) الصهيوني، (تكتل اليكود)، إلى قمة السلطة، وفى أعقاب رحلة السادات إلى القدس المحتلة.

فقد تحركت مجموعة من ضباط وجنود الاحتياط، قوامها ٣٥٠ فردا، حرَّكهم الشعور بالقلق من المخاطر التي تحيط بعملية " التسوية "، وخشوا من مغبة (تعنت) حكومة " مناحيم بيجن "، وطموحاته المعلنة في التمسك بحلم " إسرائيل الكبرى "، " من النيل إلى الفرات "، فكتبوا ما أصبح معروفا باسم " رسالة الضباط "، الموجَّهة إلى رئيس الحكومة، يطالبونه - عبر سطورها - بالرجوع عن أية خطوات قد تتسبب في " ندم الأجيال القادمة، وندم شعبنا ودولتنا ".. وتدين هذه الرسالة سياسية الحكومة التي تتعمد عرقلة (مساعى السلام)، وتعمد إلى إنشاء المستوطنات، وإدامة مظاهر الاحتلال، الأمر الذي من شأنه " تشويه الصورة اليهودية (الديمقراطية!) للدولة "، مما يؤدى إلى صعوبة التوافق مع التوجه

الأساسى للدولة " بالنسبة لهؤلاء الضباط! وأنهى الضباط الرسالة بمناشدة " مناحيم بيجن " أن يختار " طريق (السلام)، الذي بفضله يتعزز إيماننا بـ (عدالة قضيتنا)! " [٩].

وقد أعقب نشر هذه الرسالة ردود فعل متصاعدة انتهت بمسيرة نظمها الضباط، شارك فيها نحو خمسة وثلاثين ألف إسرائيلى، وانضمت إليها جماعة صغيرة حملت لافتات مكتوب عليها (Now peace)، فلفتت الانتباه، وأصبح هذا الشعار، " السلام الآن "، اسما للحركة بعد اتساع نطاق التأييد لها، وتوقيع الآلاف من الإسرائيليين، على هذا الإعلان، تضامنا معهم.

وفى وقت موازٍ لتصاعد أنشطة حركة " السلام الآن "، كان المجتمع الإسرائيلي يشهد، في مواقع متعددة، أشكال أخرى للتحركات تصب في خدمة قضية (السلام) بالمفهوم (الإسرائيلي) الذي عرفناه سابقًا.

ومن بين حشد من هذه الأشكال، برزت التجمعات التالية:

*** لجنة التضامن مع " جامعة بير زيت ":**

وهى لجنة انبثقت من مجموعة من الأكاديميين، المحاضرين، في تل أبيب تحركوا للدفاع عن الحريات الأكاديمية لجامعات الضفة الغربية في مواجهة الأوامر العسكرية بالإغلاق، والملاحقة للطلاب والكوادر الجامعية الفلسطينية. وقد تطورت هذه الحركة لكى تتخذ مواقف على يسار " حركة السلام الآن "، وتجاوزت قضية التضامن مع الجامعة الفلسطينية لكى تصبح محور تجمع لجماعات أخرى، ومنشقين عن أحزاب، حول الدعوة للتفاوض مع م. ت. ف، والقبول بفكرة دولتين. وقد ضمت هذه اللجنة إلى صفوفها عناصر يهودية وأخرى فلسطينية. [١٠].

*** جماعة " Campus، " كامبوس " ، (الحرم الجامعي):**

وهى حركة طلابية عربية - يهودية، تشكلت في أغلب الجامعات الإسرائيلية بالسبعينات، محور نشاطها مواجهة التمييز ضد العرب، ومعارضة الحرب والإلحاق[١١].

*** مجموعة " المنتدى " :**

كَوَّنَها مجموعة من أساتذة الجامعات الإسرائيلية، بهدف معارضة قمع الحريات الأكاديمية في جامعات الضفة الغربية [١٢].

*** لجنة " معارضة الحرب في لبنان " :**

ثم جاءت الحرب في لبنان، حيث شعر الكثيرون أنها حرب بلا معنى ولا ضرورة، وقد تشكَّلت " لجنة معارضة الحرب في لبنان " استجابة لضغوط القواعد الجماهيرية، وقد ضمت أغلبية من عناصر " لجنة التضامن مع جامعة بير زيت ".

* " دروب السلام "، "Netivot Shalom " [١٣]:

وهى لجنة ساهم في تكوينها " الحاخام أميتال "، عضو اليشيفا (المدرسة الدينية) التابعة لمستوطنات " جوش إتزيون " في الضفة الغربية، وقد قامت بالتظاهر احتجاجا على الحرب وانتهاكاتها في لبنان.

والحق أن حرب لبنان، ومجازر " صبرا وشاتيلا "، التي قامت بتنفيذها ميلشيات الكتائب بتواطؤ مباشر من القوات الإسرائيلية، في أعقاب إجلاء مقاتلى م. ت. ف من لبنان، كانت النقطة التي فجَّرَتْ أعمال الاعتراض وأشكال الاحتجاج الجماهيرى، إذ تركت أعمال القتل الوحشى والتنكيل الهمجى بالعزل والأبرياء

إحساسًا دامغًا بالعار لدى الكثيرين من الإسرائيليين، الذين تحركوا للتعبير عن امتعاضهم من هذه الجرائم، وبالذات في أوساط الجيش الذي تفاقمت فيه حركات الاحتجاج، ومن أبرزها:

*** " جنود الخط الأخضر " :**

وقد نشرت هذه المجموعة رسالة مفتوحة إلى رئيس الوزراء، " بيجن "، نددت فيها بالحرب، التي من خلالها: " تحاولون حل المشكلة الفلسطينية بوسائل حربية " إنكم تحاولون بناء " نظام جديد " على أنقاض لبنان، لتريقوا دماءنا، ودماء الآخرين، من أجل الكتائب (حزب الكتائب الفاشى اللبنانى)، " لكن ليست هذه الأسباب التي من أجلها انضممنا إلى قوات الدفاع الإسرائيلية ". وأضافت الرسالة، موجهة الحديث إلى " بيجن ": " لقد كذبتم علينا. تحدثتم عن خط الأربعين كيلومترا، وفى الحقيقة أردتم الوصول إلى مسافة تبعد أربعين كيلومترا عن دمشق والدخول إلى وسط بيروت، ونحن الآن نواجه ثانية الحلقة المفزعة من الاحتلال والمقاومة والقمع.. وبدلا من " السلام للجليل " (الشعار الكاذب الذي رفعته حكومة بيجن لتبرير غزو لبنان)، تسببتم في حرب لا يبدو أن لها نهاية.

... " أعيدوا الجنود إلى بيوتهم! ".

*** لجنة " جنود معارضون للصمت " :**

وقد ترأسها " إبراهام بورج "، ابن وزير الداخلية، من حزب " المفدال " الدينى، وقد نددت أيضا بالحرب وطالبت بوضع حد لها [١٤].

*** حركة " الامتناع عن الخدمة "، " يش جفول "، (Yesh Gvul)** [١٥]:

وقد تزعمت الدعوة لرفض الخدمة العسكرية في لبنان، وكان أول من سجن من

عناصرها لرفضه الامتثال لأوامر الخدمة مع القوات الغازية الجندى " إيلى جوجتسكى "، عضو الحزب الشيوعى الإسرائيلي، كما عوقب جندى آخر، " صموئيل هاعسبارى " بالسجن لموقفه الذي عَبَّرَ عنه بعد عودته: " لقد عدت إلى الوطن مرتجفا.. يا لها من حرب سخيفة، يالها من خطيئة آثمة ومميتة، ضد الإنسان، وضد الله! ".

وقياسا لمواقف الجنود من هذه القضية الخطيرة، أجرت " مجلة الجيش الإسرائيلي "، " بامخانة "، (في المعسكر)، " Bamachaneh " استفتاء بين الجنود، في نوفمبر ١٩٨٤، ووفقا لتحليلاته فإن " سبعة عشرة في المائة من المجندين الجدد في الجيش، وجدوا أن مسألة رفض الخدمة العسكرية في لبنان لها ما يبررها، بالرغم من أن معظمهم لم ينفذوا هذه الخطة بأنفسهم " [١٦].

*** لجنة " الآباء المعارضين للصمت " :**

وقد ظهرت هذه اللجنة كتعبير عن احتجاج آباء الجنود الإسرائيليين، الذين قتل بعضهم في لبنان، وقد أنشئت في مايو ١٩٨٣.

*** تظاهرة إلى " ٤٠٠ ألف " إسرائيلى:**

وإزاء تنامى حركة الاحتجاج في أوساط الإسرائيليين [التى غَذَّتها بصورة مهمة مواقف حزب العمل (المعارض) وأنشطة أعضاء الكيوبتزات (اليسارية)]، وكنتيجة لتعاون " حركة السلام الآن "، مع كل من لجنتى " التضامن مع جامعة بير زيت "، و " لجنة معارضة حرب لبنان "، شهدت شوارع " تل أبيب " التظاهرة الأكبر في تاريخ الدولة الصهيونية، شارك فيها نحو ٤٠٠ ألف إسرائيلى، رفضا لوقائع الحرب، واحتجاجا على ممارساتها الإجرامية الفاضحة، وقد أدى

الضغط الجماهيرى في هذه التظاهرة إلى إعلان تكوين لجنة للتحقيق في وقائع الحرب، رأسها قاضى المحكمة العليا " كاهانا "، الذي أصدر - في فبراير ١٩٨٣ - تقريره، موصيا باستقالة الجنرال الإرهابى " آريئيل شارون " المسؤول عن غزو لبنان والفظائع المرتكبة. بعد إدانته المباشرة في تسهيل مهمة الفاشيين اللبنانين، خاصة في ظروف ارتكاب مجزرتى " صبرا وشاتيلا " [١٧].

* " **كتلة السلام** ":

ويرأسها " يورى أفنيرى ". تأسست عام ١٩٩٣ بعدما أقدمت حكومة " إسحاق رابين " على طرد أربعمائة مناضل فلسطينى إلى الحدود اللبنانية. وترى هذه الحركة بأن إسرائيل " مطالبة " بالانسحاب من كل الأراضى المحتلة، ومن بينها القدس الشرقية، وتطالب بإزالة المستوطنات. لكن عدد أفراد هذه الحركة، لا يتجاوز بضع مئات "، وتلقى هذه الكتلة معارضة من الاتجاهات اليمينية وحركات الاستيطان الإسرائيلية [١٨].

أما أحدث التجمعات (السلامية) الصهيونية، فهى منظمة " **كل الجيل يريد السلام** " [١٩]، التي برزت إلى الوجود في عام ١٩٩٦، عقب اغتيال إسحاق رابين ". ومن أبرز زعمائها " يوفال " ابن " إسحاق رابين " نفسه. وتشير أدبيات هذه المجموعة إلى تركيزها على " السلام الداخلى " بين الإسرائيليين بعضهم البعض، أكثر من تركيزها على (السلام) مع الفلسطينيين، ويقول مؤسسوها أنها " تعمل من أجل تغيير اجتماعى نحو السلام، وتسعى لبناء جسور بين الإسرائيليين، وتعالج الجرح الذي انفجر على أثر اغتيال " إسحاق رابين "، بهدف " خلق مجتمع يهودى ديمقراطى يتسم بالتسامح ". وتدعى هذه المنظمة أن عدد أعضاءها يصل إلى نحو عشرين ألفا، كما أن نشاطها يتجه للتكثيف في أوساط " السفارديم "، (اليهود ذوي

الأصول الشرقية)، نظرا لأن الفتى الذي اغتال " إسحاق رابين " ينتمى إلى هذه الطوائف.

وإضافة إلى ما تقدم، فهناك بضع تجمعات صغيرة أخرى، مثل " **القوة والسلام!** " و " **هناك حدود** " و " **بنت السلام** " و " **منظمة النساء الأربع** " التي تطالب بانسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، و " **النساء في الحداد** " التي نظمت، منذ عام ١٩٨٨، ثلاثين تظاهرة صامتة ضد الاحتلال، و " **حركة الأمهات ضد الحرب** " في لبنان، وجماعات " **أوز فيشالوم** "، " **ناتيفوت شالوم** "، و " **ميعاد** " التي تؤيد السلام كالتزام دينى " لا يقل شأنا عن الالتزام السياسى " [٢٠].

علاقة حركة السلام الآن بحزب العمل :

ومن اللافت للنظر أن التظاهرة الكبيرة السابق التعرض لها، كانت محل دعم حزب العمل (المعارض) وتشكيلاته المختلفة، والذى بدا من خلالها أن نفوذه داخل " حركة السلام الآن " - التي رفعت شعار " اخرجوا من لبنان " يتدعم.. غير أن موقف الحزب نفسه كان أكثر ترددا في نظرته للحرب، ولم يُظهر تحمسا للانسحاب من لبنان قبل الاستفادة من الفرصة التي أتاحها الغزو لتوقيع اتفاق أمنى معه، بالشروط الإسرائيلية طبعا.

سيطرة ملحوظة ! :

وضاعف من قدرة الحركة دعم أعضاء الكيوبتزات، ومؤيدى الانسحاب الجزئى وأعضاء الأحزاب اليسارية الأمر الذي يسر لـ " حركة السلام الآن " توصيل موقفها لأوسع قطاع من المواطنين، غير أن ارتباط " حركة السلام الآن " بحزب العمل، مؤسس الدولة الصهيونية الرئيسي، كان عامل شديد السلبية في صياغة رؤيتها وأنشطتها وتطوراتها المستقبلية، إذ انعكست على دورها مناورات الحزب وتكتيكاته المراوغة، ونتيجة للتداخل الملحوظ بين الحركة والحزب، مالت الحركة

إلى الهدوء، بل السكون، في الأوقات التي كان الحزب فيها يقترب من السلطة أو على قمتها (*)، مثلما حدث في فترة انتخابات عام ١٩٨١، حينما أوقف أغلبية نشطاء الحركة عملهم، استجابة لتقديرات خاطئة توقعت فوز حزب العمل بالانتخابات، وقد قدر عدد ملحوظ من المراقبين - آنذاك - أن " حركة السلام الآن " قد " انتهت وتلاشت " (٢١).. وكان من نتيجة سطوة حزب العمل على الحركة وهيمنته على أنشطتها أن يتدخل واحد من أبرز عناصرها، الكاتب الشهير " عاموس عوز "، فور بدء المحادثات الرسمية بين الحكومة الإسرائيلية والفلسطينيين، لكى يعلن - باسمها - " أن مهمة " حركة السلام الآن " المستقبلية، أن تتجنب - الآن - كافة أنواع عمليات الاحتجاج التي لا معنى لها! وأن تمتنع عن الضغط على الحكومة لتقديم المزيد من التنازلات! في كل مرة تصادف فيها المفاوضات بعض الصعوبات! " (٢٢).

ويكمل عاموس: " على الحركة أن تضع أيديها في يد الحكومة، وأن تركز جهودها على محاولة إقناع (الشعب) الإسرائيلي بأن الاتفاقية هي أقل الاختيارات كلفة، وأنها ليست السلام بأى ثمن، ولكنها خطوة حذرة ومحسوبة تأخذ بعين الاعتبار الأمن القومى الإسرائيلي! " (٢٣).

وليس أدل على العلاقة الوثيقة التي تربط حزب العمل ومؤسساته بـ " حركة السلام الآن "، من المساعى التي بذلها - مؤخرا - " شمعون بيريس "، [رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق، وأحد الزعماء البارزين لهذا الحزب، والذين لعبوا دورا بارزا

(*) يقول الكاتب اليهودي " دان ليون "، رئيس التحرير المشارك لمجلة " فلسطين - إسرائيل ": " لقد أدى وجود أحزاب الوسط و (اليسار) الصهيوني الرئيسية، في السلطة، بزعامة " رابين بييرس "، قبل فوز " نتنياهو " بانتخابات ١٩٩٦، وتأييد حركة " السلام الآن " لحكومة العمل - " مريتز "، إلى الحد من أنشطتها كحركة احتجاج.

في تثبيت أركانه بالدولة]، من أجل توحيد " حركات السلام الإسرائيلية " - وعددهم ٢٢ جماعة حسب تقديره - " في كيان واحد "، بنص تصريحه للإذاعة الإسرائيلية [٢٤]، وأوضحب صحيفة " هاآرتس " أن نائب العمل " موشى شاحال "، يقف وراء مشروع ضم المنظمات (السلمية) الإسرائيلية في منظمة واحدة يرأسها بيريس [٢٥].

موقف " حركة السلام الآن " من انضمام العرب إلي صفوفها :

إلى أن انفجرت انتفاضة الشعب الفلسطيني في أخريات عام ١٩٨٧ كان الرفض هو إجابة " حركة السلام الآن " على الطلبات التي تقدم بها عدد كبير من الفلسطينيين، ساعين للانضمام إليها عند تأسيسها، مبدين الرغبة في إنشاء فروع لها في المدن والقرى العربية، على الرغم من إعلان الحركة لالتزامها بأن: " إسرائيل هي دولة القانون والحرية والمساواة الكاملة في الحقوق، لكافة المواطنين، بغض النظر عن دينهم وقوميتهم! " [٢٦].

الصهيونية " العاقلة ! " :

وبرر قادة الحركة هذا الموقف العنصرى " الشوفينى " تبريرات شتى منها الحرص على أن تكون الحركة " يهودية خالصة "، حتى تظل قادرة على حشد الجماهير اليهودية المترددة، إلا أن السبب الرئيسى في هذا الموقف، يعود - في الواقع - إلى الجوهر الفلسفى الكامن في عمق أيديولوجية الحركة وقيادتها، والتي بمقتضاها عَرَّفت " حركة السلام الآن " نفسها، باعتبارها ذات ثلاثة ملامح رئيسية، هي: -

أولا: أنها حركة صهيونية، أطلق أعضاؤها على أنفسهم اسم

" الصهيونيون العقلاء "، الذين يضعون الولاء للدولة محل اهتمامهم الرئيسى، ويرفضون الصورة التي يقدمها الجناح اليمينى للصهيونية.

ثانيا: وهى ليست " حركة مسالمة "، (أى تنبذ العنف لأسباب دينية أو سواها)، إذ أن أعضاء " حركة السلام الآن " كانوا دائما يعلنون استعدادهم للقتال دفاعا عن أمن إسرائيل ورفاهيتها.

ثالثا: وهى ليست حركة احتجاجية، كما وصفها " موردخاى بار - أون "، أحد الأعضاء البارزين في الحركة، ومؤرخها، فهى لم تكن حركة مناهضة للمؤسسات الحاكمة، مثل تلك التي ظهرت في الغرب، بل تنطر إلى نفسها على أنها جزء من النسيج السياسي والاجتماعى الإسرائيلى " (٢٧).

وباختصار: فلقد كانت " حركة السلام الآن " حركة موالية للدولة (الصهيونية حسب مُثُل تقترب من مثل حزب العمل)، وأرادت الحفاظ على طابع إسرائيل (الديمقراطى!) وقيمها (الأخلاقية!)، (بالمفاهيم والتعريفات الإسرائيلية أيضا)، وهى كانت - أولا وقبل أى شئ - حركة احتجاج في مواجهة " الجناح اليمينى المتطرف " (٢٨) داخل إسرائيل، تنطلق من مواقع لا تتناقض جوهريا - بأي صورة من الصور - مع الأيديولوجية الصهيونية المهيمنة، وليست حركة سلمية بالمفهوم الإنسانى الشامل، إنها وبصورة أشد تحديدا، مثلما يعرفها " عاموس عوز ": " حركة صهيونية في المقام الأول، وهى تشارك في الإيمان بأن الصهيونية تمثل حركة تحرير وطنى للشعب اليهودي!! " (٢٩)، ويضاف إلى ذلك، بأن دوافع هذه الحركة الأساسية، ومنطلقاتها الرئيسية تنبع من مصالح إسرائيل الاستراتيجية أولا وأخيرًا، فـ " داعية السلام " الشهيرة " شالوميت ألونى "، الزعيمة السابقة لحزب " ميرتس "، والتي يتم الترويج لها ولعناصر حزبها، في الوطن العربي، باعتبارهم

أنصار العرب والمدافعين عن حقوقهم، تحدد هذه الدوافع بأقصى قدر من الدقة والوضوح: " إن ما يهمني هو دولة إسرائيل، تفوقها، أمنها، طابعها (اليهودي الخالص بدون عرب طبعا!)، ولأجلها يتوجب الحديث مع أى عدو!! [٣٠] ".

المواقف السياسية لـ " حركة السلام الآن " :

لا ثنائية.. لا عودة.. لا دولة!

لقد انطلقت هذه الحركة، كما يبدو واضحا في ثنايا بيانها الرسمى الصادر عام ١٩٨٠ من دوافع " برجماتية "، مباشرة تنبع - في جهة منها - من إيمانها بضرورة الحفاظ على " نقاوة الجنس " بالنسبة للدولة اليهودية، حيث أن استمرار الهيمنة على ما يربو على المليون ونصف المليون من العرب، الذين يعيشون في الضفة الغربية وقطاع غزة، يعنى بالتبعية - تهديد الطابع الديموجرافى لدولة إسرائيل، ويؤدى إلى تأسيس دولة " ثنائية القومية " كأمر واقع، أما رفضها لضم الضفة الغربية فلا يعود إلى رفض الاحتلال - من حيث المبدأ - وإنما لأن هذا الأمر يخلق أوضاعا مدمرة لإسرائيل، في المستقبل، بالنظر إلى الوقت الذي سيشكل فيه العرب أغلبية في الدولة، وكذلك فإن مطالبتها بوقف الاستيطان، تعود، في واقع الحال، إلى كون هذا الأمر يؤثر على سمعة إسرائيل في العالم، ويظهرها بصورة الدولة القامعة، المحتلة.

وفيما يخص موضوع الحدود والدولة المقترحة للفلسطينيين، وهى من الموضوعات الرئيسية التي تقع في قلب عملية الصراع العربي الإسرائيلي، فإن " حركة السلام الآن " في بيانها المشار إليه تؤكد على أنها: " لم يسبق لها مطلقا، أن طالبت بالعودة إلى حدود ١٩٦٧، أو بإنشاء دولة فلسطينية " [٣١].

ويضاف إلى ما تقدم، فإن " حركة السلام الآن "، الإسرائيلية، تعلن بكل قطع موقفها الذي يعتبر أن " القدس هي عاصمة إسرائيل. ولن يتم تقسيمها "... وباختصار فإن مجمل " حقوق العرب "، كما يقول " ياكوف تالبون "، أحد الأعضاء النشطين في الحركة، في رسالة مفتوحة لرئيس الوزراء الأسبق " مناحيم بيجن ": " مسألة لا تخصنى، وليست لدى معلومات، أو اهتمام عميق بماضيهم أو ثقافتهم، ولكن اهتمامى يتركز فقط في إسرائيل وأمنها! " [٣٢].

وبعد إعلان هذه المواقف " الحاسمة، لا بأس من أن يلوك (دعاة السلام) الإسرائيليين بعض الكلمات للاستهلاك المحلى والإقليمى والأجنبى، وللتسويق في العالم العربي، عن " السلام مع العرب والفلسطينيين "، مادام العرب يعترفون بـ: " حق إسرائيل في الوجود والسيادة، وكدولة يهودية، داخل حدود آمنة "، (دون أن يتم أبدا تعيين هذه الحدود!)، وما داموا يُقِرُّون بالتخلى عن " طريق الإرهاب "، أى السعى لتحرير أراضيهم المحتلة، على حد تعبير " موردخاى بار - أون " العضو البارز في (حركة السلام الآن الإسرائيلية)، خاصة وأن هذا الأمر، لن تخسر إسرائيل بمقتضاه شيئا يذكر، بل سيعود بفوائد غير محدودة على الدولة الصهيونية، لعل من أهمها، وفى مقدمتها: إبقاء الوضع المجمَّد لمصر على ما هو عليه، والترويج لـ " إسرائيل الجديدة " في إطار منظومة " الشرق الأوسط الجديد ".. إسرائيل التي تتزعم المنطقة، وحان وقت قيادتها للعرب، " بعد أن قادتهم مصر على مدى خمسين عاما - دون جدوى "، على حد تعبير " إسحاق رابين "، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، في المؤتمر الاقتصادى، " مؤتمر الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الذي عقد بالدار البيضاء، المغرب، عام ١٩٩٥.

إن العمل على تحقيق (السلام)، بهذه المواصفات، وبناء علاقات جيدة (من موقع

التفوق على العرب، وتصفية المشروع الاستقلالى العربي)، كما يقول " عاموس عوز ": " شرط أساسى لاستمرار المشروع الصهيوني، في فلسطين " (٣٣)، وليست نقيضا لهذا المشروع العدوانى، أو خطوة تنتقص من فرص تقدمه، بأى حال، خاصة وإذا كانت أية تسوية مقترحة - من وجهة نظر " حركة السلام الآن "، لن تقدم للفلسطينيين - في واقع الحال - أكثر من مولود " لقيط "، لا يزيد كثيرا في جوهره، عن تصور أعنى المتطرفين اليمينيين، وكما عَبَّرَ " عاموس عوز "، في " على منحدرات لبنان "، فهى (دولة!): " منزوعة السلاح، وغير مسموح بوجود جيش أجنبى على أراضيها!، وملتزمة بمنع تسرب " المخربين! " إلى داخل دولة إسرائيل، وتُقّرُ باعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل " (٣٤)!!.. إنها في الواقع (اللادولة) التي يقترحها أيضا الإرهابي " بنيامين نتنياهو " على الشعب الفلسطيني، لكن بصورة أكثر فجاجة من سُم " حركة السلام الآن " الزعاف، المذوب في عسل (السلام) الموهوم!.

إن هذا المنظور العنصرى المتعالى، كان في صلب مأزق " حركة السلام الآن "، ومن خلف كافة تصرفاتها، وردود أفعالها، وانطلاقا منه نظرت الحركة إلى " مؤتمر مدريد للسلام "، لا كخطوة على طريق السلام المأمول في المنطقة، وإنما - وكما هو في الحقيقة - باعتباره انتصارًا لإسرائيل نفسها، وللذين كانوا، كما قال " عاموس عوز "، " يؤمنون حتى عندما كان من الصعب تصديق ذلك، بأنه سيأتى يوم يوافق فيه العدو (أى العرب) على المشروع الصهيوني!! " (٣٥).. إنه " انتصار لإسرائيل "، و " يوم عظيم في تاريخ الصهيونية " (٣٦)، على حد تعبير ناطق باسم الحركة، تعليقًا على توقيع " اتفاقية غزة - أريحا "، ومع هذا، ومرة أخرى وليست أخيرة، فإن " على الفلسطينيين "، يقول داعية (السلام) الصهيونى،

والعضو البارز في (حركة السلام الآن)، " عاموس عوز " -: " أن يبرهنوا (مجددا!!!) لنا، على أنهم تخلوا فعلا عن أساليب العنف والإرهاب!، وأنهم قادرون على قمع " المتعصبين " لديهم!، وأنهم يتخلون عن الميثاق الفلسطيني المدمر!، وكذا عما اعتادوا تسميته به " حق العودة !! "،.. أى على الفلسطينيين - إذن - إن كانوا مهيئين للسلام الإسرائيلي، أن يؤكدوا دائما قبولهم - غير المشروط - بالركوع تحت أقدام الغزاة الفاتحين، المدججين بترسانة الأسلحة النووية، وباقى أسلحة الدمار الشامل (التي لم تلفت انتباه أى من دعاة السلام الإسرائيليين أبدا!)، والتقليدى، وإلا فإن كرباج (اليمين) الصهيوني، ودعاة (السلام)، (اليسارين زَعَمًا)، لا زال في اليد، حيث في إطار التسوية المقترحة، يؤكد " عوز " أيضا -: " تكون إسرائيل في موقف يُمكّنها من الإجهاز على فلسطين، وإلغاء " الصفقة "، وعلى " قهر كيان فلسطين ضئيل، منزوع السلاح " [٣٧]... إن بدا ما يتطلب ذلك!.

" السلام الآن ".. والفرص الضائعة ! :

على الرغم من كافة الفرص التي توفرت أمام " حركة السلام الآن "، لكى تتحول إلى قوة ضغط فعلى تضاف إلى رصيد العمل الحقيقى من أجل السلام في المنطقة، فإن واقع الأمر يؤكد عكس ذلك.. إذ تبددت هذه الفرص، وعاد شبح الحرب يحوم في الأجواء مجددا، وبدت إمكانية " الحل العادل "، المزعوم، للصراع العربي - الإسرائيلي أبعد منالا من أى وقت مضى!.

يعود الإخفاق الذي مُنيت به " حركة السلام الآن " الإسرائيلية، وباقى التجمعات (السلمية) الأخرى في إسرائيل، وعجزها عن أن تصبح قوة ذات تأثير حقيقى فيما يخص قضايا الحرب والسلام، داخل التجمع الصهيوني، إلى مجموعة من الأسباب، أهمها:

١ – جوهر المفاهيم الأساسية، وطبيعة ما تطرحه من أفكار:

بسبب وقوف " حركة السلام الآن "، على ذات القواعد الصهيونية التقليدية، فقد استمر دورها المباشر في عملية تجميل الوجه القبيح للدولة اليهودية، ولم يتجاوز محاولة نزع " الشوائب " العالقة بها، دونما أدنى استعداد للخروج عن " الثوابت " الصهيونية، أو إمكانية " إعادة النظر " في أى من مُسَلّمَاتها التاريخية، التي تحمل في جوهرها أسس المواقف العنصرية الشوفينية، والممارسات الفاشية العدوانية الإسرائيلية، مثلما نعاصرها الآن.

٢ – غياب الاستراتيجية المحددة:

ونظرا للالتباس الأوَّلى السابق الإشارة إليه، فقد قاد هذا الأمر " حركات السلام الإسرائيلية " إلى مواقف مرتبكة، ومواضع مترددة، واقتصر نشاطها على " المناسبات " دون أن يتجسد في عمل يومى بإمكانه إحداث تراكم كيفى، ولذا فلقد ظلَّت أنشطة الحركة: " مجرد أنشطة متفرقة لا تترك أثرًا بعيد المدى، يُغَيِّرُ من الرأى العام ". [٣٨] لقد عجزت الحركة عن أن تحول مشاعر الجماهير، كما يذكر أحد أعضائها - " إلى فعل ملموس ومتصل من أجل السلام " [٣٩].

٣ – العجز عن بناء آلية تنظيمية دائمة وفعالة:

وقد تدخلت العديد من العوامل في التأثير سلبا في قدر " حركة السلام الآن " على بناء آلية تنظيمية (حزبية) مستقرة، تسهم في دفع نشاطها وتطوير فعاليتها، وعلى رأس هذه العوامل:

(أ) غياب الانسجام بين الأفراد والتجمعات التي شَكّلت الحركة، بالنظر إلى منابعها

التنظيمية المتباينة، الأمر الذي ولَّدَ تناقضات عديدة فيما بينها، وجعلها غير قادرة على إيجاد نقاط التقاء استراتيجية، عدا السعى لتحقيق " سلام صهيونى "، يخدم أغراض الدولة ومصالحها.

(ب) الارتباط التنظيمى للعديد من كوادر وقيادات الحركة، بأحزاب وهيئات سياسية قائمة بالفعل، في مقدمتها " حزب العمل الصهيوني "، الأمر الذي حال دون سعيها لبناء حزب جديد، لاستحالة الازدواجية التنظيمية لأعضائها.

(ج) معاداة التنظيمات الصهيونية القائمة في الساحة الإسرائيلية، والمتصارعة، وبالذات في الجناح (اليسارى)، لميلاد حزب جديد، ينازعها الأصوات الانتخابية، وينافسها على نفس " قاعدتها " السياسية والجماهيرية.

(د) تقدير قادة الحركة أن تحولها إلى حزب سياسى يفقدها الكثير من التعاطف، ويَنفُضُّ عنها العديد من الأنصار، وبالذات أولئك الذين يمنحونها جزءا من الجهد، ويرفضون الاندماج في آلية حزبية كاملة.

(هـ) استياء العديد من قواعد وقيادات الحركة، من واقع الأحزاب السياسية الراهن، لافتقادها الكفاءة الواجبة (٤٠).

٤ – ارتباطها العميق، والطبيعى، بحكم ظروف المنشأ بسياسة الدولة وتطورات مواقف النخبة الحاكمة:

بدأت " حركة السلام الآن "، كما سبق وأشرنا، في الأساس، كحركة ضباط من الجيش الإسرائيلي، واستقطبت في داخلها جماعتين رئيسيتين:

الأولى: من نشطاء حركة الكيوبتزات، والثانية: من جماهير حزب العمل.. أى أن الحركة في جوهرها، ضمت أعدادًا من كوادر ثلاثة من أعمدة الدولة الصهيونية: "

الجيش - الكيوبتس - حزب العمل "، وهو ما انعكس - مباشرة - على مواقفها وأفكارها.. وكذلك رأينا أن الكثيرين من أعضاء الحركة لم يرفضوا - من مواقع الالتزام بالسياسات الرسمية - الاشتراك في حرب لبنان، رغم إعلان الحركة نفسها اعتراضها على مماسات الجيش الصهيوني، بعد أيام من التردد، وبررت قيادات الحركة موضوع المشاركة هذه، بأن هذه العناصر: ملزمة بأن تقاتل، وأن تطيع، لأن إسرائيل دولة (ديمقراطية!)، وعلى الأقلية أن تلتزم بالقانون، وأن تتبع سياسة الأغلبية.

وتبدو التناقضات في مواقف " حركة السلام الآن "، نتيجة لارتباطها بالسياسات الرسمية للدولة الصهيونية، أبرز ما يكون لدى دراسة موقفها من موضوع " القدس "، إذ بالرغم من إعلانها رفض قانون الكنيست الصادر عام ١٩٨١ (والذى يقضى باعتبار " القدس " هي العاصمة الأبدية لإسرائيل)، هاجمت الحركة الدول التي رفضت نقل سفاراتها من " تل أبيب " إلى " القدس على أساس أن " إسرائيل دولة ذات سيادة لديها الحق المطلق في اختيار موقع عاصمتها! " [٤١].

وهو تبرير يعكس بوضوح تَخَبُّط " حركة السلام الآن "، وتذبذب مواقفها، من جراء الخلل البنيوى في منظورها الفكرى، نظرًا لكونها حركة ذات ارتباط عميق - رغم كل ادِّعاء - بالمفاهيم الصهيونية التي نهضت على أساسها الدولة المغتصبة، وَشُيِّدَتْ أركانها.

أما القضية الثانية التي تعكس بوضوح، أيضا، هذه التناقضات فهى قضية الموقف من " حرب العراق الأولى "، (حرب عاصفة الصحراء)، إذ لأول مرة في التاريخ "، يصدر بيان عن جماعة تزعم الانتساب لحركة سلمية، مُوَّجهٌ إلى حركات السلام في العالم، تعلن خلاله موقفا مؤيدا للحرب، انطلاقا من أن تدمير قوة

العراق، يمثل مصلحة حيوية لإسرائيل "! وقد قام بالتوقيع على هذا البيان (دعاة سلام) إسرائيليون مشهورون، منهم " يائيل دايان " - " عاموس عوز " - " عاموس إيلون " - " أ. ب. يهوشوا "، الأمر الذي استفز – حتى - بعض الإسرائيليين الآخرين، لعدم منطقيته، فكتب أحدهم، ساخرا، داعيا الحركة إلى تبديل اسمها من " السلام الآن " إلى " الحرب الآن "، أو حتى " حركة السلام بين حربين " (٤٢)، وهو الموقف الأكثر اتساقا مع جوهر مبادئ الحركة، وصلب أيديولوجيتها.

مأزق بلا مخرج :

في مثل هذه المواقف يتجسد المأزق العميق لتيارات اليسار المزعومة في إسرائيل، فمن المستحيل ليسارى حقيقى، يؤمن بالأخوّة الإنسانية وحق الشعوب في الحياة، أن يتحول إلى سفّاح وقاتل ومغتصب وحشى، ينهب الأرض ويطرد أصحابها، ويشن حملات إبادة منظمة ضد مواطنيها الأبرياء، ثم يدعو لحرب ضد شعب آخر، وهو يعلم جيدا أن هذا الشعب سيدفع ثمن جريمة لم يرتكبها وخطأ لم يتسبب فيه.. إن هذه المواقف وغيرها - بصورة قاطعة - مواقف لا تنتمى، بأى شكل من الأشكال، لا لأفكار اليسار، ولا لأفكار حركات السلام في العالم.. وحتى في المواقف التي تبدو صحيحة، فإن اليسار الإسرائيلي يعمد إلى " تجزئة " القضية، و " تفكيك " مقوماتها.. لأن مواجهتها، كما ينبغى، ككتلة واحدة، يقود إلى إدراك حجم الكذبة التي يزعمها (اليسار) الصهيوني، وَيُقَوِّضُ ادعاءاته من أساسها، منذ بداية المشروع الصهيوني ذاته، وفى كل مراحل نمو الدولة.

ويوضح د. " إدوارد سعيد " هذا الأمر، فيقول: إن المنظور الصهيوني الرسمى للصراع مع الفلسطينيين، مهما " كان مستنيرا أو ليبراليي، [وهذا ينطبق على

أوساط (اليسار) الصهيوني، مثل حركة " ميرتس "، أو يسار الوسط، مثل " شمعون بيريس "] لا يستطيع الوصول سوى إلى مرحلة " الشيزوفرينيا ": أى نعم نريد السلام مع العرب، ولكن لا لم يقم بيننا ما يستحق الإدانة في ١٩٤٨، لكن - يقول " إدوارد سعيد " - لا يمكن لهذا الموقف أن يُشَكِّلَ أساسا للسلام، لأنه ينطوى على اعتبار الفلسطينيين في بلادهم، كأنهم أدنى من اليهود، كما ينطوى على القبول بالتناقض العميق بين الصهيونية والديمقراطية: كيف يمكن أن تكون هناك دولة ديمقراطية يهودية، فيها أكثر من مليون مواطن غير يهودى، لا يتساوون مع اليهود في الحقوق، والتشغيل، وتملك الأرض؟! " (٤٣).

في اعتبارى أن رد " د. إدوارد سعيد "، بهذا المنطق، هو رد جزئى أيضا، بل ويمكن اعتباره ردا شكليا في كثير من حججه ولا يمس جوهر المسألة.

فالقضية ليست في صفة " الديمقراطية "، وهل تستأهلها الدولة الصهيونية وتنطبق على ممارساتها، أم لا؟! لكن القضية - في رأى - أعقد من ذلك بكثير، وأشمل.. وهى في الواقع جوهر المشروعية - من وجهة نظر الفكر اليسارى - لواقع وجود دولة قامت على اغتصاب أرض وتاريخ وحضارة شعب آخر، وانبنت على الغزو والتوسع والحروب، وتهديد السلم الإقليمى والعالمى، من ثم، على فترات متعاقبة.

.... وهنا صلب المسألة

جريرة [اليسار] الصهيونى وخدعته ! :

لقد لعب ما يسمى بـ (اليسار) الصهيوني دورا حاسما في إنتاج وتعبئة وتسويق الفكرة الصهيونية، كما كان حجر الزاوية امتلاك عناصر القوة والبطش وفي الترويج لدولة إسرائيل بعد إنشائها والتمكين لها.

ففيما كانت البرجوازية اليهودية، (كبار رجال المال اليهود)، يتوجهون إلى دول الغرب والولايات المتحدة لضمان الدعم الكامل للمشروع، كان (اليسار) الصهيوني يتحرك على مستوى " العسكر الشرقى "، والحركات الاشتراكية واليسارية وحركات السلام العالمى والمنظمات (الاشتراكية) الدولية، التي كانت جميعها تُكِّنُ تعاطفا واضحا مع " الحالة اليهودية " بتأثير من ممارسات النازى "، وقد ضمن هذا (اليسار) المساندة المادية والأدبية، والحماية، والدعم المطلوب، ونجح في هذا الأمر نجاحا بَيِّنا، يشهد على عمق (خديعته) ليس فقط لقطاعات كبيرة من الرأى العام العالمى، وإنما حتى لمراكز يسارية مرموقة في العالم، استجابت، لأسباب عديدة، لأكاذيبه وادعاءاته.

ولسنا وحدنا الذين نقطع بهذا، فإيلان بابيه، أحد " المؤرخين الجدد " الإسرائيليين البارزين، والمحاضر في العلوم السياسية بجامعة حيفا، ورئيس " معهد دراسات السلام "، في " غفعات حفيفا "، يعترف بأن مواقف (اليسار) الصهيونى، قد " خَفَّفَتْ، طوال أعوام كثيرة، النقد الخارجى الموجَّه إلى إسرائيل وسياساتها "، ويشكك البروفيسور " بابيه " في دوافع نقد (اليسار) الصهيوني لـ " إسرائيل ما بعد ١٩٦٧ "، إذ إن هذا النقد، من وجهة نظره، و " سواء جرى التعبير عنه في النتاج الأكاديمى الموضوعى، أو في الحوار السياسي الإسرائيلي، موجّهٌ لإيجاد فصل تام بين الفلسطيني واليهودى، ويخفى التطلع إلى الفصل المطلق أيضا، توقا إلى الانفصال - لو كان هذا ممكنا - عن المراكشى والشرقى "! [٤٤]، أى أن دوافع هذا الموقف هي دوافع عنصرية، منشؤها كراهية التواجد في محيط واحد مع الفلسطيني من جهة، ومع اليهودي القادم من البلاد العربية، واليهودى السفاردى (الشرقي)، من جهة أخرى!.

ويضيف البروفيسور " بابيه "، في معرض نقده لمواقف (اليسار) الصهيوني وانتقاداته الجزئية.. أن هذا النقد، " اهتم " ولا زال مهتما، بتأثيرات الاحتلال الخلقية في نفسية الجنود الإسرائيليين " الرقيقة! "، لكن لا بجروج الأطفال الفلسطينيين الذين أصيبوا برصاص هؤلاء الجنود! ". ولذلك: فإن " الحل السياسي الذي يقترحه (اليسار) الصهيوني، يقول بابيه: " يحل المشكلات النفسية لمن كان في الماضى منتميا إلى جيش احتلال.. لكنه لا يقدم جوابا على تطلعات من كانوا واقعين تحت احتلال هذا الجيش وسلطته [٤٥].. لقد اختارت " حركة السلام الآن " أن تركز اهتمامها على " تأثير الاحتلال في إفساد المحتلين، بدلا من الاهتمام بظلم من يتعرضون للاحتلال "، وهذه الحجة أثَّرت في بعض غلاة المتمسكين بحق اليهود في " أرض إسرائيل الكاملة "، ففي عام ١٩٩٤، اعترف بعض أعضاء جماعة " جوش أمونيم " المتطرفة، بأن حكم سكان غرباء، قد يشوه ما أسموه بـ " المبادئ الأخلاقية الإسرائيلية! " [٤٦].

أن دور " حركة السلام الآن "، في جانب من جوانبه، لا يخرج عن هذا السياق بأية صورة من الصور، وإنما ينصب في تعميقه وتكريس مساراته، ويوضح هذا الأمر " تسالى يشيف "، الناطق الرسمى باسم الحركة، الذي يؤكد دورها في تجميل الوجه القبيح للدولة العنصرية: " إن حركتنا تقدم مساهمة حاسمة في إبراز الوجه الإيجابى للدولة (الصهيونية) في العالم، وفى إبراز الجانب الأخلاقى لإسرائيل، وحتى وزارة الخارجية تصور التظاهرات التي تقوم بها الحركة في إعلانها في العالم، على أنها مثال للوجدانية والديمقراطية "!.

" إن ما كان (اليمين) يقوم به دوما بشكل علنى "، يقول " أورى بن أليعازر "، كان (اليسار) يقوم به فعليا "... وهذا هو الواقع حقا... الواقع الذي يؤكده المفكر

الإسرائيلي " حنان هيفكر "، حيث يرى أنه كان هناك " تواطؤًا عفويًا - بين حركات الاحتجاج المعارضة علنا للاحتلال، وسلطات الاحتلال - على الاضطهاد المستمر للفلسطينيين.. فقد احتج المحتجون بدون نتيجة، لأن الطرفين في الواقع كانا شريكين في عملية الاضطهاد، إذ لعب كل منهما دوره المتميز في لعبة القوة تلك، حتى يسيطر فيها الإسرائيليون تماما على الفلسطينيين... وكانت هناك خطوط حمراء واضحة لا يمكن (للمحتجين) تخطيها، وحرصت " حركة السلام الآن " دوما على العمل في إطار القانون، وعلى كونها جزءا من المعسكر الصهيوني، لكن هذا القانون، وهذا المعسكر هما إطارا الاضطهاد ووسيلتاه " (٤٧).

وهناك أسباب أخرى أدت إلى فشل " حركات السلم الإسرائيلية " في التحول إلى كتلة فاعلة تؤثر على صنع القرار في إسرائيل، منها - كما يشير " يورى أفنيرى " التصارع بين هذه الحركات للحصول على المساعدات المالية " التي عادة ما تؤهب إلى الناس الذين لا يستحقونها "! (٤٨).

يهود شرقيون من أجل [السلام]:

إسرائيل دولة عنصرية، لا تتمثل عنصريتها في موقفها وموقف قادتها والقوى السياسية الفاعلة فيها من الشعب الفلسطيني، والعرب عموما، وحسب، وإنما تتجسد بحاله أوضح ما تكون أيضا، وبصورة فاضحة، في موقف الفئات الحاكمة فيها - ومعظمهم من اليهود الغربيين (الأشكيناز) - من باقى فئات وقطاعات التجمع اليهودي في إسرائيل، وبالذات يهود العالم العربي، الذين عاشوا لقرون طويلة بين ظهرانينا، وتمتعوا على الأرض العربية بحقوق المواطنة والمساواة والأمان، وبشكل لم يقدر لهم أن يعايشوه في (وطنهم) المزعوم، إسرائيل، الذي عاشوا فيه

تحت وطأة الفقر والحرمان والنبذ السياسي والاجتماعي والاحتقار! (*).

لقد أدى وضع المعاناة والتفريق، وحياة " مواطنى الدرجة الثانية "، (في بلد يدَّعى الديمقراطية ويرفع شعار عدم التمييز على أساس الدين أو الجنس أو اللون) باليهود الشرقيين إلى الانحياز لواحد من موقفين متباينين:

الموقف الأول: وقد انحازت له الأغلبية من هذه النوعية، رأت في تأييدها للاتجاهات الصهيونية اليمينية (تكتل الليكود)، فرصة لتصفية الحساب التاريخى مع أحزاب " الأشكنياز " العُمّالية، التي عاملتهم باحتقار، وأشعرتهم بالدونيَّة، طوال الحقبة التي سيطرت فيها - منفردة - على مقاليد الحكم، (ثلاثة عقود تقريبا)، وقد استطاعت قيادة الليكود أن تلعب على مشاعر هذا القطاع بذكاء بالغ، وتمكّنت من الاستيلاء على أصوات أعداد كبيرة من اليهود " السفارديين "، فصعدت على أكتافهم إلى سدة الحكم، وعملت على أن تدمجهم في " ماكينة " الكراهية للعرب والعداء للشعب الفلسطيني، وتَمَثُّل قيِّم العنصرية والعدوانية السافرة، التي تطفح بها سياسات الليكود في كل يوم!.

واستمرارًا لتقاليد الاحتقار الأشكنازى للسفارديين، حالت " حركة السلام الآن " دون تطوير علاقة حقيقية مع الأغلبية اليهودية الشرقية، وركزت أنشطتها على قطاعات اليهود الأشكيناز، بل ومن الفئات الوسطى والعليا بالذات، " واستبعدت من خطابها جمهورا واسعا، العرب الفلسطينيين في إسرائيل والسفرديين (الشرقيين)، واليهود الأرثوذكس (٤٩) "، مبررةً ذلك بأنها تتحرك تبعا للدعائم

(*) في مقال بعنوان " لا أخت لى "، كتب " مناضل "، (حركة السلام الآن)، " أمنون - دنكيز " الأشكينازى، واصفا اليهود الشرقيين: " لقد تركونى في القفص مع قرد مجرم ومجنون، وقالوا لى: إنكما معا فلتتحاورا.. كيف لى أن أكلمه؟! إن حقده لا يسمح لى بذلك! " (٥٠).

الفكرية التي " تستند على أرضية صهيونية، وأنها تتوجه للنخبة اليهودية - المؤثرة في المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة " [٥١].

وكان رد فعل اليهود الشرقيين، في هذا السياق، واضحا: " طالما ظل الدفاع عن حقوق الإنسان لا يشمل حقوق اليهود الشرقيين النشطين قدر شموله لحقوق الفلسطينيين المظلومين، فإن السفارديم لن يضعوا أيديهم في يد الأشكيناز في النضال من أجل السلام، ولن تكون هناك مشاركة حقيقية ممكنة بينهما! " [٥٢].

حركة الفهود السود :

لكن هذا الموقف، في واقع الحال لا يعكس، بصورة نهائية، رفض اليهود " السفارديم " للتعاون في الصراع من أجل (السلام) داخل إسرائيل.. فلقد سبق في بداية عقد السبعينات (١٩٧١) أن ظهرت حركة نشطة وسط اليهود الشرقيين، أطلق عليها اسم " الفهود السود "، رفعت شعارات سياسية واجتماعية تدعو إلى تحقيق " المساواة " بين كافة فئات (الشعب) اليهودي، من جهة، ومن جهة أخرى نادت بالاعتراف بالحقوق السياسية للشعب الفلسطيني، ودخلت هذه الحركة في تحالفات تكتيكية مع عدد من الأحزاب (اليسارية) مثل " هعولام هاذيه "، و " شيلى " و " راكاح "، وأوصلت بعض عناصرها إلى الكنيست، كما شاركت - بالتعاون مع " حركة السلام الآن " في مظاهرة احتجاج ضد تنامى حركة الاستيطان (يناير ١٩٨٠) [٥٣]، قبل أن تتفكك صفوفها، ويتلاشى نفوذها، وتنتهى تماما، مفسحة الطريق لمجموعة أخرى من اليهود الشرقيين ذوى السمات الخاصة.

الموقف الثانى: وفيما لوحظ أن أغلب عناصر المجموعة التي انحازت لليمين من اليهود الشرقيين، كانت من الشباب محدودى التعليم والثقافة، والمولود معظمهم في

إسرائيل (من جيل الصابرا) لأسر عاشت في الوطن العربي سابقا، ومعظمهم من اليهود المغاربة، فإن قسما آخر من اليهود الشرقيين، وهم في الأغلب من يهود العراق، مثقفين ذوى ميول (يسارية)، كانوا على صلة تاريخية بالحزب الشيوعى العراقى ومحيطه. وقد رفضوا الانضواء تحت اللواء العنصرى لـ " الليكود "، كذلك استشعروا عزلتهم عن الأحزاب (اليسارية) الصهيونية، فدفعوا باتجاه إعلان مبادرات (سلامية) جديدة، جَسَّدُوها في ما أطلق عليه " **مبادرة اليهود الشرقيين الجديدة** "، المعلن عنها في منتصف عام ١٩٨٦.

واقع بائس لـ " يهود الشرق " في [الوطن] الجديد ! :

في مقدمة " إعلان المبادرات "، الكراس المعنون بـ " ولادة قوة سلام حقيقية في إسرائيل "، يرصد ناشروه واقع اليهود الشرقيين في إسرائيل اليوم، بوصفهم " طبقة اجتماعية مستغلة ومكبَّلة في المجتمع الإسرائيلي " حيث يعانون " ليس فقط من الاستغلال الاقتصادى والاجتماعى، بل كذلك من التفرقة العرقية، والتي تمس حتى الذين تمكنوا فيهم من رفع مستواهم الاقتصادى "، ويرى الإعلان - في مقدمته - أن اليهود الشرقيين " يمرون اليوم بمرحلة حاسمة من تطور وعيهم السياسى بعد جيل كامل من الضياع الأيديولوجى، ضمن مجتمع أُسس على مبدأ سيادة المثال الغربى، وهو مثال لم تستطع غالبيتهم السيطرة لا على قوانينه ولا على مضمونه " وأن هذا الوضع قد واجه اليهود الشرقيين باختيار " تاريخى ":

" بين مساندتهم للتشكيلات اليمينية العنصرية والعدوانية أو أن يجعلوا أنفسهم طليعة حاملة لمُثل العدالة الاجتماعية والتصالح مع الشعب الفلسطيني "، ويتوقع الإعلان، أن أغلبية من اليهود الشرقيين، الذين يشكلون نحو ثلثى المجتمع الإسرائيلي، سوف يلجؤون خلال الجيل القادم إلى " الاختيار التقدمى والتصالحى

"، محدثين " تبدلاً جذريًا في الساحة السياسية الإسرائيلية "، وخالقين " أملاً حقيقيًا في السلام ".

إن الشرط الأساسى لتحقيق هذه الغاية - من وجهة نظر أصحاب الإعلان - هو تعلم اليهود الشرقيون " الوسائل " التي تمكنهم من أن " يصبحوا ثانية أسياد مصيرهم ".

وبالرغم من أن هذه الجماعة التي طرحت " مبادرات، اليهود الشرقيين الجديدة: " ولادة قوة سلام حقيقية في إسرائيل " تعترف بكونها " قليلة العدد "، إلا أنها تعتقد أنها " تملك تأثيرا قويا على السكان الشرقيين، الذين ما زالوا يعيشون في الأحياء الفقيرة، وفى " مدن التنمية "، ويعانون من الأمِّية والجهل الثقافى والسياسي " (٥٤).

وتتشكل هذه الجماعة، كما يشرح الإعلان، من " شريحة " جديدة من المثقفين ومن أصحاب المهن الحرة، والنقابيين، والشخصيات الرسمية، من ذوى الأصول الشرقية، التي اختارت طريق " التقدم الاجتماعى، والنضال ضد العنصرية، والاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني "، منطلقة من الرغبة لديهم في تأكيد " هويتهم الشرقية بصفتهم يهودا ينتمون إلى العالم العربى ".

" تاريخ مشترك " : نعم .. ولكن ! :

وبعد هذه الديباجة، يعمد الكاتب / الإعلان، إلى تقديم تحليل سياسى/ تاريخى / اجتماعى، لرؤية هذا " التجمع "، أو تلك " الشريحة " على حد وصفهم لأنفسهم، لواقع العلاقات التي تربط اليهود الشرقيين بالفلسطينيين، ويمكن تلخيص - هذه الرؤية في النقاط التالية:

١ - الصورة التبسيطية، السائدة، المرسومة لليهودى الشرقى باعتباره متعطش

للدماء وعنصرى ومساند للاتجاهات اليمنية والفاشية، في مقابل صورة اليهودي الغربى، الأشكينازى، " المستنير "، الديمقراطى، المحب للسلام " صورة غير صحيحة، وتحوى مضامين خاطئة، ذلك أنه " منذ وصول أول مستوطنين صهيونيين إلى فلسطين، وحتى يومنا هذا "، فإن " كل قرارات الحرب والطرد، وانتزاع ملكية الأراضى، والقمع الذي مورس على الفلسطينيين. كل هذه الأعمال خططها وقررها اليهود الأشكيناز، وليس اليهود الشرقيين "، حيث " يسيطر الأشكيناز على كل مراكز السلطة، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين: الحكومة، والأحزاب السياسية، والنقابات، والوكالة اليهودية، والجيش، والصحافة، ووسائل الإعلام، والبنوك، والقطاعات الصناعية الكبرى ".. ووجود اليهود الشرقيون في هذه القطاعات يمثل " أقلية نادرة " وبروز بعض وجوه هذه الأقلية - مثل دافيد ليفى (الليكود)، أو شارل بيتون (الجبهة الديمقراطية)، هدفه، وهو الاستثناء الخارج عن القاعدة العامة، " أداء دور أن اليهود الشرقيين موجودين في هذه الأجهزة " [٥٥] فقط، أى " ذرًا للرماد في العيون! " كما يقول المثل العربي!.

٢ - وطوال جيل أو أكثر، فإن اليهود الشرقيين، كانوا ضحية تفرقة اجتماعية واقتصادية، يوصِّفُها الإعلان بأنها " حادة جدا " [٥٦]، وظلوا كذلك " ضحية غطرسة وازدراء الحزب العمالى الحاكم، الذي كان يعتبرهم متخلفين، صالحين للعمل اليدوي فحسب "، " وليكونوا سورًا بشريا على الحدود" !. ولقد وصفهم " بن جوريون "،مثلا، في صحيفته بأنهم " غبار من الرجال "، كما يشبههم اليوم الصحفى الشهير والعضو الهام في حركة " السلام الآن "، " أحنون دوكنر "، بالقردة! ".

وبالنسبة لليهودى الشرقى، " الذي بدأ يكتسب وعيه خلال أوائل السبعينات، بأن

سبب معاناته كان ذلك الحزب العمالى، مما جعل التصويت الضخم نسبيا لصالح الليكود سنة ١٩٧٧ "، (حزب العمل)، فإن هذه الظاهرة تدل - في جوهرها - على " رغبة اليهود الشرقيين في طرد " المعراج " المنافق لأنه يتظاهر بالاشتراكية واليسارية، في حين أنه في الحقيقة ممثل أرباب العمل والاستغلاليين ".. لكن هذا الأمر، لا يعنى اقتناع الجماهير الشرقية بنظريات الليكود " الوطنية المتطرفة "، بل " يعكس رفضهم لسيطرة المعراج "، ويدل على ذلك، أن تصويت اليهود الشرقيين الكبير لصالح الليكود عامى ١٩٧٧، ١٩٨١ " ابتدأ بالانخفاض سنة ١٩٨٤ [٥٧].

ويلمس التحليل نقطة غاية في الأهمية، إذ يرى أن ما يصفه بـ " حقد الشرقيين القوى جدا " على " المعراج "، يجعل من غير المتوقع احتمال عودتهم للتصويت لصالح الحزب العمالى [*]، كذلك فإن الذين صوَّتوا في الماضى لصالح الليكود، ثم اكتشفوا أنه ليس هناك فارقا كبيرا بينه وبين " المعراج "، لن يتوجهوا سوى لـ " الحركات السياسية الصغرى التي لا تتعامل البتة مع المعراج. " فهم لن يلتحقوا بـ " المبام " أو " راتز " أو " السلام الآن "، لقربها من " المعراج "، وإنما سيتوجهون إلى " الأحزاب الديماجوجية " مثل حزب " كهانا "، " الذي يدَّعى بأنه قد " فهم الشرقيين "، أو الأحزاب التي تطرح " إعادة تقويم " الهوية الشرقية "، مثل حزب " شاس "، وهو ما يفسر فوزه الكبير بأربعة مقاعد نيابية، في انتخابات ١٩٨٤، فور إعلان تأسيسه [٥٨].

(*) قال د. " شلومو الباز "، في ندوة " من أجل تجديد الحركة العمالية "، ١٩٨٤/١٢/٢٧:
" اليسار الصهيوني بالنسبة لـ " إسرائيل الثانية "، (اليهود الشرقيين)، عبارة عن عصابة من الأشكيناز الراضين عن أنفسهم! ".

ويلحظ التحليل أن معظم مؤيدى " كاهانا " الشرقيين، من صغار السن، المنتمين إلى أكثر العائلات فقرًا. وأغلبهم من العاطلين والجانحين والأميين، بينما معظم مؤيديه من الأشكيناز هم في غالبيتهم من المهاجرين [٥٩] الأثرياء من الولايات المتحدة، أو المهاجرين من الاتحاد السوفيتي ورجال الدين المتطرفين، وهؤلاء - كما يقول " الإعلان " - " ليسوا من المخدوعين بالحجج الديماجوجية، لكنهم يشاطرون قيادتهم آراءها وأهدافها الفاشية " [٦٠].

ويُرجع " الإعلان " ما يصفه بـ " الأفكار الديماجوجية " المناهضة للعرب، والسبب في أنها تجد لدى " الجماهير الشرقية " آذانا صاغية، إلى عدة عوامل موضوعية، أهمها:

أ - على المستوى الاقتصادى، يُمثل العمال الفلسطينيين احتياطيا لأرباب العمل الإسرائيليين، يستخدمونهم في مواقع العمال الإسرائيليين، الذين يتم طردهم أثناء الأزمات الاقتصادية، نظرًا لرخص سعر الأيدى العاملة الفلسطينية، ولهذا.. " تلقى الديماجوجية المناهضة للفلسطينيين آذانا صاغية في " مدن التنمية "، مثل " بردهام "، حيث ارتفع معدل البطالة بين السكان الشرقيين إلى حدود ٨٠% في أوائل ١٩٨٦ " [٦١].

ب - وعلى المستوى الجغرافى: تم توجيه اليهود الشرقيين منذ الخمسينات إلى مناطق الحدود، وإلى أحياء القدس الموجودة على خطوط التماس الساخنة مع العرب، وبما أن كل هذه المواقع المعزولة أو العرضة للخطر لا تحظى بحماية مجدية، فقد كانت عرضة لصواريخ ورصاص القنّاصة الفلسطينيين، أكثر من غيرها من المواقع، " مما جعل المدنيين الشرقيين يعتبرون أنفسهم الضحايا الأساسيين للعنف الفلسطيني، وهو ما يجعلهم - أكثر من غيرهم - عرضة للاقتناع بالنظريات المعادية

للفلسطينيين، التي يروج لها اليمين والأجهزة الحاكمة " [٦٢].

ج - أما على المستوى التاريخى: فيرصد الإعلان أربعة أسباب غيرت الأوضاع التي عاش فيها اليهود، في " أرض الإسلام "، خلال أجيال متتالية في " انسجام نسبى "، جعلهم لا يعانون من الاضطهادات " المعادية للسامية "، مثلما كان الحال في أوروبا، وهذه الأسباب هي:

١ - قدم الاستعمار الأوروبى لليهود في العديد من البلدان عدة امتيازات جعلت المسلمين يعتبرون اليهود خونة وعملاء.

٢ - ساهم استعمال الإسلام، في بعض البلدان، كأداة فعالة لمحاربة الاستعمار، في فصل اليهود عن بقية السكان.

٣ - أثار الاستيطان الإسرائيلي على أرض الفلسطينيين، في الشعوب العربية المساندة للشعب الفلسطيني، شعورا عدوانيا إزاء المواطنين اليهود في البلدان العربية، وانتشرت دعايات تقضى بأن المواطنين اليهود حلفاء الصهيونية الطبيعيون.

٤ - بعد انتزاع الاستقلال في بعض الدول العربية، لجأت بعض الأنظمة الرجعية إلى قمع اليهود، بحجة أن العديد من مثقفيهم التحقوا بالأحزاب الشيوعية، وخاصة في العراق ومصر، وبدرجة أدنى في أفريقيا الشمالية " [٦٣].

وبعد هذا التحليل الذي يلقى أضواء كاشفة على أوضاع " اليهود الشرقيين "، وتاريخهم في العالم العربي، ينتقل الإعلان إلى طرح ثلاث مبادرات (سلامية) هي على النحو التالي:

أ - " البرنامج السياسي " آفاق يهودية - عربية ".

ب - " بعث الجبهة الشرقية ".

ج - " اللجنة الشرقية للحوار الإسرائيلي الفلسطيني ".

أ – البرنامج السياسى لـــ " آفاق يهودية – عربية ":

تُعَرِّفُ " الآفاق اليهودية - العربية " نفسها باعتبارها جمعية تجمع حول نفسها " أولئك الذين يدعمون قضية اليهود الشرقيين في إسرائيل، عاملة على تطوير حوار حقيقى يهودى - عربى، وعلى تحقيق السلام الفلسطيني - الإسرائيلي، وهى - فيما يبدو - تنشط بشكل رئيسى، بين اليهود الشرقيين المتواجدين بفرنسا، وتقدم برنامجا من نقاط أربع:

١ - التعايش والعلاقات الأخوية اليهودية - العربية تشكل تراثا تاريخيا وثقافيا. و " الآفاق اليهودية - العربية " تدعو إلى الحفاظ على التراث، وإلى إقامة حوار جديد بين اليهود من كل الجنسيات والعرب من كل الديانات والجنسيات.

٢ - تقف الآفاق العربية - اليهودية " في وجه التمييز، الذي يمارس في إسرائيل، ضد اليهود الشرقيين، وتناضل من أجل زوال هذه التفرقة مهما كان مستواها، سياسيًا أو اقتصاديًا أو ثقافيا.

٣ - تدعم " الآفاق العربية - اليهودية " فكرة سلام إسرائيلى فلسطينى، وتركز على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطيني كممثل وحيد للشعب الفلسطيني.

٤ - وعلى الساحة الفرنسية، تدعم " الآفاق اليهودية - العربية " حق التباين لكل الطوائف المهاجرة، والمناضلة ضد العنصرية بكافة أشكالها [٦٤].

ب – إعلان " بعث الجبهة الشرقية ":

يبدأ الإعلان بآية من " سفر التكوين " تقول: " وخلق الله الإنسان على صورته "، وفى ديباجة الإعلان، يقول الموقعون عليه أنهم " يهود شرقيون، قد عقدوا العزم على تدوين هذه الآية على راية نضالهم، بهدف تطهير المجتمع الإسرائيلي من آثار الرجس العنصرى "، لأن العنصرية " بمثابة آفة تتغذى بالجهل وتنعم به، كما أنها تشوه الفكر وتقضى على المنطق، وتلطخ النفس وتحجر القلوب ".

ويقول الإعلان أن اليهود الشرقيين قد دفعوا ثمن هذا " من لحمهم ودمهم "، فقد كانوا وما زالوا " ضحايا العنصرية وفريسة للأحكام المسبقة "، ولكن رغم الحروب والبغضاء فإنهم لم يفقدوا الإيمان " بأننا وإخواننا العرب نشكل شعوبا عملت على تطوير ثقافتها هنا في الشرق "، ولذا " فإننا نتوجه بأنظارنا نحو مستقبل يسوده السلام والمساواة، والتجديد الثقافى والتقدم العلمى في إسرائيل وكل المشرق ".

وبهذه الروح، يتوجه " إعلان بعث الجبهة الشرقية "، " إلى إخواننا الشرقيين " بهدف دعوتهم للانضمام إلى الجبهة، من أجل " تنظيم تجمع شعبى واسع، حتى نرسم جميعا الطرق الرئيسية للنضال ضد العنصرية ".

وينتهى الإعلان بتوقيعات عديدة منها: فيكى شران (المتحدثة السابقة لحزب تامى)، كوخافى شيميش (عضو مؤسس لحركة الفهود السود)، يمينى بن دورور (صحافى)، حايين جانبكى باجابو(سكرتير برلمانى).. إلخ [٥٦].

ج – إعلان " اللجنة الشرقية للحوار الإسرائيلي – الفلسطيني ":

هذا الإعلان - النداء، الذي نشرته ١٣ جريدة ومجلة إسرائيلية وعربية، منها " نيو أوت لوك " و " معاريف " و " عل همشمار " و " هاآرتس " و " جيروزاليم بوست

"، و " القدس " و " الاتحاد ".. وغيرها، وقد وقع الإعلان مائة مثقف وفاعل سياسى واجتماعى، إسرائيلى، من أصول شرقية، بعضهم من الموقعين على بيان " بعث الجبهة الشرقية " مثل " يمينى بن دورور " و " فيكى شران " و " كوخافى شيميش "، وعلى رأسهم جميعا البروفيسور المشهور " ساسون سوميخ "، صاحب الترجمات والدراسات المعروفة عن أدب " نجيب محفوظ ".

ينص الإعلان على أن:

" نحن الموقعون أدناه، مجموعة من المواطنين الإسرائيليين، أبناء الطوائف الشرقية، قلقون لوضع الشعبين اليهودي والفلسطينى، فى أرضهما المشتركة، أرض إسرائيل - فلسطين.

نعترف بحقهما غير القابل للتصرف (الثابت) في العيش بسلام، كل شعب في ظل سيادته.

إنه من واجبنا الإسهام في النضال، في إسرائيل، من أجل السلام والديمقراطية. وإننا ندعو إلى:

١ - النضال الدؤوب ضد كافة أشكال التمييز القومى والطائفى (الإثنى) في إسرائيل من أجل التعايش السلمى، وقهر العنصرية التي تهدد وجودنا. وإننا نرفض بشدة التعميم اللئيم، الذي يزعم أن اليهود الشرقيين " يكرهون العرب "، خاصة وأن قيادات المعسكر القومى – الشوفينى، في إسرائيل، ليست من يهود الشرق.

وأن لليهود الشرقيين المقدرة والرغبة في بناء جسر بين العالم العربى والمجتمع الإسرائيلي، وتجديد الإبداع الثقافى المشترك الذي تعود جذوره لمئات السنين، كخطوة نحو اندماجنا في المنطقة.

٢ - النضال الدؤوب لتحقيق اتفاق سلام يضع حدا للدمار والمعاناة وسفك الدماء، وندعوا الطرفين للبدء الفورى بمفاوضات سياسية على أساس الاعتراف المتبادل بحق الشعبين في تقرير مصيرهما. فهذا الاتفاق في حالة التوصل إليه، سيضمن مستقبلا من الرخاء والازدهار لشعبنا ولشعوب المنطقة.

٣ - العمل الجاد من أجل تعزيز وتعميق الحوار بين الإسرائيليين والفلسطينيين المعنيين بتطوير وتنمية الوعي بالسلام [٦٦].

مبادرات " اليهود الشرقيين " من أجل " السلام " : نحو تقييم موضوعي :

آثرنا في السطور السابقة أن نقتطف نصوص طويلة من إعلان " مبادرات اليهود الشرقيين " حتى تكون مستندا موضوعيا يمكن الارتكان إليه في تقييم طبيعة أفكار هذه التجمعات، وتقدير إمكاناتهم وحدود قدرتهم على الفعل.

ولنا بعض الملاحظات عليها، نوجزها في التالي:

أ - تعود هذه النصوص إلى عام ١٩٨٦، أي أنه قد مضى على طرحها ما يقرب من ثلاثة عشر عامًا، ويجب النظر إليها في هذا السياق، بمعنى إنها مبادرات متقدمة، قبل خطوة المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية، في مدريد وأوسلو، وهذا عنصر إيجابى يضاف لها، لكن مُضِّى ثلاثة عشر عامًا دون أي تطوير لهذه الأفكار، أو تقدم لهذه التجمعات في تشكيل عنصر ضاغط داخل إسرائيل، أو باتجاه التحول إلى رقم فاعل في معادلات الصراع بالمنطقة يشير بوضوح إلى هشاشتها وتعثرها.. ولعل الغريب في الأمر، أن صوت هذه التجمعات قد خَفُتَ بشكلٍ كبيرٍ في سنوات عقد التسعينات، وربما يكون السبب في هذا الوضع هو استمرار وجود حزب الليكود في السلطة، الأمر الذي حَيَّدَ قطاعات متعاظمة من " يهود الشرق "

وكَبَّلَ حركة مثل هذه التجمعات (السلامية) وسطها، ولعله مما يدعم هذا التصور أن نقرأ ما جاء على لسان " أحد مثقفى (اليهود العرب)، في تفسير هذه الظاهرة:

"... المشكلة أن الجيل الجديد من اليهود، من أصول عربية، لا يعلم التاريخ الحقيقي لأجداده الذين عاشوا بكرامة وعزة في بلادهم العربية قبل قيام دولة إسرائيل، المشكلة أن إسرائيل - الدولة - نجحت في إقناعهم بأن التاريخ اليهودي الوحيد المعتبر، هو التاريخ اليهودي الأشكينازى في أوروبا، وبأنهم، اليهود من أصل عربى، وجدوا في المنطقة العربية بدون تاريخ ".

وبمعنى أكثر تحديدا، فإن الجيل القديم من يهود البلدان العربية قد انقرض أو أوشك على الانقراض، بينما الجيل الجديد لا يشعر بانتمائه لهذه البقعة من العالم، وإنما يعتبر نفسه غريبا عنها أو بلا جذور، ومن كان هذا حاله فلا يمكن أن يُعَوَّلَ على دعمه.

ب - تنطلق أغلب هذه المبادرات من " مواقع أخلاقية " الأخوة اليهودية - العربية ".. إلخ، متجاهلة الأهم والأكثر عمقا، دون أن تمسه بكلمة أو تشير إليه باتهام، وهو جوهر الفكر الصهيوني التوسعي العدواني الاستيطاني، فلا يكفى إدانة بعض نتائج هذا الجوهر - كالعنصرية - حتى نبرئ أنفسنا من هذا الأمر، ولا يكفى التعاون في النضال ضد المظاهر الثانوية، والأعراض الجانبية، دون مواجهة السرطان الرئيسي الذي ينهش في الجسد العربي، وهو الصهيونية.

ج - تنهض هذه المبادرات - نتيجة لما أشرنا إليه سابقا - من واقع أن دولة إسرائيل القوية باقية، دون أدنى تحديد لحدودها النهائية، أو الموقف من الأراضي العربية المحتلة، أو كيفية حل القضية الفلسطينية، فالحديث عن " الأرض المشتركة "

للفلسطينيين، واليهود، لا يعنى - في ظل موازين القوى الحالية وشروط التسوية الراهنة - أكثر مما هو حادث الآن.. كما تتجاهل إعلانات هذه " المبادرات "، الإشارة - بأي صورة من الصور - إلى ترسانة الدمار الشامل التي تملكها إسرائيل - وفى مقدمتها الأسلحة النووية - الأمر الذي يقطع بأن أي تسوية مقترحة ستكون تحت الهيمنة المطلقة لإسرائيل.

د - يتحدث الإعلان عن " الأخوة التاريخية " بين الشعبين " العربي "، " واليهودي ". وفى هذا الوضع مغالطة كبرى.

فلم يكن اليهود في أي لحظة تاريخية، أثناء حياتهم في الوطن العربي، شعبا مستقلا محدد الملامح، وإنما كانوا طائفة أو تجمعا دينيا منتشرا في أنحاء العالم العربي، فهناك اليهودي اليمني، أو المغربي، أو العراقي، أو المصري.. إلخ، وقد عاشت كل طائفة في محيطها، واندمجت بحيائه، وتأثرت ببيئته وثقافتها، والإيحاء بأنهم - على مر التاريخ - كانوا شعبا منفصلاً، مميزاً، داخل (المنطقة) أمرٌ منافٍ للحقيقة، عارٍ من الصحة، وله دلالاته السياسية غير الخافية.

ويرتبط بهذا الأمر أن هذه المبادرات، على صحة الكثير مما تضمنت، لم تُشر ولا مرة واحدة، إلى " الوطن العربي " باعتباره كتلة بشرية حضارية تاريخية مترابطة، وإنما كان الحديث يتم دوما عن " المنطقة "، باعتبارها " أفقا " بديلا.

هـ - لم تُشر هذه المبادرات، بأي صورة من الصور، إلى طبيعة ودور إسرائيل العدواني في العالم العربي، ولا ارتباطها التاريخي بالاستعمار الغربي وأساسا البريطاني، ولا دورها ككلب حراسة للمصالح الإمبريالية - وبالذات الأمريكية - في وطننا، ولا للعلاقة الخاصة التي تربطها بالولايات المتحدة الأمريكية،

وخصوصا في إطار " التحالف الاستراتيجى " الذي كان قد أعلن عنه آنذاك.

" يهود الشرق " : دور مشكوك فيه ! :

هذه الملاحظات لا تقلل من القيمة الموضوعية لأهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه " اليهود الشرقيون " في تحديد مستقبل الدولة الصهيونية، وطبيعة العلاقة مع العرب.

غير أنه من الواضح - بعد مرور هذا الوقت الطويل - (نحو ١٣ عاما) حتى الآن، أن حركة " اليهود الشرقيين " المعارضة لجموع المتطرفين الإسرائيليين العنصريين، سواء كانوا من حزب العمل أو الليكود، أضعف من أن يُعَوَّلَ عليها، أو يُستند إليها، في تقرير سياسات استراتيجية تتعلق بصراع المصير الدامي الدائر على أرض وطننا، في مواجهة الاستيطان والعدوان وتصعيد التوتر، والتهديد الإسرائيلي الدائم بالحرب، ليس هذا وحسب، بل يبدو أن عكس ذلك هو ما يحدث على طول الخط في أرض الواقع، فالاتجاهات اليمينية والعنصرية والمتطرفة استطاعت أن تستقطب الأجيال الجديدة من " اليهود الشرق "، وانهارت كل مبادراتهم وتبددت آثارها، في مناخ المنطقة الملتهبة، التي تندفع بقوة - لا يمكن السيطرة عليها - وبفعل تطرف وعنصرية الدولة الصهيونية، نحو الهاوية.

مستقبل العلاقة مع " حركة السلام الإسرائيلية " :

" سلام الحثالة ".. لا " سلام العدل والحرية ":

حاولنا في الدراسة السابقة أن نتتبع، بتفصيل نسبى، ظاهرة " حركة السلام الإسرائيلية "، وأطروحاتها، وتبايناتها، وتاريخها، وبرنامج نشاطها السياسي، وتناقضاتها، ومواقفها الاستراتيجية والتكتيكية، حتى يمكننا صياغة " نظرية " صحيحة لتقييم عملها، وتحديد الأسلوب الأمثل للتعاطي معها، وللرد - أيضا - على

ادعاءات ومزاعم (دعاة السلام)، المصريين والعرب، الذين يروجون لهذه الحركة، باعتبارها نقطة تحول استراتيجي في الصراع العربي – الصهيوني (لصالح " السلام " المتوهم)، أو عنصر تطور نوعى في تاريخي القضية.

فوضي واتهامات ! :

يصف " يورى أفنيرى " وضع " حركات السلام الإسرائيلية " الآن، بأنه يشكل " حالة من الفوضى " بينما تتصاعد الاتهامات بين أطرافها، فتتهم " حركة السلام الآن "، " كتلة السلام "، بأنها " حركة غير واقعية وغير مؤثرة "، وتستخدم " تهمة " ضد الصهيونية " الخطيرة، لكي تضعضع بنيان هذه الكتلة، في حين تشن " كتلة السلام " حملة على " حركة السلام الآن " متهمة إياها بالاعتدال والتحفظ، وتنتقد حركة " كل الجيل يريد السلام " باعتبارها تقوم بعمل " لا يؤدى إلى نتيجة "، ولا يحتاج الأمر لمزيد من توضيح، لإدراك مدى التأثيرات السلبية التي تنجم عن التراشق بالتهم بين الفئات (السلامية) الإسرائيلية، وانعكاسات ذلك على وضعها وقدراتها العملية.

حقيقة " الحمائم " و " أنبياء السلام " الكذبة! :

وفى الوقت الذي تتصاعد فيه ممارسات اليمين العنصري بزعامة " بنيامين نتنياهو " وأركان حزب " الليكود "، يغيب تماما صوت (دعاة السلام) الإسرائيليون، وإذا حضروا فلكي يكرروا - مع تباين طفيف في الشكل - نفس ادعاءات ومواقف اليمين.. ولننظر إلى رأى " د. إدوارد سعيد " في واحد من رموز " حركة السلام " الإسرائيلية الشهيرة. يقول " د. سعيد " أن " المتحمسين لكوبنهاجن " وعملية السلام يحتفون كثيرًا بأشخاص مثل " يوسى بيلين " الذي أعتُبِرَ دوما من " الحمائم " وحليفا. للفلسطينيين!.. لكنني بعدما سمعته السنة

الماضية، في " واشنطن "، يدافع عن مجزرة " قانا "، لست من المقتنعين بهذا الرأى.

ويشر " إدوارد سعيد " إلى الاتفاق الذي عقده داعية (السلام)، " يوسى بيلين " مع ممثل " لليكود " في الكنيست وينص على عدم إزالة المستوطنات وعدم العودة إلى حدود ١٩٦٧، وعدم قيام الدولة الفلسطينية (بل مجرد كيان منزوع السلاح)، وبقاء وادى الأردن ضمن المنطقة الأمنية الإسرائيلية، وتحدث بيلين عن ذلك في صحيفة " هاآرتس "، في ٢٨ هارس ١٩٩٧، عندما توقع قيام " كيان فلسطيني "، منزوع السلاح، بسيادة محدودة، مقابل القدس الموحدة بكاملها "!!.. بل كان أكثر وضوحا في مناظرة تلفزيونية، بُثَّت في ١٧ مارس ١٩٩٧: " أنا من المؤيدين للبناء في كل مكان من القدس، بما في ذلك إقامة " هارحوما "، لأن هذا من حقنا.. لكنها مسألة توقيت تكتيكى.. لقد قمنا (حكومة إسحاق رابين) بتوسيع المستوطنات بنسبة ٥٠% وبأعمال البناء في " يهودا والسامرة "، لكننا تصرفنا بهدوء وحكمة.

أما أنتم (حكومة نتنياهو)، فإنكم تعلنون نياتكم كل صباح، وتخيفون الفلسطينيين، وتحولون القدس، كعاصمة موحدة لإسرائيل - وهو ما يتفق عليه كل الإسرائيليين - إلى موضوع للجدل على الصعيد العالمى. الأمر الرئيسي هو الحصول على قبول الفلسطينيين بأن القدس عاصمة إسرائيل.

مرة ثانية: غايات الدعاة المزيفون للسلام في إسرائيل، الأنبياء الكذبة الجدد، هي ذات غايات اليمين العنصري الفاشي، لكن الفرق هو في الإخراج، في الترويج، في الشكل لا المضمون!!.

... و " عمى أخلاقي :

وها هي " هيلينا كوبان "، الكاتبة البريطانية، قد وضعت يدها على الجرح: " العَمى الأخلاقي " الذي أصاب عناصر " حركة السلام " الإسرائيلية فجعل الحاجة إلى السلام، بالنسبة لهم، " تقتصر على مصالح إسرائيل، فيما لا يعتبرون الطرف الآخر أخًا في الإنسانية، له مصالحه وتطلعاته التي لا تقل شرعية عن مصالح إسرائيل وتطلعاتها! [٦٨].

وهذا " العَمى الأخلاقي "، في واقع الحال، هو خلاصة المفاهيم الأيديولوجية العميقة الكامنة في بنية الفكر الصهيوني، والتي تبرر الغزو والاحتلال والقمع والإرهاب، والتي بدون التخلص - نهائيا - منها، لن يكون هناك من يملك الجرأة لكي يزعم أنه من (أنصار السلام) وستظل حركة أنصار السلام: الآن، أو غدا، تخبو وتضمحل وتتلاشى.. مثلما هو الواقع، في هذه الآونة، إذ بينما يبدو خطر الحرب محلقا في سماوات المنطقة، لا نسمع حسا، ولا نرى حركة لـ " حركة السلام الإسرائيلية "... " إنها لم تعد موجود تقريبا "، كما يقول أحد المراقبين " مع أن " الحرب قاب قوسين أو أدنى، والأعمى وحده لا يرى هذا الخطر "، على حد تعبير زعيم حزب العمل، " أيهود باراك " [٦٩].

وفيما يهدد " نتنياهو " بأن جيش إسرائيل " لن يقف مكتوف الأيدي " [٧٠] في مواجهة تطوير إيران لصواريخ باليستية، مؤكدا، دون لبس، على أن إعلان ياسر عرفات للدولة الفلسطينية [فيما لو صدق في تهديداته، في مايو ١٩٩٩]، سيعقبه اجتياح صهيوني عسكري للضفة الغربية، يصرخ أحد الصحفيين: " يُشَكِّلُ هذا المستقبل المظلم، " مادة يومية " في وسائل الإعلام، فما هو رد فعل العامة؟! لا شيء إطلاقا.. كما لو أن الأمر يتعلق بتغيرات الطقس!! " [٧١].

الركل في " المؤخرة !! " :

لا " العامة " معنيين بدعاوى (السلام) أو مهتمين باحتمالات الحرب.

ولا " الخاصة " قادرين على الحركة أو راغبين فيها!

" نتنياهو "، وحزبه، وتحالفه مع القوى الدينية المتطرفة، وحركة المستوطنات الفاشية، يمضى قدما..

و " آريئيل شارون "، سفاح لبنان.. يتقدم، بيديه اللتان تقطران دمًا، إلى الصدارة!!، فيما يشبه استعادة تاريخية لواقعة رواها " ناحوم جولدمان "، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية السابق، في كتابه " بورتريه يهودي ".

يقول " جولدمان " : أن بعد نجاح مساعيه في تحقيق المصالحة الألمانية اليهودية في عام ١٩٥٤، عرض على " ديفيد بن جوريون "، [الصهيوني اليساري المزعوم!]، رئيس الحكومة الإسرائيلية في ذلك الوقت، القيام بمساعي مماثلة لدى " جمال عبد الناصر "، لتحقيق المصالحة العربية الإسرائيلية.

لكن " بن جوريون "، رفض قائلا ما فحواه: " العرب ما زالوا لم ينضجوا بعد للسلام [أي لم يركعوا ويستسلموا بما فيه الكفاية!].. ولا ينفع معهم إلا الركل في المؤخرة "، أي (الضرب بالشلوت!!) [٧٢].

هذا هو منطق الصهيونية الاستعلائي العنصري، الذي لا يرى في أهل البلاد الأصليين إلا عبيدا، لا سبيل للتعامل معهم إلا بالركل في المؤخرة، على حد تعبير " بن جوريون "، (اليساري المزعوم).. أو بحشرهم " ليأكلوا بعضهم بعضا "

كالخنافس السامة المحشورة في زجاجات! " (*) مثلما يصفهم " رفائيل إيتان " [٧٣].

ففي القضايا الكبرى للدولة الصهيونية: " الكل في واحد ".. لا يمين ولا يسار، بل عناصر عدوانية شديدة الشراسة، تكشف عن نواياها وتكشر عن أنيابها، مهما كان المعسكر الذي تنتمي إليه، أو الفكر الذي تزعم الانتساب له، وأيا كان الوضع العربي، وكيفما كانت طبيعة الظروف والأنظمة الحاكمة والمزاج الجماهيري العام، وإلا.. فلماذا كما يقول الكاتب الفلسطيني " نظير مجلى ":

عندما أصبحت كل الحكومات العربية حركات سلام مع إسرائيل... غابت حركات السلام الإسرائيلية عن الساحة تقريبا!! " [٧٤].

" طعم " السلام ! :

لقد ابتلع العرب، والفلسطينيين في مقدمتهم، طُعم (السلام) المسمم، لكن الإسرائيليين كانوا مقتنعين بأنه " أداة تكتيكية " ذكية لا ضرر منها ولا خسارة، وفى ظل رايات السلام الوهمي، تم فرض " أمر واقع شديد الخطورة على الأرض الفلسطينية المحتلة، تمثل في مضاعفة سرعة عملية الاستيطان الصهيوني المحموم التي أبادت المعالم وغيرت الجغرافيا، وبَدَّلت مظاهر الحياة، وفرضت مُتغيرا " ديموجرافيا " جديدا في المناطق الاستراتيجية، وبالذات في مدينة " القدس "، التي كشفت شبكة " C.N.N " الإخبارية الأمريكية مؤخرا، أن نسبة السكان اليهود في القسم الشرقي منها، كان لدى احتلال إسرائيل لها في حرب ١٩٦٧، صفرا، إلا أن

(*) ويكمل الصورة الحاخام الفاشي، " مائير كاهانا " : " لا أحد يستطيع أن يفهم هذه البهائم والصراصير العربية، فإما أن تُقطع حناجرهم أو نطردهم!.. أما " مناحم بيجن "، فهو القائل - خلال حصار بيروت (١٩٨٢/٧/٧): " لن يهاجم أي حيوان بقدمين (يقصد العرب!) أي طفل يهودي! (أنظر: مبادرات اليهود الشرقيين الجديدة، " ص: ٤٧).

هذه النسبة ارتفعت إلى ٤٠% في الوقت الراهن (*)!.

وقد أدى هذا الوضع إلى أن أصبحت نسبة اليهود في مجمل مدينة القدس بشقيها، الغربية والشرقية، ٧٠%، في حين تضاءلت نسبة السكان العرب إلى ٣٠% فقط!! (٧٥).

وفى نفس الوقت أشار استطلاع للرأي نشرته جريدة " معاريف " الصهيونية إلى أن نحو ثلثي الإسرائيليين " يؤيدون طرد الفلسطينيين إلى الدول العربية، إذا كانت إسرائيل لا تتعرض - بسبب ذلك - إلى إدانة دولية!! " (٧٦).

وقد رَحَّبَ " رحبعام زئيفي "، زعيم حزب " موليديت " الفاشى، وصاحب فلسفة " الترانسفير " (طرد الفلسطينيين) بنتائج الاستفتاء.

وقال: " لقد أدرك الإسرائيليون أن من المستحيل العيش بسلام في دولة ذات قوميتين، وأن الحل الوحيد هو الفصل بينهما (.... بين العرب واليهود)، أي الترحيل!! " (٧٧).

جريمة " المسالمين " العرب ! :

وإلى أن يتم هذا الأمر المبَيَّت له، يتزايد الحصار المضروب على الشعب الفلسطيني في مناطق الحكم الذاتي، التي تحولت إلى سجن كبير بلا نهاية ولا أمل، وحيث تحول الفلسطينيون، في ظله، إلى " أسرى حرب لدى إسرائيل " على حد وصف " نعوم تشومسكي "، ويضرب نتنياهو - في ظل الصمت والتواطؤ من (اليسار)، و غض طرف (دعاة السلام)، يوميا، بكل القيم والمواثيق والاتفاقيات، عرض الحائط، فيما لا يملك عرب " الصلح " و (السلام)، الضالعون في عملية

(*) تضاعفت هذه النسبة، بالطبع، لدى نشر الطبعة الثانية من هذا الكتاب!.

التسوية، سوى انتظار " رصاصة الرحمة " لإعلان وفاة السلام!!.

وفى هذه ظل الوضعية البائسة، فإن دور رجال الأعمال والسياسيين المثقفين المصريين والعرب، الذين يُرَوِّجُون لما يُسمى بـ " ثقافة السلام "، ويتاجرون بجمعيات " الصداقة " مع إسرائيل، ويجترئون على تجاوز الإرادة الشعبية بإدانة " التطبيع " مع العدو الصهيوني، يرتكبون جريمة كبرى في حق وطنهم ومصالحه، ولا يخدمون سوى المصالح والسياسات العنصرية للدولة الصهيونية.

" **التجربة** ".. **والخطأ** ! :

إن " فيصل الحوراني "، الكاتب الفلسطيني، الذي يُعَرِّفُ نفسه باعتباره: " صاحب تجربة تنوعت فشملت اتصالات، مباشرة وأخرى غير مباشرة، شخصية ورسمية، فردية وجماعية، مع إسرائيليين من أطياف سياسية وثقافية شتى "، قد تنبه إلى هذا المنزلق الخطر، وقدم حصاد تجربته لكى يستفيد منها الآخرون، وهذا هو مضمونها: " إن مؤيدى حزب " العمل " أو حزب " الليكود "، من المثقفين الإسرائيليين، لا يشغلهم هاجس " التطبيع " مع المثقفين الفلسطينيين والعرب الآخرين، إلا بمقدار ما يسهم " التطبيع " في حمل الطرف الفلسطيني (والعرب الآخرين: ملحوظة شخصية) على تقديم مزيد من التنازلات، وتحرير الطرف الإسرائيلي من الحرج، ومنتقدو الحكومات، هؤلاء الذين يتحسسون مضار التعنت الإسرائيلي، معنيون في المقام الأول بتوسيع الاتصالات مع المؤثرين في الرأي العام العربي، بأمل الاتفاق معهم على تسويات توازى التسويات التي تمليها إسرائيل، وفى المحصلة يلتقى الفريقان الإسرائيليان في مجال الضغط على الطرف أو الأطراف العربية، والفارق أن أحد الطرفين يعمد إلى استخدام وسائل ضغط فظة، فيما يتوخى الآخر الضغط بوسائل لائقة " (٧٨).

انتهى كلام " فيصل حوراني " الذي لا يحتاج لأدنى تعليق!

خاتمة :

تشكلت " حركة السلام الإسرائيلية " كرد فعل للتطورات المتصاعدة، والأحداث، والوقائع المتواترة، على ساحة الصراع بين العرب الذين (لازالوا، مهما كان حجم التحديات والمخاطر والإغراءات والتسويات) يرفضون في مجملهم، الوجود الصهيوني الاستيطاني على أرضهم، وبين الصهيونية التي نجحت في انتزاع الدولة، لكنها فشلت - بعد قرن من بداية المشروع، وخمسين عاما من تأسيس الدولة - في انتزاع خضوع شعب فلسطين لإرادتها، أو قبول الجماهير العربية بوجودها.

وقد مرت حركات السلام في إسرائيل، وفي مقدمتها ما سمى بـ " حركة السلام الآن "، بثلاث ذرىً أساسية في مسارها:

الأولى: خلال الفترة ١٩٧٨ - ١٩٧٩، بعد زيارة السادات للقدس المحتلة، وفي مناخ توقيع اتفاقيات " الصلح " مع النظام المصري.

والثانية: خلال عامي ١٩٨٢ - ١٩٨٣، بتقدم أنشطة الاحتجاج على الغزو الصهيوني - بالقوة المسلحة - للبنان، واحتلالها موقع الصدارة.

والثالثة: خلال عامي ١٩٨٨ - ١٩٨٩، مع بدايات الدعوة للاعتراف بـ " حق تقرير

المصير " للفلسطينيين، والتقدم في مسار التسوية الإسرائيلية - العربية، التي انتهت بتوقيع " اتفاقية أوسلو " بين إسرائيل و " م. ت. ف ".

ثم خَفُتَ صوت حركات السلام الإسرائيلية، حتى كاد أن يندثر، بعد عشر سنوات من آخر ذرى نشاطها.

وفى كل هذه المراحل، فقد حملت حركات السلام الإسرائيلية، وبالذات " حركة السلام الآن "، بذور أزمتها، تَمثَّلَ ذلك في " مشاكل بنيوية " عديدة، أبرزها، على حد توصيف " دان ليون "،: " تركيبة قيادتها ومؤيديها، الذين يتألفون - بدرجة أساسية من الأشكيناز، والفئة الوسطى، وفشلها - إجمالا -. في اجتذاب اليهود الشرقيين والقطاعات المحرومة اقتصاديا من السكان، من البلدات الجديدة، أو من القطاعات الأكثر فقرا في المدن الكبيرة، بالإضافة إلى المهاجرين من الاتحاد السوفيتي السابق " (٧٩).

لقد منعتها هذه الأوضاع الحاكمة من الخروج إلى رحابة العمل الجماهيري الواسع، فظلت سجينة " جيتو النخبة "، وحالت دون تجذرها في الواقع، بحيث ظلت، حسبما قال أحد مؤسسيها، " تسالى ريشيف "، مجرد " مزاج وليست حركة " (٨٠)، هذا المزاج الذي يفتقد في الوقت الحاضر - على حد تعبير " دان ليون " - " الثقة والروحية الكفاحية اللتين مكنتاها - في السابق - من استقطاب مئات آلاف الأشخاص، وتحفيزهم للنزول إلى الشارع " (٨١).

ويضيف " ليون " أنه بالرغم من كون " خطر تفجر أعمال عنف وحرب جديدة لم يختف، وعلى رغم تدنى صدقية " نتنياهو " داخل إسرائيل وخارجها، فإنه يحتفظ بسيطرته كرئيس وزراء منتخب على رأس حكومة يمينية - دينية، تمضى قُدما في إزالة كل آمال السلام ".. فإنه لا يوجد ما يشير إلى دور لحركة السلام، ويقدم

محاولة لتفسير أسباب " المأزق " الذي تعانيه الحركة حاليًا في عجز حزب العمل، وزعيمه الجديد، " أيهود باراك " عن تقديم " بديل سياسي " ممكن للنظام الحالي.. " فإذا كان زعيم المعارضة يتعهد أيضا، في سياق ما يبديه من رغبة في إرضاء الجميع، أن يحتفظ بكل المستوطنات تقريبا.. يُطرح إذن السؤال: لماذا ينبغي للمرء أن يلجأ إلى التغيير في منتصف الطريق، إذا كان الطرفان متماثلين إلى هذا الحد!!؟ " (٨٢).

وهو ما يعنى، باختصار، أن أغلب ألوان الطيف في الأحزاب السياسية الإسرائيلية متشابهة، ولا يختلف يمينها عن (يسارها)، إلا في مرونة التكتيكات، مع ثبات الاستراتيجية.

سلام " حثالة " !! :

أما يهود العرب "، أو " اليهود الشرقيين " أو " اليهود السفارديم " فالواقع يثبت للأسف - عجزهم عن التبلور في تيار سياسي حقيقي، قادر، ومؤثر يكون أساسا لـ " حركة سلام " حقيقة، ترفض الصهيونية، وهيمنتها، وتعمل على تغيير البنية العنصرية العدوانية الفاشية للدولة الإسرائيلية، وتتبنى خطة منهجية لنزع أسلحة الدمار الشامل، وتفتح السبل أمام حل موضوعي، نهائي، للصراع، لا " تسويات " مؤقتة، تحمل في جوهرها بذور التفجر، وأسباب الانقلاب عليها.. وتهيئ الوضع لبناء سلام حقيقي يكون مدخل لازدهار الوطن، بكل طوائفه ومعتقداته، بما فيها اليهودية والمنتمين إليها، كدين، لا كأيديولوجية سياسية عنصرية كما تجسدها " الصهيونية ".

السلام حلم " جميل "..

أما (السلام) الآن!! فمجرد وهم، وزعم، وبضاعة فاسدة!

على حائط كبير، في فيلم تسجيلي عُرض مساء يوم ١٩٩٨/٩/٢٩، في التليفزيون الإسرائيلي، ظهرت الجملة التالية، مكتوبة بخط عريض ضخم:

" إنه سلام حثالة!! ".

" سلام حثالة ".. نعم.

وليس كما نحلم جميعا.. بسلام للعدل والحرية!..

هوامش الفصل الثاني

(١) جريدة الأهرام، ١٩٩٤/١١/١٢.

(٢) د. إيمان حمدي، " معسكر السلام الصهيوني: اتجاهات الثنائية القومية والتقسيم في الحياة السياسية الإسرائيلية (١٩٢٥ - ١٩٩٦) "، معهد الدراسات والبحوث العربية، القاهرة، ١٩٧٠، ص: ١٦٤.

(٣) ليلى سليم القاضى، " المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية، (ماتسبن) "، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، تموز (يوليو) ١٩٧١، ص ٣٠.

(٤) آدم كلر، " الأيام الرهيبة: الانقسامات الاجتماعية والمفارقات السياسية داخل الكيان الصهيوني "، دار الحمراء للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩١، ص:١٣٧.

(٥) المصدر نفسه، ص: ١٤٠.

(٦) المصدر نفسه، ص: ١٤١.

(٧) المصدر نفسه

(٨) المصدر نفسه، ص: ١٤٢.

(٩) الصدر نفسه، ص: ١٤٤.

(١٠) الصدر نفسه، ص: ١٤٨ - ١٤٩.

(١١) المصدر نفسه، ص: ١٦١.

(١٢) المصدر نفسه، ص: ١٦٩.

(١٣) المصدر نفسه، ص: ١٥٤.

(١٤) المصدر نفسه، ص: ١٥٢.

(١٥) المصدر نفسه، ص:١٥٦.

(١٦) المصدر نفسه، ص:١٥٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص: ١٥٤.

(١٨) المصدر نفسه

(١٩) جعفر هادي حسن، " عوامل سياسية وإعلامية وراء تهميش منظمات السلام (في إسرائيل) "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٦/١٣.

(٢٠) دان ليون، " حركة السلام الإسرائيلي: نقاط البداية والتنوع.. والمأزق الراهن "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٦/١٣.

(٢١) آدم كلر، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤.

(22)Amos Oz Israel, palestine and peace ; Essays, Landon Vintage Books, 1994, p. 124.

مذكورة في " إيمان حمدي "، مصدر سبق ذكره، ص: ١٧٨.

(٢٣) إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨.

(٢٤) الإذاعة الإسرائيلية، ١٩٩٨/٩/١٤.

(٢٥) جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٩/١٥.

(٢٦) آدم كلر، مصدر سبق ذكره، ص: ١٤٥.

(٢٧) إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره، ص: ١٦٦، ١٦٧.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٦٧.

(29) Peace now," ,Newoutlook, Nov - Dec 1980,
"p. 52. Ideological workshop

مذكورة في إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره ص ١٨٣.

(30) Mourice Shutamit Aloni, " Because of that Kiss" , Yadiot – Goldberg, Bartura, (London(, vintage Books, 1991, pp - 220 - 221.

مذكورة في إيمان حمدي مصدر سبق ذكره.

(٣١) – (٣٢) – (٣٣) – (٣٤)، المصدر نفسه.

(35) Amos of, " To stopping Dying and start living" , New
(oytlook, Nov - Dec 1991, p.11.

(٣٦) جريدة " عل همشمار " الإسرائيلية، ١٩٩٤/٥/٢٠.

(37) Amos of " From battles to Bridges" , the

Jerusalem post " 3/9/1993.

(38) Yehoshaft harleabi, " Israel's Fateful Hour" , New york rarper and Row publishers, 1988, p. 197.

- مذكورة في إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره.

(39) Edy Kaufman, " The Intifada and the peace Camp in Israel, American prespective " Journal of palertinian studies, vol: 17 – 4,Summer 1988, Issue 68, p 76.

- المصدر السابق.

(٤٠) انظر إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره، ص: ١٧٩ - ١٨١.

- مذكورة في إيمان حمدي، المصدر نفسه.

(٤١) إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره، ص:١٩٣.

(٤٢) إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره.

(٤٣) إدوارد سعيد، " تاريخ قديم.. ديمقراطية جديدة "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٢٦/٥.

(٤٤) ملحق جريدة " هاآرتس " الإسرائيلية، ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٥.

(٤٥) المصدر نفسه.

(٤٦) يهودا كونبل، فى " حوار شريموت ونيكودا "، شريموت، العدد ١٢٦/ ٢ (١٩٩٤) ص: ٧ - ١٤، أزرييل أرييل: " هل كانت طريقة أجودا صحيحة "؟!

مجلة " نيكودا "، العدد ١٧٥ (١٩٤٤)، ويورى إليزار: " عن الخطيئة التى لم نرتكبها "، نيكودا، العدد ١٨٠ (١٩٩٤)، ص: ٢٥.

مذكورة فى: ليلى ويبسبرود، " الهوية الإسرائيلية تمر بمرحلة انتقال ".

ISRAEL AFFAIRS, vol. No. 374, Spring/ Summer 1997.

(٤٧) مذكورة في: هيلينا كوبان، " مرة ثانية ".. رسالة إلى أصدقائي في معسكر السلام الآن جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٦/١٨.

(٤٨) جعفر حسن " عوامل سياسية وإعلامية وراء تهميش منظمات السلام "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٦/١٣.

(٤٩) إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.

(٥٠) " مبادرات اليهود الشرقيين " الجديدة: ولادة قوة سلام حقيقية في إسرائيل "، مطبوع صادر في باريس، تموز (يوليو) ١٩٨٦، بدون دار نشر، ص: ٤٧.

(٥١) إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره، ص: ١٩٨.

(52) Victor cygielman, " unansuered Questions, Refle - ctions on the Tikkun Confereuce" , Newoutlook, june - july - August, 1991, p. 12.

(٥٣) إيمان حمدي، مصدر سبق ذكره، ص: ٢٠٠ : ٢٠٤.

(٥٤) " مبادرات اليهود الشرقيين الجديدة "، مصدر سبق ذكره، ص: ٥، ٦.

(٥٥) المصدر نفسه، ص:٧.

(٥٦) المصدر نفسه، ص: ٨.

(٥٧) المصدر نفسه.

(٥٨) المصدر نفسه، ص: ٩.

(٥٩) المصدر نفسه.

(٦١) المصدر نفسه، ص: ١٠.

(٦٢) المصدر نفسه.

(٦٣) المصدر نفسه، ص: ١١.

(٦٤) المصدر نفسه، ص: ١٧.

(٦٥) المصدر نفسه، ص: ٢٢.

(٦٦) المصدر نفسه، ص: ١٩.

(٦٧) إدوارد سعيد، " مثقفو كوبنهاجن.. ونقاش مستمر "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٧/٥/٧.

(٦٨) أوري سافير، " إعادة قراءة تاريخ "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٦/٢٦.

(٦٩) جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٩/١٥.

(٧٠) جريدة " الأهرام "، القاهرة، ١٩٩٨/٩/٢٨.

(٧١) " تقرير عن حركات السلام الإسرائيلية "، مترجم عن الفرنسية فى مجلة " معلومات دولية "، مركز المعلومات القومي في الجمهورية العربية السورية، السنة

السادسة، العدد ٥٧، صيف ١٩٩٨،

ص: ٢١٥ - ٢١٩.

(٧٢) مذكورة فى: الصالح بوليد، " ما التفسير العقلاني لموقف حكام إسرائيل من السلام العربي الإسرائيلي؟! "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٤/٢٥.

(٧٣) محمود صميدة، " استراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب "، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر، أبو ظبي، ص: ٤، ٥.

(٧٤) مجلة " اليسار "، القاهرة، العدد ١٠٢، أغسطس ١٩٩٨.

(٧٥) جريدة " الأهرام "، القاهرة، ١٩٩٨/٩/٢١.

(٧٦) جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٩/٢.

(٧٧) المصدر نفسه.

(٧٨) فيصل حوراني، " وجهة نظر في مسألة الحوار مع إسرائيليين "، جريدة " الحياة ": لندن، ١٩٩٨/٩/٩.

(٧٩) دان ليون، " حركة السلام الإسرائيلية: نقاط البداية والتنوع.. والمأزق الراهن "، جريد " الحياة "، لندن، ١٩٩٨/٩/٨.

(٨٠) المصدر نفسه.

(٨١) المصدر نفسه.

(٨٢) المصدر نفسه.

* * *

الفصل الثالث : أكذوبة حركة السلام الإسرائيلية

الفصل الثالث

أكذوبة حركة السلام الإسرائيلية

الفصل الثالث:أكذوبة حركة السلام الإسرائيلية

مناقشة لمقالات " أسامة خالد " في جريدة " الأخبار " القاهرية :

شهدت مصر في الآونة الأخيرة ـ جدلا محتدما، شغل الأوساط السياسية والثقافية في الداخل والخارج، حول قضية جد خطيرة.. هي قضية العلاقات المصرية الإسرائيلية على المستوى الشعبي، أو ما اصطلح على تسميته بـ " قضية التطبيع ".

وهى مسألة خطيرة، لأنها في واقع الحال تمثل لب قضية الصراع العربي الإسرائيلي وجوهره الصافي، فالمشروع الصهيوني، الذي زُرع قسرا في منطقتنا، ينبني، في جانب أساسي من جوانبه، على غاية استراتيجية أساسية، تتمثل في فرضه كأمر واقع يصعب اقتلاعه من الأرض الفلسطينية العربية المغتصبة التي أنشئ عليها، والأمر الواقع هذا يحتاج حتى يثبت وجوده، لإقرار صريح وواضح من أصحاب الأرض الشرعيين من الفلسطينيين والعرب، والمصريين في مقدمتهم، بقبول كلي وجزئي بهذا الوضع، واعتراف نهائي بعدم ممانعتهم في بقائه وسطهم، بشروطه ووفق رؤاه وحسب برنامجه هو.. وقد قدمت الحكومات العربية تعهدا بهذه الموافقة، عبر سلسلة من اتفاقات التسوية المنفردة بين الدولة الصهيونية وبعض الدول العربية (كل على حده) لكن إسرائيل تدرك ـ وقد عَبَّرَ سياسيوها في أكثر من مناسبة ـ أن هذه الاتفاقات لا تحمل في ذاتها قيمة أكثر من قيمة الورقة المكتوبة عليها، وأنه بدون " توريط " الشعوب في ضمانة هذه الاتفاقات والإقرار بصحتها والالتزام بتطبيق بنودها، فإن أية ريح عاصفة تهب على المنطقة، وما أكثر احتمالاتها، كفيلة بأن تدفن هذه الاتفاقات وتقبرها في أعماق الرمال العربية.. ومن هنا

أولت إسرائيل، دائما، قضية " التطبيع " الشعبى، فائق اهتمامها وعظيم التفاتها، وبذلت - وتبذل - جهدها الكامل من أجل " اختراق " حائط الصد الشعبي، وخلخلة ركائزه.

ولأن إسرائيل تعرف أيضا أن الهزيمة والانتصار، والحروب والتسويات، يعكسها الواقع في الأفكار والضمائر والعقول والثقافات، قبل أن تجسدها الحركة الفعلية في هيئة خطط وبرامج وتحركات وحسابات، فإن الهجمة على المثقفين الوطنيين المصريين بلغت ذرى غير مسبوقة، لاعتقاد الدول الصهيونية - وهذا صحيح إلى حد كبير – أن هؤلاء يلعبون دورا رائدا في فضح ممارساتها والتصدي لمؤامرتها، وإفشال تصوراتها، وهى تحملهم مسئولية عجزها - حتى الآن - رغم مضى السنوات - عن بناء علاقات حميمة بالعمق المصري، وقد اعترف - بمرارة غير خافية - كل السفراء والمسؤولين الإسرائيليين الذين تولوا إدارة السفارة الإسرائيلية في مصر، وآخرهم " إلياهو ساسون "، في كتابه: " ٧ سنوات في بلاد المصريين "، بعجزهم عن تجاوز القشرة المصرية إلى العمق، رغم كل المحاولات المستميتة لتحقيق هذه الغاية المرجوة.. إن حماية العقل المصري، والذاكرة المصرية، والروح المصرية من الآثار السلبية للهجمة الإسرائيلية، كانت مسؤولية تاريخية لمثقفيها الوطنيين، الذين مثلوا في هذه اللحظة جوهر الضمير الوطني، ودافعوا عن تراث الأمة في وجه الغزوة الصهيونية حتى النهاية.

ولأن هدف حماية المنجز الحضاري التاريخي المصري، هو هدف كل الوطنيين المصريين الذين تصدوا للمحاولات الصهيونية الأخيرة، كان احتشادهم القوى في مواجهة " حلف كوبنهاجن " ودعاته من المصريين

والإسرائيليين، وكانت حملتهم العنيفة على رموزها، إذ استشعر الجماعة الوطنية الثقافية المصرية خطورة ما يمثله حَمَلَةُ هذه الدعوة المشبوهة على استقرار " الثوابت " الوطنية ورسوخ القناعات الاستراتيجية لديهم، ولم يكن موقفهم هذا بحال موقف من " السلام " - كفكرة إنسانية سامية - ولا دعوة للحروب التي تنبذها البشرية وتتضرر من نتائجها، وإنما - في حقيقة الأمر - كان الصراع حول مفهوم هذا السلام وشروطه وآلياته وتكتيكات تحقيقه هو جوهر الخلاف بين المعسكرين.

غر أن نقصا كبيرا قد شاب موقف الطرفين معا (مؤيدو التطبيع ومعارضوه)، يستشعره الكثيرون ويدركون مخاطره، جوهره هو قصورهما عن طرح الأساس النظري لدعاويهما سواء تلك التي تقف " مع "، أو تلك التي تقف " ضد ".. وانزلق الصراع الفكري بينهما إلى مباراة في رفع الشعارات والتنابذ بالألقاب.. وقد تسبب هذا المناخ في ضياع الأفكار الرئيسية التي كان يتوجب طرحها للحوار، وأدى إلى خفوت الصوت الموضوعي والعقلاني والرشيد، الذي ينطلق من أرضية وطنية ويستهدف غايات وطنية، ويتجه إلى المؤسسات الوطنية، في مناقشاته، وجدله حول هذه القضية الحساسة.

على هذه الأرضية قرأت مقالات " أسامة خالد " في جريدة الأخبار، واحترمت جهده الدؤوب في محاولة تقصى أعماق فكرته، وقدرت فيه دوافعه الوطنية الخالصة التي ينطلق منها وهو يطرح أفكاره بجرأة وشجاعة، وبدون لبس أو مناورة.. وهو أمر شديد الأهمية ومطلوب بإلحاح أن يتم الحوار حولها واضحا بلا مواربة.. ما دام الغاية الوطنية هي الأساس في الأمر كله.

وبالرغم من أن " أسامة خالد " يمس " منطقة محرمة " في الصراع العربي

الإسرائيلي الذي يكاد يقترب عمره الآن من القرن، دون حل، إلا أن اجتهاده في محاولة فهم " الظاهرة الصهيونية " المركَّبة، وسعيه لاستجلاء غوامضها وفك تشابكاتها المعقدة، يفرض على كل المهتمين بالقضية الوطنية مناقشة ما يطرحه من تحليلات وما يقدمه من اقتراحات، بعين الاهتمام والانتباه، وهذه المهمة هي في المقام الأول واجب كل وطني، أيا كان اتجاهه الفكري أو السياسي، ما دام تحركه المصالح الوطنية العليا للوطن والشعب.

من العسير، في هذه العجالة، ومن الخطأ المنهجي، الرد كلمة بكلمة أو فكرة بفكرة على الكثير الذي طرحه " أسامة خالد " في المقالات العديدة المنشورة حول هذه القضية، إنما من الأفضل، في ظني تناول القضايا الكبرى التي ناقشها، ومحاولة الرد عليها إجمالا، على أنه تتبقى الحاجة لمناقشة أفكاره تفصيلا، ربما في مجال آخر أوسع، مستقبلا.

وقد اخترت من جملة ما طرحه الكاتب أن أناقش ثلاث قضايا أساسية هي على النحو التالي:

(١) المفاهيم الرئيسية المغلوطة كمسألة " الأمة اليهودية " و " الشعب اليهودي " و " الحق التاريخي " و " الصراع بين الحقين ".. إلخ.

(٢) مسألة حقيقة ما يطلق عليه " اليسار الصهيوني "، أو " قوى السلام في إسرائيل ".

(٣) موقف " عاموس عوز " الكاتب الإسرائيلي، الذي استند إليه أسامة خالد في مقالاته وعرض لآرائه وأفكاره، حول " السلام " في سطورها.

أولا : مفاهيم استراتيجية مغلوطة :

إن أخطر ما تضمنته مقالات " أسامة خالد " هو إقراره بأن اليهود قد حافظوا، عبر التاريخ الطويل، على هويتهم " القومية " وعلى لغتهم، كما أنهم لم يفقدوا الأمل في أن يعودوا إلى (وطنهم) القديم في أرض فلسطين، وارتكازا على ما تقدم يخلص الكاتب إلى أن " لب المشكلة إذن بين العرب وإسرائيل هو سياسات النخبة الحاكمة الإسرائيلية، وليس أي سبب آخر " [1]، إن الخطأ المنهجي في هذا الطرح هو الإقرار بفكرة " الحق الزمني " للإسرائيليين في فلسطين استنادا إلى كونهم مروا عليها مرورًا عابرًا ذات حقبة في تاريخها الممتد، فهذا الزعم - في واقع الحال، لو تم التسليم به، - يُقوِّضُ أسس الاستقرار السياسي في العالم أجمع وهو يعطى الإمبراطوريات القديمة والمنتمين إلى الممالك البائدة الحق في المطالبة بأوطان فقدوا السيطرة عليها منذ آلاف السنين!.

كما أنها فكرة غير صحيحة علميًا، تَدَّعى نقاء جنس بشرى بعينه، واستحقاقه لإرث تاريخي متقادم، وهى تثير العديد من التناقضات البينية داخل المنظومة الفكرية للكاتب نفسه، الذي يرفض الجماعات السياسية الأصولية (الإسلامية) ويقاوم أفكارها المتعصبة من جهة، ثم يُقرُّ من - من جهة أخرى - بحق المنتمين لدين آخر في أرض يزعمون أنها منحت لهم بمقتضى تفويض إلهي، كما أن هذه الفكرة تطرح مفهوم " الأمة " والقومية وشروطهما على طاولة البحث.. فهل يكفى أن ننتمي إلى دين واحد حتى يمكن لنا الحديث عن قومية واحدة وشعب واحد؟!. وهل يمكن للمسلم الصيني والمسلم العربي، مثلاً، أن يتحدثا عن أنهما يمثلان شعبا واحدا، يطالب بإرثه التاريخي في ممتلكات الإمبراطورية العباسية القديمة استنادا إلى ذلك؟!، وهل صحيح أن اليهودي القادم من الولايات المتحدة أو بولندا ويهودي الحبشة (الفلاشا) أبناء قومية

واحدة؟!، إن العلم والمنطق وواقع الحال يُكَّذبُ هذا الإدعاء، بل أن المشهود داخل إسرائيل الآن تَفَجُّر الصراعات العراقية بين الأشكيناز والسفارديم، أي بين الطوائف اليهودية المختلفة، وهو صراع مُرَشَّحٌ للتفاقم في المستقبل بشكل أكبر، ولا يجب أن ينزلق الوطنيون المصريون إلى ترداد نفس المزاعم الصهيونية، التي سعت الدعاية الصهيونية لترسيخها، حول فكرة " التجانس اليهودي " الكلى المستمر طوال التاريخ، تلك الفكرة التي تزعم وحدة " الشعب اليهودي " الدائمة غير المنقطعة، والتي تبرز ادعاءات " تمايز " هذا " الشعب " وتفرده وبقاءه عصيًا على الاندماج والاختلاط، محتفظًا بـ " الخصائص الجوهرية الثابتة " له والمشخصة في صورة " أمة يهودية "، مُختارة ومصطفاة، وحدها، ودونًا عن سائر الخلق، من " الرب"!، ومستقرة الأوصاف تاريخيًا، فهي دعاوى عنصرية زائفة، اتحد على الترويج لها غلاة العنصريين الكارهين لليهود من جهة، وغلاة الصهاينة، الذين وجدوا في انتشار هذه الأفكار سلاحا فعالا لعزل اليهود عن الاندماج في الشعوب، ودفعهم دفعا لتبنى البرنامج الصهيوني، والهجرة إلى فلسطين لتأسيس دولة المشروع الصهيوني، من جهة أخرى.

وخطورة تسليم الكاتب للصهاينة بهذا " الحق " هو أنه يقود تلقائيا إلى الإقرار بما يطلقون عليه " حقهم التاريخي في " أرض إسرائيل التوراتية الكبري " أى تسليمه - حتى لو أعلن رفضه لذلك – بمزاعم اليهود الصهاينة من وجود " حق تاريخي " لهم في فلسطين وأراضٍ عربية متاخمة، تحت زعم أنها منحة ربّانية مُستحقة.

ويقول الكاتب أن اليهود حافظوا - طوال التاريخ على لغتهم. واقع الأمر أن هذا

عكس الحقيقة المؤكدة، فاللغة العبرية لم تكن هي لغة اليهود الغالبة في العالم أجمع، فقد تحدث اليهود لغات المواطن التي وجدوا بها، وبقيت العبرية لغة رجال الدير والكهنوت اليهودي والنفر القليل من اليهود التقليدين، فيما انتشرت لغة " اليديش " في وسط أوروبا، وتمددت باعتبارها اللغة الأوسع انتشارا بين اليهود في تجمعاتهم الغالبة بأوروبا الشرقية، أما يهود باقي البلدان فلقد تحدثوا اللغات السائدة في مواطن إقامتهم: الإنجليزية لليهود الإنجليز، والفرنسية ليهود فرنسا والعربية ليهود العالم العربي.. وهكذا، وقد قام الصهاينة بانتشال اللغة العبرية من الاندثار وأعادوا ضخ الروح فيها بعدما جعلوها اللغة الرسمية للدولة، وهناك يهود كثيرون - داخل وخارج إسرائيل - لا ينطقون بها حتى الآن.

أما الحديث عن أن مشكلتنا مع إسرائيل هو سياسات النخبة الحاكمة، فهو حديث غير علمي ولا يمس إلاّ السطح، فالحقيقة أن جوهر الصراع بين الدولة الصهيونية وبين العرب أعمق من ذلك بكثير، وهو يمس طبيعة الدولة الإسرائيلية ودورها في خدمة المشروع الاستعماري الغربي، المبنى أساسًا على أيديولوجيتها العنصرية المتطرفة المتعصبة، والتي ارتأى القائمون عليها منذ " هرتزل "، أنها لن تتحقق إلا بالالتصاق بدولة استعمارية كبرى (إنجلترا ثم أمريكا)، وخدمة مصالحها، حتى تُؤمِّن هذه الدولة لإسرائيل الناشئة الحماية والرعاية، وتفرضها فرضا على الوسط المعادى. وقد حدد " هرتزل " بوضوح حدود هذا الدور في كتابة " الدولة اليهودية " - منذ مائة عام - باعتباره " مهمة استعمارية خالصة "، ووصف الإرهابي الصهيوني " شارون " في لقاء مع الرئيس الأمريكي الأسبق " ريجان " إسرائيل بكونها " حاملة طائرات مثالية "

لخدمة المصالح الأمريكية والغربية، " كبيرة، وآمنة، وتبحر في منطقتنا، ومن على متنها يمكن الوصول إلى أي مكان، وتستطيع العمل في مختلف الأحوال الجوية، وفى مواجهة كل عاصفة محتملة " [٢].

وهذه النشأة وسمت سياسات إسرائيل منذ قيامها وحتى الآن، وحددت دورها " التاريخى " في تعويق إمكانية قيام نهضة عربية شاملة، والتصدي لأي قوة بازغة تقود المنطقة نحو الاستقلال والتقدم (مصر على سبيل المثال)، وحراسة مصالح الغرب البترولية والاستراتيجية في بلادنا، وهو دور أدته إسرائيل بكفاءة ومقدرة. ولا يتسع المجال هنا لقول الكثير مما ينبغي قوله حول هذه القضايا الهامة والواجب مناقشتها باستفاضة في مجال آخر.

ثانيا : أكذوبة " اليسار " و " معسكر السلام " في إسرائيل :

وكما قدمت إسرائيل نفسها للغرب (الرأسمالي) باعتبارها واحة الديمقراطية في الشرق الاستبدادي، وحارسة مصالح الغرب الرأسمالي والمدافعة عن قيمه وأفكاره في بلادنا، قدمت نفسها للشرق (الاشتراكي)، (قبل انهياره) باعتبارها مشروع تقدمي في بيئة متخلفة، وركيزة اشتراكية في عالم قبل رأسمالي، وقد لعبت الدورين ببراعة، قبل أن يكتشف الكثيرون حقيقة الخدعة (اليسارية) الزائفة ويكتشفون أن إسرائيل مشروع رأسمالي غربي التكوين والهوى والتوجهات والمطامع، بل هو مخفر متقدم كلب حراسة لمصالح الولايات المتحدة والغرب الاستعماري لا غنى عنه.

إن أساس النظرة اليسارية تنهض على أن من يضطهد أو يقبل باضطهاد شعب لا يمكن أن يكون يساريا، باعتبار أن اليسار فكر عالمي التوجه، أممي الانتماء،

وإسرائيل قامت أساسا على اضطهاد أمة وطرد شعب واستغلال وطن، فكيف لذلك كله أن يتفق مع اليسار أو يتحد مع غاياته الإنسانية؟!

لقد نشأت إسرائيل، تاريخيًا، في كنف الدول الرأسمالية الغربية الكبرى، وتمتعت دوما برعايتها ودعمها، ولا يعقل أن تدعم الدول الاستعمارية نقيضها، أو تساند من يدعو لهدمها، وبرنامج ومسار إسرائيل التاريخي يُقوضان هذا الزعم، ويؤكدان دورها المستمر في خدمة الغرب الرأسمالي ومصالحه.

وعودة إلى الواقع المشخص، فلنر إلى واقع القوى السياسية التي تزعم أنها تنتمى لليسار في إسرائيل:

١ - أكبر القوى التي تزيف واقعها بهذا الزعم هو حزب " العمل " الإسرائيلي، وهو الحزب الذي لعب دورا هائلا في تأسيس الدولة الصهيونية وتثبيت أركانها، وتنفيذ مخططاتها العدوانية في بلادنا، وعلى يديه وقعت أكبر المجازر والحروب العدوانية، وهو مخطط سياسة الالتصاق بمصالح الولايات المتحدة والغرب الاستعمارى منذ الامبراطورية البريطانية، وهو صانع آلة الحرب الإسرائيلية الباطشة، وراعى مشروع القنبلة النووية الإسرائيلية، كما أن " حمامة " السلام المزعومة " شمعون بيريس "، كان أحد المشرفين الرئيسيين على هذا المشروع، وهو الذي نفذ مجزرة " قانا " في جنوب لبنان قبل صعود " نيتنياهو " إلى سدة الحكم بأيام، لكى يؤكد أركان حزب " العمل " أنهم لا يقلون دموية أو عدوانية عن الليكود وأنصاره.

٢ - الهستدروت: أو " الاتحاد العام للعمال الإسرائيليين "، وهو منظمة تأسست عام ١٩٢٢، بواسطة زعماء " اليسار الصهيونى " كأداة لخلق ما أطلقوا عليه

اسم " البروليتاريا اليهودية "، ويعد أكبر وأهم دعامات الكيان الصهيوني الاستيطاني، وهو مؤسسة رأسمالية ضخمة تمتلك المئات من الشركات والمصارف ومؤسسات التشييد وبرامج التأمين الصحى والهيئات الاقتصادية الأخرى، وتبنيه هدف " خلق عمال وفلاحين يهود " كان غايته تحرير الكيان الصهيوني الوليد من الاعتماد على اليد العاملة العربية، وقد رفع شعار " العمل اليهودي فقط " عن توجهاته العنصرية، إذ يرفض اشتراك العرب فيه، كما أنه تبنى، ورَوَّج ، ودعم كل، توجهات السياسة الرسمية الإسرائيلية العدوانية، على مدار تاريخها، وكان مشهورا أن من يسيطر على " الهستدروت " يحكم إسرائيل، ومن قادته التاريخيين "بن جوريون " و " أشكول " و " لافون ".. إلخ، ودورهم المعادى لنا لا يمكن تجاهله.

٣ - الكيوبتزات: على الرغم من المظاهر (اليسارية) المرتبطة بفكرة المستوطنات الزراعية الجماعية الطوعية، التي عرفت باسم الكيوبتزات، فالثابت ارتباط هذه المستوطنات، التي هى منظومة شبه عسكرية، بالمؤسسات الرأسمالية الإسرائيلية، إن تمويلا أو توزيعا لحاصل إنتاجها، ولذا فهى مرتبطة بها كذلك في الأهداف الاستراتيجية.

وتدين الكيوبتزات للأحزاب " الصهيونية " الرئيسية، بالفضل في وجودها، وقد لعبت دورا هاما للغاية في تثبيت المشروع الاستيطانى العدواني على أرض فلسطين، وشكّلت قلاعًا دفاعية حصينة في مواجهة عرب فلسطين العزل، ويمثل أعضاؤها الثقل الأساسى في بنية الجيش العدواني الصهيوني.

كذلك استوعبت هذه المؤسسات المهاجرين من شتى بقاع الأرض إلى إسرائيل، وسعت لدمجهم في بنية المجتمع الإسرائيلي وتوفير أسباب الاستقرار لهم،

وخرج منها نخبة من أشرس المدافعين عن المشروع الصهيوني، والقائمين على تثبيته بالعدوان والقهر فوق الأرض العربية والفلسطينية.

٤ ـ وأيضا، وعلى سبيل المثال، فهناك واحد من أبرز من يطلق عليهم وصف " اليسار " في إسرائيل، وهو " يورى أفنيرى "، والذى يقدم نفسه دائما باعتباره " حمامة " إسرائيلية، لم يجد غضاضة في أن يتبنى في كتابة " إسرائيل بدون صهيونيين " الفكرة الخادعة التي تقول بأن حرب ١٩٦٧، " حرب لم يكن يريدها أحد "، وهذا الزعم يغطى على واقع كونها حرب عدوانية تم التخطيط والإعداد لها بدقة وعن عمد في انتظار اللحظة المناسبة، وقد وصف " أفنيرى " في الكنيست هذه الحرب الغاشمة باعتبارها " حرب دفاعية!! "، ودافع عن " توحيد القدس "، تحت الهيمنة الصهيونية، أي ضمها إلى إسرائيل!.

٥ ـ أما الجماعات التي تُطلق على نفسها اسم " اليسار الجديد " والتى تبرز على هامش الحياة السياسية الإسرائيلية ثم تختفى، فإن دورها دائما، كما يصفها كاتب إسرائيلى، هو العمل " كنوع من التجميل اليسارى للصهيونية ".

٦ ـ وبالنسبة للحزب الشيوعى الإسرائيلى، " راكاح "، فعلى الرغم من وجود عدد كبير من نشطاء العرب الفلسطينيين بين صفوفه، وبالرغم من تبنيه للعديد من القضايا العربية، إلا أن ما يضعف موقفه الاستراتيجى هو تسليمه بـ (مشروعية) الاغتصاب الصهيوني لفلسطين، وإقراره بإمكانية حل (النزاع) العربي الإسرائيلي على أساس بقاء " النظام الصهيوني "، وهو حل غير واقعى ولا محتمل، فضلا عن أن ضعف نفوذ " راكاح " ومحدودية تأثيره على عملية صنع القرار في الدولة الصهيونية، يجعله عاجزا عن التأثير الفعال في مجريات

السياسة الرسمية في إسرائيل.

٧ - ويبقى ما يطلق عليه اسم " حركة السلام الآن ". والحقيقة أنها لا تزيد عن كونها كيان هلامى غير محدد الأبعاد والقسمات، وهى جزء عضوى من الكيان الإسرائيلي، تنحاز لفكرته وتدافع عن بقائه ونقاء توجهاته، ومواقف " حركة السلام الإسرائيلى " مائعة، لا يمكن الركون لها أو الاعتماد على ثباتها، وليس هذا رأينا وحدنا، بل هو رأى ردده العديدون من الإسرائيليين، ومن أصدقاء إسرائيل، والآملين خيرا في قواها (السلامية).

فالكاتب الإسرائيلي " موردخاى بار - أون " - على سبيل المثال - في مؤلفة " **السعى وراء السلام: تاريخ حركة السلام الإسرائيلية** " يدين أعضاء هذه الحركة الذين كانوا " يخشون أن يروا فعلا ما يجرى في الأراضي المحتلة ".

ويشير بوضوح إلى أن: دوافع حركتهم إنما هى " الحرص على مصالح إسرائيل الذاتية "، التي يتهددها نزق حكام الليكود وسياساتهم الحمقاء، ويرى أن أعضاء الحركة دعاة عنصريين يواجهون " التأثير المفسد للاحتلال على المجتمع الإسرائيلي " قبل أن تكون غايتهم تأمين حياة إنسانية للشعب الفلسطيني، أو وضع حد للسياسات العدوانية الصهيونية ".

- أما الكاتبة البريطانية، " الصديقة لدعاة السلام " الإسرائيليين، " هيلينا كوبان "، فتلمس " التردد القوى لدى معظم أعضاء " السلام الآن " في أن يقفوا بالكامل إلى جانب الحقوق المتساوية لكل البشر، بغض النظر عن دياناتهم أو جنسياتهم، أو يؤيدوا الاعتراف الصادق بآثام الحركة الصهيونية في الماضى والحاضر والتعويض عنها " [٣]، وهى تصرخ في رسالة مفتوحة إلى

" أصدقائى في معسكر السلام الإسرائيلي "، على صفحات الجرائد [٤] " عليكم أن تقرروا: هل ستهتدون بمُثُلِ التعاطف ونقاوة الضمير والمساواة بين الخلق، أم تقودكم السياسات الصهيونية - العمالية الضيقة، بإيمانها الأعمى بالتفوق؟! "، وهى ترى أن اتفاقية أوسلو " أدت إلى تغيير رئيسى في الوضع، وهو أن الإسرائيليين لم يعودوا بحاجة إلى ممارسة الاضطهاد بأنفسهم، تاركين هذا العمل القذر لوكلاء فلسطينيين "، في حين تتبنى وصف الصحفى البريطانى " أيان ويليامز " للوضع الراهن، بقوله: إن " ما يردده مسئولوا إدارة " بيل كلينتون " من أن الأفضل ترك الإسرائيليين والفلسطينيين ليحلوا الخلافات بينهم بأنفسهم، يشبه إغلاق باب الغرفة على مصارع سومو يابانى هائل الحجم، مع طفل في الثانية من العمر، وتركهما ليحلوا خلافاتهما! "، وهى تدين صمت " حركة السلام الآن " عن الكثير والكثير.. وتتساءل مستنكرة: " فأى معسكر للسلام هذا؟! ".

إذن.. فليس من الغريب والحال هكذا أن يؤيد العديد من أبرز رموز " السلام الآن " الإسرائيلية أحط ممارسات حكّام إسرائيل الدموية، فهذا هو " يوسى بيلين "، أحد أبرز من يُقدموا في هذا السياق، يدافع عن مجزرة " قانا " !، وهو كذلك الذي وَقَّعَ وثيقة مشتركة مع عضو بارز في الليكود بالكنيست، تتضمن الالتزام بعدم إزالة المستوطنات وعدم العودة إلى حدود ١٩٦٧، وعدم قيام دولة فلسطينية (بل كيان منزوع السلاح ضمن المنطقة الأمنية الإسرائيلية)، وهو يدافع عن بقاء القدس الموحدة (تحت السيطرة الإسرائيلي بالطبع) [٥]، وفى مناظرة تليفزيونية [٦] أعلن بوضوح " أنا من المؤيدين للبناء في كل مكان في القدس، بما في ذلك

إقامة مستوطنة هارحوما (على جبل أبو غنيم)، لأن هذا من حقنا، ولكنها مسألة توقيت وذكاء تكتيكى " ؟؟!!!.. لقد قمنا (حكومة إسحاق رابين [السلامية]!)، بتوسيع المستوطنات بنسبة ٥٠ في المائة، وبأعمال البناء في (يهودا والسامرة)، لكننا تصرفنا بهدوء وحكمة، أما أنتم (حكومة نتنياهو) فإنكم تعلنون نياتكم في كل صباح، وتخيفون الفلسطينيين، وتحولون القدس كعاصمة موحدة لإسرائيل - وهو ما يتفق عليه كل الإسرائيليين - إلى موضوع للجدل على الصعيد العالمى، الأمر الرئيسى هو الحصول على قبول الفلسطينيين بأن القدس عاصمة إسرائيل، ولن يكون هناك اتفاق ما لم يقبلوا! " (٧).

وعلى هذا يمكن فهم لماذا صوت ثلاثة من الوزراء الذين ينتمون إلى حزب (يسارى) هو " ميريتز "، ومن كبار دعاة " السلام الآن "، بالموافقة على إبعاد ٤٠٠ فلسطينى عن وطنهم - بالقوة - إلى أحراش لبنان، كذلك يمكن فهم دواعي رفض قيادة حزب " ميريتز " (اليساري!) خطة لجعل القدس عاصمة لدولتين، فلسطينية في قسمها الشرقى، وإسرائيلية في قسمها الغربى، بحجة أن هذا الموقف " من شأنه أن يعزل الحزب لدى الرأى العام الإسرائيلي "، على حد تعبير النائب " يوسى ساريد "، رئيس الحزب (٨).

وقبل هذا كله، فإن التفكك والضعف وهشاشة البنيان، هى سمات حركة " السلام الآن "...، ويعترف بذلك (صديقهم) " لطفى الخولى " في حوار مع مجلة " المصور "، عقب مظاهرة " هزيلة لعناصر " حلف كوبنهاجن " فوق جبل " أبو غنيم "، ويُقِّرُ بوصف جريدة " هاآرتس " القائل بأن " الذين حضروا المسيرة الاحتجاجية لجماعة " كوبنهاجن " على جبل " أبو غنيم "، كان عددًا ضئيلاً، ولم يكن هناك حماس كبير، والناس لم تحضر لأن " حركة السلام الآن

" تعيش أزمة حقيقية، حيث تعانى من هجرة الشباب وفوضى واضطراب التفكير ". كما أن " موسى راز " سكرتير عام الحركة، اشتكى من " خروج الشباب، وعدم انتمائهم إلى الحركة، وإنها بالفعل تكاد تكون مهجورة! " [٩].

وفى أبسط الأحوال فإن كل ما تقدم يجعلنا نراجع صحة الموقف " الذي يُراهن " على " حركة السلام الآن "، وقدرتها على التأثير في مسار السياسات الصهيونية.

ثالثا : غايات الأدب الصهيوني ووسائله :

" عاموس عوز " نموذجا :

كل أدب حتى ولو بدا غير ذلك، هو أدب منحاز لأيديولوجية محددة ولمصالح ثابتة.. ويعكس - حتى ولو ادّعى غير ذلك - موقفا من الوجود والحياة، وفلسفة ورؤية للكون والإنسان، وكلما كان صاحب حرفة الأدب أكثر حنكة ودُربه، ممتلكا لأدواته الفنية، كلما تَخَفّتْ هذه الانحيازات، وخَفَتّتْ حدّتها وذابت في العمق، وبدت كالغلالة الشفيفة الرقيقة الهائمة.. حتى لا تكاد ترصدها إلا العين المدربة، أو يدركها غير الذهن المجرب، أو يلمحها سوى الفهم المتعمق القارئ لما وراء السطور.

ولا تنطبق هذه القاعدة - في واقع الحال على أدب - كما تنطبق على الأدب الصهيوني.. فهو أدب منحاز حتى النخاع، ينطلق من تحزبات مسبقة، ويستهدف غايات محددة سلفا.. ويدافع عن " قضية " واضحة المعالم والقسمات: إنها قضية تبرير سحق شعب عربى مسالم، وإزاحته عن طريق " البولدوزر " الاستعمارى الغربي، لزرع الشجرة الصهيونية المسمومة في موقعه وتثبيت أركان المشروع الاستعمارى الاستيطاني الإحلالى على ترابه، وكما في كل أدب على امتداد العالم كله، أحيانا ترتفع حدّة النغمة الخطابية، المباشرة، الزاعقة، الممجوجة، فنقرأ أدبا ركيكا محدود التأثير ضئيل العائد، ولذا يقتضى الأمر حرفية عالية، وتقذية رفيعة حتي يمكن تغليف " البضاعة " الأيديولوجية في ورق " السوليفان " اللامع، ولكى تصبح قادرة على لفت أنظار " الزبون " أو " ترويجها "، بلغة السوق لدى " العميل "!.

ولا يقع أدب " عاموس عوز " خارج هذه المعادلة أو مناقضا لشروطها.. كل ما هنالك أن الكتاب المحنكين، من نوع " عوز " ومن هم على شاكلته، قادرين - نظرا لخبرتهم الرفيعة بأدواتهم الفنية - على إخفاء مضامين أعمالهم الحقيقية في الدهاليز الخلفية للكتابة، ولقّها في غطاء مخملى يُخفى حقيقة نواياها، ثقةً بأن الهمس الناعم أكثر أثرا في النفوس والوجدان من الشعارات المكشوفة.. ودليل نجاح هذه الطريقة المدروسة والمضمونة، هو أن عديدا من المثقفين الكبار في العالم، بل وفى عالمنا العربي، يعتقد بـ " إنسانية " أعمال بعض رموز الأدب اليهودي، وكبار علامات إسرائيل الثقافية، ونموذج لهذه النوعية من المفكرين (الإنسانيين) ذوى الحضور الكبير الفيلسوف والمفكر اليهودي المعروف " أشعيا برلين "، وقد رحل عن عالمنا في الخامس من شهر نوفمبر ١٩٩٧.

ولد " أشعيا برلين " في روسيا، ثم هجرها في مقتبل عمره إلى بريطانيا، ودرس في مدارسها، وتخرج من جامعة " أكسفورد " التي ظل يُدرّسُ بها حتى غادر الحياة في سن الثامنة والثمانين.

وقد أتقن " أشعيا برلين " الروسية والفرنسية والألمانية والإيطالية، إضافة إلى الإنجليزية والعبرية بالطبع، ومكّنته معرفته الموسوعية من تحقيق مكانة مرموقة في الفكر الغربى المعاصر، وقد وصفه " د. إدوارد سعيد " [١٠] - الذي كانت لديه معرفة شخصية به، باعتباره " ألمع محاضر استمعت إليه بسبب وضوح أفكاره وغزارة مادته وجُمَلِهِ الإنجليزية الرائعة "، ومع هذا فإن هذا الاسم الكبير الذي اعتبره الجميع " من الدرر النادرة في الغرب " كان مصابًا بـ " عمى الألوان " إزاء إسرائيل والمأساة التي صنعها وجودها على أرضنا،

فيذكر " إدوارد سعيد " أن " النغمة الوحيدة الناشزة في " برلين " كانت صهيونيته المتحمسة التي لا تعرف أي شك أو تردد، وإيمانه إسرائيل ومساندته لها، التي ساهمت في شكل كبير في الصورة الإيجابية لإسرائيل وتلك المشاعر من حولها التي اصطنُعت في الغرب (...) وهو حسب أقصى معرفتي - يقول " إدوارد سعيد " - لم ينطق بكلمة واحدة عن الفلسطينيين، ويبدو أنهم لم يكونوا في نظره أكثر من عوائق مُتَوَقعة يمكن نسيانها تماما، وإلغاؤها من الفكر بعد إزاحتها عن طريق المهمة الأكبر (...)، وقد أغفل " برلين " تماما الاحتلال العسكرى والمستوطنات وكل أعمال الغزو والقتل والسلب (...) أما عن " القدس " فيقول برلين: " عليها أن تبقى عاصمة إسرائيل ".. لكن " برلين " لم يقتصر على تأييد إسرائيل، وعدم التساؤل عن أخلاقية أعمالها في سلب وقمع شعب بأكمله، بل حاول منع الآخرين من القيام بذلك، مستعملا صيته ونفوذه لخنق المنشقين وإخراس المعارضة!! ".. ويخلص " إدوارد سعيد " إلى نتيجة هامة للغاية، وثيقة الصلة بموضوعنا الرئيسى، فيقول أن " التناقض في كل ذلك واضح تماما: " برلين " كان شخصا مؤمنا بالإنصاف والاعتدال المتحضر في كل شيء إلا في ما يخص إسرائيل!. وكان اندفاعه المتحمس والأعمى في هذا المجال مشابها لسلوك المتطرفين سواء من اليمين أو اليسار، الذين استنكر " برلين " مواقفهم دوما في كتاباته، بهذا المعنى كان برلين " مثقفا عضويا " بالنسبة إلى إسرائيل، لصيقا بمصالح تلك الدولة، خصوصا عندما يجتاح تلك المصالح اعتبارات الإنصاف والإنسانية، إلى درجة دفعت قراءه والمعجبين به إلى السير على طريقه، وإعلاء شأن إسرائيل، والتغافل عما ترتكبه من مظالم تجاه شعب لم تكن جريمته سوى الوجود في أرض، حسب بلفور، لها أهمية

جغرافية عظيمة إلى درجة لا يمكن تركها لرغبة وأهواء سكانها الأصليين! " (١١).

انتهى كلام " إدوارد سعيد " ونعود لكي نكتشف أن ما حكاه عن " أشعيا برلين " يكاد ينطبق بحذافيره على الأغلبية الساحقة من الكُتّاب الإسرائيليين والصهاينة، بل والغربيين، ذوى الاتجاهات (الإنسانية) المتسقة، حيث ينعدم اتساقهم الفكرى، وتتبدد أمانتهم العقلية، حينما يمس الموقف إسرائيل من قريب أو بعيد!. وهذا الأمر بالطبع له تفسيره التاريخى والثقافى، ويمكن إدراك أبعاده الدفينة والعميقة الغور في النفسية الغربية والإسرائيلية، وهى كلها أبعاد لا ذنب فيها، بحالٍ، للإنسان العربي أو الفلسطيني. أو واقع حياة اليهود في المنطقة العربية، الذين عانوا فيها - باعترافهم - أقل أشكال الاضطهاد، وتمتعوا خلالها بوضعية طيبة لا يمكن تكرارها.

سمات الأدب الصهيوني :

وفى واقع الأمر فقد كانت حرب ١٩٦٧ هى الضوء الكاشف الذي خلع أردية الزيف التي ارتداها الأدب الصهيوني، وكشف سوءاته، وكان السؤال الهام المطروح في إثرها: ما الذي جعل الأديب أو الشاعر أو المفكر الإسرائيلي، الذي يُفترض فيه ألا يخضع سوى لنبض الحقيقة وحدها، يمشى مسلوب الإرادة خلف أحذية الجنود الغزاة الفاتحين، وهم يغتصبون الأرض ويدوسون على أشلاء الأبرياء؟ وقد عَبَّرَ الأديب الإسرائيلي " موشية شامير " عن موقف قطاع كبير من الأدباء الصهيونيين، الذين لا يرفضون في أعمالهم ما يحققه العمل العسكرى من توسع إقليمى، " لأن شامير لا يرى أن هناك أي تعارض أو تناقض بين ما يحققه الجيش الإسرائيلي انطلاقا من النداء: " ورائى "، وبين

دور الأدب العبرى في " خلق الإحساس بالارتباط الجذرى للجيل ببلاده، دون ارتباط بحدود هذه البلاد "[١٢].

والمتتبع للعديد من نماذج الأدب الصهيوني سيكتشف نزوعها إلى تمجيد الحرب والقتال، والتأكيد على قيمة (القوة) كعنصر رئيسى في الوجود، وقد لمس " نيكوس كزنتزاكس " الكاتب اليونانى الأشهر، هذه النزعة لدى اليهود، والتى تنعكس جَلِيَّة في أدبهم وتراثهم الفكرى والدينى: " إن الروح اليهودية تريد أن تقهر الأرض، تريد أن تجعل كل الشعوب تابعة لإيقاعها، وتريد سحق الواقع المعاصر، لأن الأرض لا تستطيع أن تحتمله: هذه هى خاصيتهم المميزة العميقة "[١٣].

إن السمة الرئيسية التي تتبدى، من خلال قراءة الأدب الصهيوني، هى الإجماع، شبه الكلّى، على الحط من شأن الشخصية العربية الفلسطينية، وتسفيه تراث الإنسان العربي والفلسطيني ومكوناته النفسية، ومقومات حضارته.. " لقد عمد اليهود إلى نزع هوية هذه الشخصية حتى يمهدوا لفكرتهم التي رَوَّجَها الروائى الصهيوني " إسرائيل زينجويل ":

" أرض بلا شعب لشعب بلا أرض! "[١٤].

فشخصية العربي الفلسطيني، في الأدب العبرى، تجسدت في هيئة البدوى والفلاح التي وسموها بكل الصفات البدائية المكروهة، وألصقوا بها كافة النعوت الذميمة، واستهدفت هذه الصورة ترسيخ فكرة التقدم الإسرائيلي مقابل التخلف العربي، وتأكيد دونية الفلسطيني مقابل الشخصية الإسرائيلية الريادية المبادرة، وتثبيت الإيحاء بأن العربي " مجرد مخلوق يجب التخلص منه بشكل

أو بآخر " [١٥].

" عاموس عوز " أديبا :

السياسة خلف الفكر، والتعصب وراء الادعاءات الإنسانية!

إنني يهودي، وإسرائيلي، وصهيوني...

والصهيونية: حركة تحرر وطني!

" عاموس عوز "

ينتمى عاموس عوز إلى الجيل الخامس من الأدباء الصهاينة، الذين وُلد معظمهم في فلسطين (مواليد القدس عام ١٩٣٩). وبالرغم من اتجاه بعضهم إلى نقد بعض التقاليد اليهودية، وحتى بعض عناصر الحركة الصهيونية ذاتها، إلا أن أعمالهم رَكَّزت على فترة إنشاء الدولة والتحديات التي كانت تواجه الشخصية اليهودية. على المستويين: النفسى والخارجى، وقد دافع أدب هذا الجيل عن (تحرر) اليهودي وانسجامه مع الأيديولوجية الصهيونية، وحاول تقديم المبررات لرفض اليهود الاندماج في مجتمعات " الشتات "، ولاغتصاب الأرض الفلسطينية كذلك، ومن أبرز رموز هذا الجيل " يزهار سميلانسكى "، و " بنيامين تموز "، و " موشيه شامير "، و " أهارون ميجد "، و " دافيد شحر "، و " عاموس عوز " [١٦].

ولقد يقول قائل أن الآخر المقصود بتحرر اليهود منه، هو هنا الأوروبى الذي اضطهد اليهود - كالنازى - وطاردهم، وهذا محض افتراء، فلم تدر رحى حرب التحرر اليهودي المزعومة على أرض أوروبا، وإنما على أرضنا نحن.. أرض الفلسطينيين والمصريين والعرب، وفى مواجهتنا نحن: نحن الفلسطينيين

والمصريين والعرب، بالأساس، بل إن الحركة الصهيونية، حينما عُرض عليها - في أكثر من مناسبة - أراضٍ بديلة في أفريقيا أو أمريكا اللاتينية، رفضت هذا العرض بحسم مع سبق الإصرار، وتم التمسك بغاية إنشاء الوطن اليهودي على الأرض العربية الفلسطينية، وعلى حساب بشر من العرب الفلسطينيين.. وحدهم لا غير!.

وإعلان " عوز " عن إيمانه بالصهيونية - كحركة تحرر وطنى - يعنى من جهة أخرى، أنه من المستحيل عليه مغادرة هذا اليقين، وإلا كان كمن يقوم بفعل خيانة عظمى لأفكاره ومعتقداته.. وهذا ما لم يحدث، ولن يكون.. وهو يكشف زيف ادعاءات السلام لعوز ومماثليه.. فأن تكون صهيونيا.. وألا تتبرأ من هذه الصفة، يحمل في طياته كذلك - منطقيا - رفضا قاطعا للتسليم بالآخر النافى للكينونة، مهما زعمنا غير ذلك والآخر هنا هو الفلسطيني والعربى، الذي نهضت " حركة التحرر الصهيوني " المزعومة، في مواجهته، ومن أجل تصفية وجوده المادي والمعنوي والتاريخي، والحلول محله، وهو ما يعنى إذن رفضا منطقيا وكليا للسلام الحقيقى المبنى على الحق والعدل والإنسانية، أو هو في أحسن الأحوال، يرفع شعار السلام كغاية تكتيكية، ولمصلحة آنية، وليس كاستراتيجية تستحق الدفاع والكفاح من أجل الفوز بها.

وفى أدب " عوز " ينعكس هذا الموقف بوضوح وقطع.. فلأنى صهيونيا، يقول لسان حال " عوز " في كتاباته، أؤمن - عن يقين - أن من حقى السيطرة على هذه البقعة من الأرض، ومعناه أيضا العجز عن التسويغ الأخلاقى لفكرتى تلك إلا إذا صاحبها ادعاء بأنها أرض جدباء، بلا صاحب أو هَوية، حينئذ سأكون أنا معمرا وبناءً، بدلاً من أصبح مغتصبًا وسارقًا.. ويحق لى الزعم بأنى مناضل

صاحب قضية، بدلا من أن أوصم بوصفى لصًا وقاطع طريق، وسأبدو كحامل رسالة التنوير والتقدم والمدنية للعرب المتخلفين الأجلاف!!.

وهذا هو صلب ما فعله " عوز " في أدبه، ففى رواية " **في مكان آخر أسود ربما** "، التي طُبعت بالعبرية عام ١٩٦٩، ونُشرت طبعتها الإنجليزية عام ١٩٧٣، يقول عوز " لمدة ألف عام كان هذا المكان قفرا، إلى أن جاء مستوطنونا الأوائل ونصبوا خيامهم فجعلوا الصحراء تزهو بأحدث الوسائل الزراعية، بالطبع كان هناك فلاحون عرب قلائل قبل مجيئنا، ولكنهم كانوا فقراء وبدائيين!، كانوا بملابسهم القاتمة فريسة سهلة لعوامل الجو وكوارث الطبيعة: للفيضانات والجفاف والملاريا. لم يتبق منهم أثر عدا خرائب متناثرة، أخذت أطلالها تشحب وتختفى تحت التراب الذي جاؤوا منه، هرب سكانها إلى الجبال، ومن هناك أخذوا يلقون عليها كراهيتهم التي لا تستند إلى أساس! والتى تفتقد كل معنى! لم نسبب لهم ضررا!. جئنا بالمحاريث فردوا على تحيتنا بالسيوف!. ولكن سيوفهم ارتدت عليهم! ".

رسالة " عوز " هنا واضحة وضوح الشمس: اليهود، البناؤون، صناع الحضارة، أتوا بالمدنية والتقدم إلى الأرض اليباب، المسكونة بالخراب والأمراض والموت، لكن المتوحشين العرب رفضوا - دون أدنى مبرر - هذه المنحة الملائكية المجانية، بل وقاوموها بضراوة، وردوا تحية الصهاينة بالعنف الهمجي الذي ارتد إلى نحرهم!!.. المحراث اليهودى الصهيوني في جانب والسيف الدموى العربي في جانب آخر، وبالطبع فلينتصر المحراث، ولننتصر نحن جميعا له، وليمت ذلك العربي الهمجى المنحط الذي لا يستحق الحياة، لأنه لا يُدرك لها قيمة، أو يفقه لها معنى!!.

وهذه هى بالطبع المزاعم التي رَوَّج لها الاستعمارى، الإمبريالى، العنصرى، الأبيض دائما، وبرر عن طريقها اغتصاب الأرض والثروات والأعراض أيضا، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ولا زال حتى الآن، وإن بأشكال أخرى.

إن " عوز " يُقاتل بضراوة ضد عملية اندماج اليهودي في المجتمع البشرى الأوسع، وهو الحل الإنسانى الأمثل لـ " المشكلة اليهودية " المزمنة، ويشبهه بعملية اغتصاب " علنى للذات اليهودية أو " دعارة " علنية لمن يمارسه، ويؤكد مرارا على قدسية " الحلم الصهيوني "، وفى روايته " **تل المشورة الشريرة** "، تبدو فلسطين أرضا صحراوية قبيحة المنظر والمخبر، بلا شعب أو صاحب، وعندما تتحقق النبوءة، ويعود لها شعبها! (اليهودي) المنفى والمشتت، تدر اللبن والعسل، وتعود إليها أسباب الحياة، ويقتضى ذلك أن يعيش على أرضها إما العرب البدائيين أو اليهود المتحضرين الصهاينة، إذ (لا يوجد أدنى احتمال لأن نلتقى في منتصف الطريق)، كما تصرح إحدى شخصيات الرواية!.

إن الطبيعة الاستعمارية للمشروع الصهيونى، غائبة تماما، (أو هى على وجه الدقة مُغَيَّبة) عن ذهنية " عوز " وأمثاله، ويتم تحريف الوقائع التاريخية لخدمة هذه الغاية، وتُلوى عنق الحقيقة للتعمية على ما لا يخدم أغراض الدعاية الصهيونية العميقة الغور، ففى روايته " **الحروب الصليبية** " يصورها كحملات كراهية موجهة ضد اليهود فقط لا غير، ويتجاهل دوافعها المستبطنة، والآلام والفظائع التي تعرض لها سكان الأرض العربية التي واجهت هذه الحملات الدموية، وتعرضت لنهبها، وضَحَّت في سبيل مقاومتها، وانتصرت عليها.

لقد مَثّلت هذه الحملات، في وجه من وجوهها الأساسية، مخرجا لأزمة نُظم

الإقطاع الأوروبى، الاقتصادية والاجتماعية، التي حاول حلّها عن طريق نهب الثروات في البلدان العربية، المكَدّسة بفعل النشاط التجارى المكَثّف آنذاك، ولم يكف " عوز " تجاهل كل ذلك، بل جعل ذلك الصراع صراعا بين مسيحيين مصابين بالجنون والانحراف الخلقى، وبين اليهود كضحايا بريئة!، على حد تعبير الكاتب والأديب العربي الراحل، " غالب هلسا "، في دراسته الرائدة " نقد الأدب الصهيوني: دراسة أيديولوجية ونقدية لأعمال الكاتب الصهيوني " عاموس عوز " (١٦).

وغياب " البصيرة " التي تُمكّن " عوز " من إدراك السمات الاستعمارية الواضحة للمشروع الصهيوني، أو تدفعه لإعلان ذلك إذا كان قد أدركه، تجعله يخلط متعمدا بين الحق والباطل، والأصيل والمزيف، وتدفعه إلى مواقف واضحة التناقض.

فهو إذ يدعو للتخلص مما أسماه " وطنية الراية "، أي العلم والنشيد، والانتقال إلى " الوطنية الإنسانية، التي تخلى مكانها لى "، وطنية الأرض والماء والهواء والضوء، " لا يلبث أن يبرر الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية بالاستناد إلى مقولة مغلوطة تزعم " عدم التساوى بين احتلال ألمانيا لجزء من الأراضي الفرنسية، واحتلال القوات الفرنسية بعد ذلك لجزء من الأراضي الألمانية "، فالاحتلال الأول مُدان، والثانى مُبَرر ومشروع!، مثله مثل الاحتلال الصهيوني لأجزاء من الأرض العربية، ردا على العدوان العربي (النازى) على (الأرض الإسرائيلية)!!، وهو تشبيه سيئ النية، يحمل قدرا كبيرا من الكذب والمخاتلة وسوء القصد، فلم يحدث أن احتل العرب (لا سمح الله) أرضا لإسرائيل، التي كانت هى دوما المعتدية او المبادرة بالهجوم، والمتعنتة في الانسحاب مما

استولت عليه بالقوة والعدوان، من أرض عربية وأساسا كل الأرض الفلسطينية التي قامت عليها الدولة المغتصبة.

ولا ينفك " عوز " يؤكد دائما انتمائه إلى الدولة الإسرائيلية والأيديولوجية الصهيونية باعتبار أن الصهيونية " تُمثل حركة تحرير وطنى " لـ " الشعب اليهودي " [١٨]، وهو إذ ينادى بالتخلى عن بعض " الأراضي المحتلة "، (بعد حرب ١٩٦٧)، فلا يفعل ذلك استجابة لدواعٍ إنسانية، وإنما لأسباب محض " برجماتية "، تتعلق بالحفاظ على " النقاء العنصرى " للدولة!، ولأن هذه الخطوة تمثل شرطًا أساسيا " لاستمرار المشروع الصهيوني الخلاّق في فلسطين " [١٩]، كذلك فإن بصيرة " عوز " وبصره، يغيبان تماما حين ينظر إلى كفاح الشعب الفلسطيني المشروع دفاعا عن وجوده، فهو يتهم " الحركة الوطنية الفلسطينية "، باعتبارها " واحدة من أكثر الحركات التي شهدها هذا القرن شرا وتعصبا!!.. لقد كانت أهدافها وأساليبها بصورة مستمرة تقوم على تدمير أمة وطرد شعب!!.. إن لم يكن الأسوأ من ذلك! [٢٠]، وتبلغ أكاذيبه قمة ادعاءاتها حين يقلب الآية تماما، فيُبرئ القاتل، ويتهم الضحية: " إن القسوة والتطرف لدى قادة الشعب الفلسطيني هى التي أفقدته كل ما كان لديه: المدن، والقرى، البيوت، الحقول، الهوية، واحترام الذات، وأمله في المستقبل على وجه الخصوص! " [٢١].

فهل يمكن أن يكون ما سبق، منطلقا طبيعيا لداعية سلام يُركن إليه، أو لصاحب موقف يتم الترويج له، والدعوة للتعامل معه، في وطننا، كما يتصور الأستاذ " أسامة خالد "؟!.

إن " عاموس عوز " صهيونى حتى النخاع، وصهيونيته صهيونية جهيرة، غير

مستترة، ودفاعه عن عقيدته الصهيونية مبثوثة في ثنايا قصصه وأحاديثه الصحفية، ومن عجبٍ أن البعض لا يرى كل هذه المواقف الفاضحة، لعوز وأمثاله، ويجهد نفسه، هنا وهناك، باحثا عن لفظة أو جملة، تثبت أو تدعم ادعاءاته (السلامية) الموهومة!

في رواية " حنّه وميخائيل " مثلا، الذي ترجمها ونشرها صديق إسرائيل، الناشر (المصرى) " أمين المهدى "، تقول بطلة الرواية، وهى تصف أعضاء مستوطنة (من الإرهابيين والقتلة): " إنهم مجموعة من الشجعان، الذين أخفوا في غشاء من المرح علامات المسئولية الجادة، رأيت منهم ذلك الأساس المتين والمناضل، كأنهم يتمتعون ويُنكّتون دائما من شدة بأس القرار الذي اتخذوه بشفاه مضمومة.. أحببتهم. وهذا الرأى طبيعى من صهيونى عتيد، وُلد لأسرة صهيونية متطرفة، وعاش أغلب سنوات عمره وتربى في المستوطنات التي اقتطعت من اللحم الحى لشعبنا الفلسطيني، ثم هو قد اشترك أيضا في حربى ١٩٥٦، ١٩٧٦ ضد بلادنا، ولا يخفى احتقاره لشعبنا، ولنضال أبطالنا، الذين لا يشكلون من وجهة نظره سوى " عصابة من المجرمين! " [٢٢].

وإذا أضفنا إلى ما سبق كله موقف " عوز " من القدس، التي " لا أعتقد لدقيقة واحدة أنها يجب أن تُقسَّمَ بحوائط، أو أسلاك شائكة.. (وإنما يجب) أن تبقى المدينة موحدة "، تحت السيطرة الصهيونية بالطبع، لأدركنا كم كان " أسامة خالد "، متفائلا أو ربما مخدوعا، وهو يتحدث عن " قوى السلام الإسرائيلية ": و " عوز " نموذجا!.

- فالموقف من الصهيونية واحد، بين (اليمين) و (اليسار) الصهيوني.

- والموقف من (الأغيار)، أي العرب أصحاب الأرض، واحد أيضا.

- والموقف من الأراضي المحتلة واحد.

- والموقف من القدس واحد.

- والموقف من بقاء الثكنة العسكرية الصهيونية، المدججة بالسلاح النووى وأدوات الدمار الشامل المنصوبة فوق رؤوسنا... واحد كذلك!

كل ما هنالك هو تباين في النسب ودرجات اللون، بين اليمينيين و(اليساريين) الصهاينة.

فالموقف الحقيقى لدعاة السلم الإسرائيلي، إذا كان هناك من يستحق بالفعل هذا الوصف - يجب أن يبدأ بنقض المشروع الصهيوني في جذوره الأيديولوجية، قبل أن يتم نقد ممارساته، وإدانة مسلكياته الهمجية، كواجب لا يحتمل التأجيل، ذلك وحده هو معيار مصداقية مُدَّعى السلام الإسرائيليين، وبدونه يحق لنا أن نستريب في دوافعهم ونتشكك في أغراضها.

هل هناك في إسرائيل من هم على هذه الشاكلة؟ وربما.. لكنهم - إن وجدوا فهم خافتوا الصوت، محدودوا العدد والقوة، غائبوا التأثير.. ومن يجرؤ منهم على تجاوز تخوم " المؤسسة " يتعرض، مثلما تعرض بعض المفكرين الأحرار في الغرب، إلى السخط الصهيوني العارم، الأمر الذي يدفعه للسكوت، أو قضاء عمره كله خلف القضبان، مثلما حدث مع " موردخارى فعنونو "، التقنى الإسرائيلي الذي هاله اكتشافه لحجم ومخاطر الترسانة النووية الإسرائيلية،

وتمرد عليها، فحُكم عليه بالسجن الانفرادى منذ عام ١٩٨٦ وحتى الآن (*).

والأهم من تبديد الطاقة في مثل هذا المسعى، في اعتقادى، هو مساعدة هذه القوى فعليا على التطور والنمو، ولن يكون ذلك بالبحث عنهم، والتحالف معهم، مثلما نبحث عن إبرة وسط كومة من القش، كما يفعل أعضاء " حلف كوبنهاجن " و " جمعية القاهرة للسلام "، وإنما بتطوير أعمال النضال داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، وخارجها ضد العدو الصهيوني.. فالثابت أن ذلك وحده (ونموذج عليه انتفاضة الحجارة، وحرب أكتوبر قبلها) كان هو الدافع الأساسى لطرح التساؤل عن هوية إسرائيل ومستقبلها في المنطقة، وطبيعة وحدود دورها وعلاقتها بالجوار العربي، وليس استجداء السلام الصهيوني الأمريكى الذي لن يأتى أبدا!.

وبدلا من عقد التحالفات مع عملاء المخابرات الإسرائيلية (الموساد)، وممثلى اليمين وحزب " العمل " الصهيوني، وغيرهم، كما يفعل دعاة " التطبيع " مع العدو الصهيوني في مصر والعالم العربي، من الضرورى أن نبحث عن قنوات اتصال مع جسدنا العربي في المناطق المحتلة من فلسطين عام ١٩٤٨. فهم أهلنا وناسنا، وبسبيلهم لأن يصبحوا قوة ذات وزن داخل دولة العدو الصهيوني.

فليس من الطبيعى أن يتم حوار باسم السلام تحت أسنة الرماح بين الضحية والجلاد، ومع عناصر لازالت تؤمن وتنتمى لمعسكر العدو، حتى وإن كان لها بعض الاعتراضات أو التباينات الشكلية في المواقف عن النظام السائد فيه الآن.

(*) أطلق سراحه فيما بعد.

فحزب " العمل " الإسرائيلى لا يقل خطورة ولا تمسكا بأهداب الصهيونية عن " الليكود "، بل أنه - في واقع الأمر - هو الذي صنع إسرائيل، وكفل لها سبل الحياة والتطور، غير أن صهيونيته صهيونية (مخملية) إذا صح التعبير، مُزَوَّقةٌ بادعاءات (يسارية)، و(إنسانية) و(أخلاقية) برّاقة وخادعة، تخفى عورتها وتغطى على حقيقتها.

ثم: هل كان مباحا أو مقبولا أن يتم الحوار بين مثقفين أوروبيين أو أمريكيين مع مثقفين نازيين، تحت علم الرايخ الثالث، وهم يعلنون يقينهم في صحة منطلقاته ويفخرون بأيديولوجيته العنصرية، ويعتبرون أنفسهم ألمانًا ونازيين، ويرون أن للنازية حقًا تاريخًا في غزو أوروبا واحتلال أراضٍ من بلدانها، وينظرون لمواطنيها باحتقار وكراهية وازدراء، إلخ.. مثلما ينظر إلينا " عوز " وأشباهه؟!

وهل كان يمكن لأوروبا أن تعقد صلحا مع ألمانيا الهتلرية، قبل أن يتسم سحق آلة الحرب الألمانية العملاقة، وتصفية الأسس الفكرية، والركائز النظرية والسياسية والاجتماعية والثقافية للأيديولوجية العنصرية الوطنية الألمانية المتطرفة (النازية)، بل وقبل وضع عشرات الشروط والضمانات والضوابط التي تحول دون استعادة الفكرة النازية لمواقعها مرة أخرى في المستقبل، بأي صورة من الصور؟!.

وهل يمكن حقا عقد سلام مع إسرائيل، في ظل ابتزاز الاحتكار النووى، والتهديد المستمر بأسلحة الدمار الشامل الإسرائيلية، وقبل أن يُدين " دعاة السلام " الإسرائيليين هذا المسعى الإسرائيلي المستمر لتصعيد سباق التسليح في المنطقة، وللاستناد على سياسة القوة في فرض الأمر الواقع؟!.

هذه الأسئلة وغيرها، أوجهها إلى " دعاة الحوار " المصريين والعرب، وينبغى أن نبحث عن إجابات صريحة عليها، حتى نحسم أمرنا في قضية لا ينبغى وجود أدنى التباس بشأنها!.

* * *

هوامش الفصل الثالث

(١) جريدة " الأخبار "، القاهرة، ١٩٩٧/٩/٣٠.

(٢) جريدة " معاريف " الإسرائيلية، ١٩٨١/٩/٢٥.

(٣) جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٧/٢/٦.

(٤) المصدر نفسه، ١٩٩٧/١٨/٦.

(٥) جريدة " هاآرتس " الإسرائيلية، ١٩٩٧/٣/٢٨.

(٦) التليفزيون الإسرائيلي، ١٩٩٧/١٧/٣.

(٧) مذكورة في: إدوارد سعيد، " مثقفو كوبنهاجن ونقاش مستمر "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٧/٥/٧.

(٨) جريدة " الحياة "، لندن، ٦/ ١٩٩٧/٧.

(٩) جريدة " الحياة "، لندن، ٩/ ١٩٩٧/١٢.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) انظر: د. رشاد عبد ا لله الشامى، " عجز النصر: الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧ "، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠، ص: ٦٦.

(١٣) نيكوس كازانتزاكس: " ماذا جرى كى تكونى صهيونية؟! "، مجلة " الكرمل "، العدد ٢٨ - ١٩٨٨.

(١٤) د. محمـود حميـدة، " اسـتراتيجية الأدب الصـهيوني لإرهـاب العـرب "، مؤسسـة الاتحـاد للصـحافة والنشر، دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة، أبـوظبي، ١٩٨٨، ص:١٧.

(١٥) المصدر السابق، ص: ٢٠.

(١٦) المصدر السابق، ص: ٣٢.

(١٧) غالب هلسا، " نقد الأدب الصـهيوني: دراسـة أيديولوجيـة ونقديـة لأعمـال الكاتـب الصـهيوني " عـاموس عـوز "، دار التنـوير، عمـان، الأردن المؤسسـة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٩٥

(18) Amos Oz, peace Now: Ideological work shops, new out look, Nov. - Dec. 1980, p.25.

(١٨) المصدر نفسه، ص: ٥٢، ٥٣.

(19) Amos Oz, on the slopes of Lebanon, London, Vintage Books, 1991, p.

(20) Amos oz, state of Israel, state of palestine, Each side Source and responsible, the inernational Herald Tribune, 3/2/1995, p. 4.

(٢١) انظـر: د. عـلاء الأسـواني، " حنّـه وميخائيـل.. روايـة صـهيونية مليئـة بالأكاذيـــــب "، جريـــــدة " الشـــــعب "، القـــــاهرة، ١٢/٤/١٩٩٤

الفصل الرابع

تهافت الخطاب التطبيعي

الفصل الرابع
تهافت الخطاب التطبيعي
المثقفون المصريون في مواجهة
" حلف كوبنهاجن "

" الثقافة هى ذاكرة الشعب، وتفريغ أمة من ثقافتها، أي من ذاكرتها وأصالتها، يعنى الحكم عليها بالموت ".

الكاتب التشيكى: ميلان كونديرا

" لقد أتى الاستعماريون إلينا عن طريق الكتاب المقدس، وبعد فترة تركوا لنا الكتاب المقدس، وأخذوا أرضنا بكل ما فيها ومن عليها أيضا ".

كوامى نكروما

" كل علاقة بإسرائيل: اعتراف صلح أو تطبيع، تعامل، تعايش.. إلخ إلخ.. هى الخيانة بحذافيرها ".

الدكتور. جمال حمدان

* * *

يُشَكِّلُ الخطاب التطبيعى، في منظوره العام، نموذجا مبتذلا لفكر انهزامى معزولٍ ومعادٍ، مُنقلبٍ على الذات، واستعلائى، يحتمى بادعاءات هزلية وهزيلة، لا تستند إلى الواقع، عن " وكالة " مختلقة، تتيح له التحرك باسم الشعب، و " نيابة " مفتعلة، تؤهله للتحدث باسم الجماهير، التي لم تفوضه أبدا في التحدث باسمها، بالرغم من أنه - في قرارة نفسه - يحتقر هذه الجماهير، ويعلن على رؤوس الأشهاد براءته من " جهلها "، كما سيأتى فيما بعد!

وهو يعكس - من ناحية أخرى - سلوكا انتهازيا، مراوغا، هلاميا، غامضا، سريع التحول، من مواقع شديدة " المبدئية " بل والتطرف، في مواجهة الفكر الصهيوني، و " العدو التاريخى " للأمة و " الدولة المزعومة.. " إلى مواقف شديدة الممالأة والانحياز والرياء، مغطاة بمسحة " سلامية " خادعة، في نزوع تبسيطى، تسطيحى، يتجاهل الأسس الجوهرية للصراع، ويقفز من المقدمات التي لابد وأن تقود إلى نتائج موضوعية، وصولا لتصورات ذهنية، يُهيئ لنفسه من خلالها دورا رياديا، ويمنح نفسه عبرها أهمية رفيعة المقام!!

وككل انتهازية فهى قدرة محضة على التلوُّن والتكّيف، وهكذا فحينما تكون رايات الدولة هى مقاتلة العدو الصهيوني، يكون هؤلاء دعاة صمود، وداقين لطبول الحرب، وعندما تتحول الدفة، يركبون الموجة، و " يبدعون " في الترويج لفلسفة " السلام والمستقبل "، الذي يبنيه " الجيران " حاليا. (الأعداء سابقا).. وهلم جرا.

وككل خطاب انتهازى، ذرائعى، انتقائى، لا يأنف الخطاب التطبيعى من الاستناد إلى خليط من المنطلقات المتنافرة لتدعيم أسانيده المهتزة، وتبرير دعواه المهترئة، فهو " إسلامى " المرجعية حينا، انطلاقا من الآية القرآنية:{وإن جنحوا للسلم فاجنح لها}!.. إذا تطلب الأمر ذلك، وهو " أوسطى " النوازع، حينا، انطلاقا من الادعاء

بأوسطية الجذور المصرية، التي تنتمى إلى عالم " المتحضرين "، مثل إسرائيل.. إذا اقتضى المقام، وهو " كوكبى " الهوى إذا دار الحديث عن " العولمة " يدّعى انتفاء الصراعات القومية، وضرورة تجاوز الروح الوطنية (الضيقة)، وهو " يسارى " المنابع حينا آخر، يزعم وحدة " اليسار " المصرى والإسرائيلى، في مواجهة التطرف اليمينى، لكلتا الضفتين.. إلخ!.. لكنه في كل الأحوال فاشى النزعة، إرهابى المنحى، لا يقبل الاعتراف بهزيمته الفكرية، فيزِّيف إدارة الجماهير، ويهرب من الإقرار بعزلة مواقعه السياسية، ويستند إلى " ترسانته " اللغوية، وإلى مواقعه قريبا من النظام، لشن حربًا صليبية ضد خصومة، ولقطع الطريق على اجتماع كلمة مناوئية.

ولعلنا نستطيع أن نُقسِّمَ التطبيعيين في مصر، وربما في العالم العربي إلى أربعة أقسام محددة المعالم:

الأول: القطاع الأكبر، وهو الذي تحكمه " تهويمات " إنسانية عامة، وتؤثر فيه خدع التكنولوجيا الإعلامية المعاصرة، فيظن أن السلام قد استتب، منطلقا من فكرة أن " الصلح خير ". وهو يأمل - كما وعدوه - في أن حلول " السلام " سيكون مدخلا مؤكدا للرخاء والتقدم، وهذا هو - على الأرجح - موقف القطاع الأعرض، غير المسَيَّس، المتأثر بتوجيهات - أجهزة الإعلام، ومواقف الدولة الرسمية، وادِّعائات سدنة النظام.

والثانى: وهو موقف القطاع الذي ينتمى بصورة أو بأخرى لأجهزة الدولة أو للحكومة - فهو تطبيعى حينما يُضاء الضوء الأخضر للتطبيع، وشديد العداء للعلاقة مع إسرائيل، حينما تدفع تكتيكات السلطة لموقف مناقض، وهو على اتساع قاعدته النسبية موقف لا قيمة له وغير ثابت، لأنه يؤدى دورة بروتينية لا روح

فيها ولا حياة ولا إبداع، وإن كان موقفه مؤثرا في تشكيل وجهات نظر " الجماهير " لأنه - في الأغلب - يسيطر على الصحف وأجهزة الإعلان والمؤسسات الصحفية الرسمية، وأخطرها التليفزيون والصحف المسماة بـ " القومية ".

والثالث: ذلك الجناح الذي يقوده تحرره الفكرى، وتطلعاته الاستراتيجية لتخوم التطبيع - حتى وإن كان في أعماقه رافضا لنتائجها، مدركا لمخاطرها، وهو حين يدعو للحوار مع الإسرائيليين يحيط دعوته بعشرات من التحفظات، التي تصادر عليها، وتنفيها في جوهرها، وبعض من عناصر هذا القسم يربط بين الديكتاتوريات القائمة في العالم العربي وما قادت إليه من هزائم وانهيارات وتخلف، وبين بقاء قضية الصراع العربي الإسرائيلي معلقة على امتداد نصف القرن الماضى، ويظن (وبعض الظن إثم!) أن حل هذه الإشكالية المزمنة، سيكون المدخل لتوسيع قاعدة الحريات الديمقراطية، وبناء مجتمع جديد متقدم ومتحررا!!.

الرابع: وهو الأخطر، ذلك الذي يدعو للتطبيع عن وعى وإدراك نابع من مصالح استراتيجية تربطه بالعدو الإسرائيلي، وتضعه مع الإسرائيليين في علاقة ذات أبعاد عميقة، تدفعه لأن يقوم بعملية تزييف واسعة، تستهدف تجميل وجه العدو والدفاع عن ممارساته، والتماس المبررات له، انطلاقا من إدراك عميق بأنه إذ يدافع عن العلاقات مع إسرائيل، تحت شتى الذرائع، فإنما يدافع عن مصالحه ذاتها!

التطبيع... وسنينه !

١ - الأساس الاجتماعى لـ " تحالف كوبنهاجن " :

ولذا فيخطئ من يظن أن أية " مناشدات أخلاقية لـ " عصبة كوبنهاجن " سوف تؤدى إلى ارتدادهم عما اعتزموه أو تراجعهم عما خططوا له: ولا يعود هذا إلى

موقف ذاتى من هذا الفرد أو ذاك من الأفراد المشاركين، وإنما يستند رأينا هذا إلى فهم موضوعى أعمق لواقع ما تم، وحقيقة ما قطعوه من مسار، ويعكس إدراكا لعمق التحولات الطبقية في المجتمع، تلك التحولات التي مهدت لهذه النظرية الخطرة، وجعلتها ممكنة، ويَسَّرت حركة هذه المجموعة ودافعت عن سلوكياتها.

وبمعنى آخر فلا جدال أن عمليات التحول الاجتماعى والاقتصادى والسياسى - التي تجرى على قدم وساق - في مصر، منذ ما يقرب من ثلاثة عقود قد أتت أكلها، وخلقت فئات اجتماعية وطبقات، ارتبطت عضويا بمصالح ضخمة ومتداخلة مع كل من الأوساط الرأسمالية العالمية، من جهة، والرأسمال الصهيوني من جهة أخرى، وهذه الجهات تؤثر سياسيا الآن في مجريات التسوية مع العدو الصهيوني، وهى تتبنى، وتدافع عن، وتدفع العديدين، باتجاه إنشاء وحماية قنوات الاتصال السياسى والثقافى مع الأوساط الصهيونية، بل وهى كذلك تمول هذا " المشروع " وتنفق عليه ببذخ، لأنه يخدم خططها ويحمى ظهرها، ويسهم في إحداث تحولات فكرية وثقافية في المجتمع المصرى، وهى في مسيس الحاجة لها، لضمان عدم إدانتها أو تجريمها من جراء مسلكياتها غير الوطنية.

ويحظى تعاون رجال الأعمال المصريين ونظرائهم الإسرائيليين بدعم وتحبيذ الولايات المتحدة الأمريكية ومباركة مسؤوليها، الذين يعتبرونه - مثلما عبر " مارتن إنديك " السفير الأمريكى في إسرائيل - " السبيل الأفضل لتحقيق السلام الكامل في المنطقة " مدعيا " أن رجال الأعمال - على الجانبين - يفهمان الصلة الوثيقة بين السلام والازدهار " [(١)]، ويعتبر " الممر الإسرائيلي " هو الممر الأساسى المتاح، لاستفادة رجال الأعمال المصريين والعرب من القروض و " المساعدات " المالية الأمريكية، وللتمتع بكافة أشكال التسهيلات المتاحة في

مجالات نشاطهم.

وفى هذا السياق، على سبيل المثال، يمكننا رصد حركة قطاعات هامة من مؤسسات وهيئات الدولة، ومن رجال الأعمال الذين يتعاونون مع الصهاينة عبر عشرات المشاريع الصهيونية النشطة في مصر، في مجالات السياحة والزراعة والبترول والنسيج والكمبيوتر والمنتجات الغذائية والنقل البحرى والأدوية والمعدات الكهربائية وصناعات الأخشاب والمصنوعات الاستهلاكية.. إلخ. التي تمارس نشاطها في مصر، وتدخل في علاقات عمل وتبادلات اقتصادية ومصالح متشابكة مع قطاعات من الموظفين ورجال الأعمال والمهنيين المصريين، وقد صرح " دان بروبر " رئيس الغرفة الصناعية الإسرائيلية أن " الاستثمارات الإسرائيلية في مصر قد شهدت قفزة خلال السنوات الماضية "، فيما أكد رئيس الغرف التجارة الإسرائيلية " دانى جلر " أنه " على الرغم من التوتر الذي يسود المستوى السياسى بين كل من مصر وإسرائيل، فقد تم عقد عشرات الصفقات مؤخرا عن طريق اتحاد الغرف التجارية ومعظمها تتمثل في تصدير واستيراد أدوات ومعدات زراعية حديثة وقطن وملابس "، وقد قدمت إسرائيل خلال " مؤتمر القاهرة الاقتصادى " الذي عقد أوائل ١٩٩٧ مجموعة متكاملة من المشروعات التي أثارت اندهاشا داخل أوساط رجال الأعمال المصريين (ولم الاندهاش!!) بسبب طبيعتها الاستراتيجية ودقتها وترابطها، وحسبما نشر في جريدة " العالم اليوم "، فإن المشروعات التي تقدم بها الإسرائيليون خلال " مؤتمر القاهرة الاقتصادى " كانت، متعددة وذات دراسات عالية الجودة، بشهادة المصريين أنفسهم، ولكن طبيعتها غريبة وخطيرة لدرجة توحى بأن هناك نوايا مخططة من وراء هذه المشاريع [٢].

ومجموع هذه المشروعات ذات التوجه الأقليمى (Network) - حسبما نشرت الجريدة - بلغ عددها ٣٥ مشروعا، بقيمة ٢.٢ مليار دولار،

أحد هذه المشروعات " حماية مناطق مصر الصناعية " ويتضمن إقامة حائط أمنى ودفاعى في مصانع مصر الكبرى ضد التجسس الصناعى والحرائق، ومقترح للمشروع مدينة العاشر من رمضان، كتجربة نموذجية، على أن يعمل فيه في السنوات الأولى خبراء من إسرائيل!، **وهناك مشروعات أخرى مقترحة أهمها:**

- مشروع طابا - إيلات - العقبة: كشبكات لمياه الشرب وإقامة شبكة صرف صحى وشبكات ربط كهرباء، وتقدر قيمة المشروعات بـ ٤٥٠ مليون دولار، وتحدد سنة ٢٠٠٠ لاستكمال هذا المشروع.

- مشروع قناة بين البحر الميت والبحر الأحمر: ويقدر استثماراته بـ ٥٥٠٠ مليون دولار.

- مشروع الربط الكهربائى بين مصر وغزة وإسرائيل: وتقدر قيمته بـ ١٨٧ مليون دولار.

- إقامة قنوات للغاز الطبيعى بين مصر والأردن، ثم إسرائيل: وتقدر قيمته ٨٠٠ مليون دولار.

- في مجال النقل والمواصلات: عرضت إسرائيل عدة مشاريع لإنشاء الأتوستراد (High Way) على ساحل البحر الأبيض، ويربط بين مصر وإسرائيل وغزة، إضافة إلى ربطه بسكة حديد بين مصر وإسرائيل وقيمتها ٦٠٠ مليون دولار، يضاف مطار دولى في رأس النقب بتكلفة ١٠٠ مليون دولار.

- في مجال الاتصالات: عرضت إسرائيل ٦ مشروعات بقيمة ٨٣ مليون دولار.

- في مجال السياحة: هناك ١٧ مشروعا إقليميا منها ١٠ تشارك فيها مصر وتُقدَّرُ قيمتها الإجمالية ٥٠٠ مليون دولار.

- وفى مجال البيئة والصناعات البيئية: هناك ١٣ مشروعا، بقيمة ١٠٠ مليون دولار.

- وبالنسبة للتجارة والصناعة: عرضت إسرائيل ١٣ مشروعا، منها إقامة مناطق حرة، وقُدِّرت بـ ٥٠٠ مليون دولار.

- ورصدت ٢٠٠ مليون دولار أخرى قيمة مشروعات خاصة بإقامة منتزهات ومحميات وخدمات خاصة بالسياحة والتجارة البحرية (٣).

وعلى الضفة الأخرى من النهر، فإن بعض رجال الأعمال المصريين الكبار، ردوا التحية بأحسن منها!.. وتبادلوا عمليات الاستثمار المالى والصناعى في مشاريع بالدولة الصهيونية، وتم - حسب رأى العديد من خبراء البنوك المصرية - نزح الملايين من الدولارات من البنوك المصرية لإعادة توظيفها في إسرائيل، في الوقت الذي تحتاج البلاد فيه لكل استثمار وطنى للحد من البطالة المتفشية، ولرفع معدلات المعيشة المتدنية، وعلى رأس هؤلاء الرأسماليين المصريين، يقف " إبراهيم كامل " - رئيس مجموعة " كاتو ". الملياردير المصرى، صاحب العلاقات رفيعة المستوى والوثيق الصلة بالأوساط الحاكمة، الذي زار إسرائيل في شهر فبراير الماضي، يرافقه كل من " د. طاهر حلمى "، رئيس شركة " بيكر وماكنزى " في مصر، و " منصور الطرزى "، رئيس شركة " البيت الاستثمارى المصرى ". وقد التقوا في زيارتهم مع " بنيامين نيتنياهو " رئيس الوزراء الصهيوني، وكذلك مع " شمعون بيريس " رئيس وزراء إسرائيل السابق، ورئيس حزب العمل. و "

دان مير دور " وزير المالية الصهيوني، وكذلك التقى " الوفد المصرى " مع " ديفيد ليفى " وزير الخارجية الصهيوني و " شارنسكى " محافظ البنك المركزى الإسرائيلي "، وقد اشترى " إبراهيم كامل " حصصا في رأس مال مجمع " كور " الصناعى، الذي يمارس أنشطته في تصنيع الأسلحة والتكنولوجيا المتقدمة، وله استثمارات كبيرة في صناعة الأسمنت، ويمثل نحو ٧% من مجمل القطاع الصناعى الإسرائيلى، وأعلن في لقائه مع نظرائه الصهاينة أنه " ليس هناك تحفظ على الإطلاق على قيامهم بالاستثمار في مصر في المجالات المفتوحة أمام الاستثمار الأجنبى، وهى مجالات عديدة واسعة، كما أننا شرحنا لهم التسهيلات والتيسيرات الجديدة التي أدخلتها الدولة مؤخرا على القواعد والإجراءات المنظمة للاستثمار في مصر، والحوافز التي أضيفت بقوانين سنَّها البرلمان، أو بقرارات صدرت عن مجلس الوزراء، ودخلت على الفور إلى حيز التنفيذ " (٤).

وكان " سعيد الطويل " رئيس جمعية رجال الأعمال المصريين، قد زار إسرائيل عام ١٩٩٥، على رأس وفد اقتصادى، والتقى - خلال الزيارة - مع " شمعون بيريس "، رئيس الوزراء الإسرائيلى - آنذاك - ومسؤولين في وزارات الخارجية والاقتصاد والمال، وأبرم اتفاقات للتعاون المشترك مع مؤسسات مالية إسرائيلية، وبرر " سعيد الطويل " زيارته قائلا: " إن التعاون الاقتصادى قد يصلح ما أفسدته السياسة، وما نفعله ليس إلا حلقة وصل مع جهود السلام! " (٥).

وحتى في ذروة الصدام مع السياسات العدوانية المتطرفة لبنيامين نيتنياهو وحكومته، وفى ظل قمة الغضب الجماهيرى على ممارسات الدولة الصهيونية الخطيرة التي أغلقت كل نوافذ الضوء أمام مسارات التسوية، ودفعت المنطقة إلى تخوم الحرب، كانت العلاقات الاقتصادية بين الرأسماليين المصريين، والعرب،

من جهة، وبين نظرائهم الصهاينة من جهة أخرى.. " سمن على عسل " كما يقول التعبير الدارج.

ففى شهر مارس عام ١٩٩٧، مثلا، عقد في نيويورك مؤتمر " مصر: إدارة النجاح "، حضره ممثلاً للشركات الإسرائيلية - " بن جاعون "، رئيس مؤسسة " كور " الصناعية الإسرائيلية العملاقة (السابق الإشارة لها)، والتى تعمل في مجالات التسليح وتكنولوجيا الاتصالات والصناعات الكيماوية والمقاولات والإنشاء والتشييد والصناعات المكملة والتوريدات وخلافة.

وقد أعلن " بن جاعون " أن رجال الأعمال المصريين، الذين اصطحبوا " إبراهيم كامل " في زيارته لإسرائيل، قد ناقشوا مع المسئولين فيها عددًا من المشروعات المشتركة التي تخضع للدراسة، منها مشروعات متقدمة للاتصالات، ومشروعات لشراء وتطوير أحد مصانع الأسمنت، وأخرى تتعلق بالزراعة والكيماويات.

وتمتد علاقات " شركة كور " - التي افتتحت مقرا لها في مصر منذ عام ١٩٨٠ - فتشمل مشروعات شبيهة في كل من الأردن، ومناطق " السلطة الوطنية الفلسطينية "، ويقول " بن جاعون " : أن " لا سلام بدون تعاون اقتصادى "، وأن " خصخصة السلام هو طريق النجاح! ".. ومن وجهة نظره فإن لمصر - في مخطط التطبيع الاقتصادى/ السياسى/ الثقافى، موقعا رئيسيا، لأن " مصر سوق ضخم، بل أضخم أسواق المنطقة " وهو يُثَمِّنُ خطوة " إبراهيم كامل " بشراء حصه من أسهم شركة " كور "، لأنه أثبت أن " البيزنس مع إسرائيل حلال.. وهذا المبدأ هو أهم ما حققته صفقة د. " إبراهيم كامل " مع " كور "، وهو مبدأ يعنى لنا (أي لإسرائيل) الكثير! " [٦].

ومن الطبيعى، والمنطقى، أن يكون لهذه العلاقات الاقتصادية، المادية، الوثيقة والمتنامية، بين قطاعات من الطبقة الحاكمة المصرية ونظائرها الإسرائيلية، وبين العديد من أجهزة الدولة المصرية (وبالذات في مجال الزراعة والسياحة) ومثيلاتها في إسرائيل. انعكاسات اجتماعية وسياسية وفكرية وثقافية (بالمنظور الواسع) أيضا، خاصة وأن الدولة باركت وتبارك مساعى هذه الفئات - في مناسبات عديدة - مثلما تبدى من تصريح " عمرو موسى "، وزيرالخارجية المصرى، المؤيد لإتفاق " كوبنهاجن "، والمنتقد لمعارضيه.

وكخطوة في هذا السياق، شديدة الأهمية والدلالة - التقى وفد من رجال الأعمال المصريين، ضم " محمد فريد خميس " رئيس اتحاد الصناعات المصرى السابق، و " محمود عبد العزيز "، رئيس اتحاد البنوك المصرية، و " محمود أبو العينين " رئيس مجموعة " سراميكا كليوبترا "، والدكتور " أحمد بهجت " رئيس مجموعة " جولد ستار "، و " عبد الوهاب قوطة " عضو مجلس الشعب، و " كمال أبو الخير "، رئيس مجموعة " كميدار " للاستثمار والتنمية السياحية، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الكُتّاب والمثقفين، مع رئيس الوزراء الصهيوني " بنيامين نتنياهو "، في زيارته لمصر.

ومن الغريب!! أن هذا اللقاء شهد طلبا تقدم به أحد رجال الأعمال المصرين، إلى " نيتنياهو "، يدعوه فيه للضغط على " البابا شنودة " والكنيسة المصرية، حتى تسمح للأقباط المصريين " بزيارة القدس والحج إلى بيت المقدس!! " [٧]، وهو تصرف يعكس بوضوح المستوى الهابط لوعى بعض رجال الأعمال المصريين، إلى الحد الذي يدفعهم للاستعانة بعدو أمتهم من أجل حسم خلافات داخلية، ولتغليب مصالحهم الضيقة على مصالح الوطن!.

وتلتقي هذه الانعكاسات الهامة، مع تطلع صهيونى عميق، يستهدف تطويع الإرادة الثقافية المصرية المقاومة له والمعادية لمشاريعه وطموحاته في الهيمنة على بلادنا ومنطقتها، وهذه التطلعات ليست حديثة العهد، وإنما تعود إلى سنوات طويلة ماضية، حتى قبل أن تتبلور العلاقات السياسية والاقتصادية أو تتخذ ملامح مستقرة، وهو ما يشي بخطورة هذه التوجهات، وأهميتها القصوى من منظور الاستراتيجية الصهيونية.

٢ ـ التطبيع الثقافي غاية صهيونية :

في أوائل عام ١٩٧٨، وبعد فترة وجيزة للغاية من رحلة " السادات " إلى القدس (الأمر الذي يقطع بأن الأمور كانت مهيأة ومُعدَّة مسبقا)، صدر عن مؤسسة " فان لير " بالقدس (the van leer jerusalem Foundation) دراسة متعددة الاتجاهات، تناولت الرؤية الإسرائيلية لسبل تحقيق " السلام "، الأمريكى - الإسرائيلي، في المنطقة، ومردوداته بالنسبة لإسرائيل على كل المستويات: الاستراتيجية والفكرية والاقتصادية، الدراسة نشرت تحت عنوان: " إذا ما حل السلام: المخاطر والتوقعات: Risks and prsopects if peace Coming، وحررها " ألوف هاريفين "، وشارك فيها نخبة من علماء السياسة والاقتصاد والثقافة الإسرائيليين هم: " شلومو أفنيرى "، " مائير دوشاليت "، " يتسحاق دورر "، " أجيديون هاشمشونى "، " شالهيفيت فرير "، " إلياهو كانوفسكى "، " إسحاق رابين " ألعازار شمولى "، الذي كتب بحثا مكثفا وشديد الأهمية فيها، تحت عنوان " التعليم والثقافة " بدأه بتحديد أن السلام بين إسرائيل و " جيرانها " ينبغى أن يكون له انعكاسات قوية على الثقافة ونظم التعليم لمواطنى المنطقة، ومشيرا إلى أن هذه التأثيرات سوف تمتد إلى التشكيلات الثقافية ولخريطة النشاطات الثقافية

للأفـراد، ومؤكـدا علــى أن عمليــة " إعــادة تشـكيل "، أو " نمذجــة " (Remodel) عملية التعليم بشقيها: النظرى والتطبيقى ستمتد للتأثير علـى الحياة اليوميـة للبشر، وعلى مكونات الرؤى الاجتماعية والثقافية للمجتمعات في المنطقة، وهو ما تحقق، بالفعل، للأسف الشديد، فيما بعد!.

فعمليـة فتح الحـدود - كمـا ذكـر " شمولـى "، لـن تـؤثر فقط علـى التبـادل التجـارى، وإنمـا سـيمتد تأثيرهـا إلـى عناصـر المعرفـة وحركـة الأفكـار والمعـارف، وكـذلك سيتأثر بها العلماء والمعلمون والفنانون.. وعبر عملية " التدفق الثقافى " هذه يمكن إحداث تغيرات ممكنة للنظم المعرفية، التعليمية والثقافية، يتم بمقتضاها نشر اللغات المتبادلة وتَعَرُّف كل طرف على أفكار وثقافة الطرف الآخر، وتشجيع القبول بـه وبتاريخه وحضوره " الزمنى والجغرافى " كمدخل أساسى وضرورى لاستقرار عمليـة التسوية السياسية، وكشف " شمولى " الستار عن مؤتمر نظمتـه جامعـة " هارفارد " الأمريكية (في ديسمبر ١٩٧٦)، أي قبل رحلة السادات للقدس بنحو عام كامل، لإثنى عشر مسئولا في مجال التعليم، من مصر وإسرائيل وإيران وتركيا، تدارسوا معا " معضلات التعليم ". خلال فترة انعقاد المؤتمر، وهُيئ خلال هذا الملتقـى مـا أسـماه الباحـث " منـاخ تـوافقى " لاجتمـاع المسـئولين المصـريين والإسرائيليين، بعيدا عن المؤثرات الناجمة عن المشكلات السياسية اليومية، لبحث مستقبل العلاقات الثقافية بين البلدين في ظل احتمالات التسوية المرتقبة!.

تشير هذه الوقائع وغيرها، بوضوح قاطع إلـى مستوى الاهتمام الذي أولتـه الدولـة الصهيونية، منذ لاحت بشائر المفاوضات السياسية بينها وبين الأطراف العربيـة والسلطة المصرية على رأسها، لقضية الثقافة والفكر والعقل في بلادنا، فهى تعرف جيدا أن الصخرة التي تتحطم عليها خطط التسوية هى صخرة المثقفين الذين وقفوا

بالمرصاد في مواجهة محاولاتها الدائبة لاختراق جدار الرفض المصرى الشعبى، وهى تعرف جيدًا أن تغيير الأفكار والمشاعر الكامنة في أعمال العقل والوجدان، هو الذي يضمن لها استقرار ما تتوصل إليه من اتفاقات مع النظم العربية، وبدون حدوث هذا الأمر، فكل شيء يمكن أن ينهار في لحظات!.

وقد كان " إسحاق نافون " الرئيس الصهيوني الأسبق، واعيا أشد الوعى إلى هذا البعد المحورى من أبعاد الصراع، وفى خطابه بجامعة " بن جوريون "، (٢٧ مايو ١٩٧٩)، وبحضور " أنور السادات "، ذكر أن " تبادل الثقافة والمعرفة لا يقل أهمية عن أية ترتيبات عسكرية وسياسية "، وقد أعلن هذا الخطاب أن الإسرائيليين عاشوا طويلا يرافقهم شعورهم المبتور " المرسوم عنا في أدبكم ووسائل إعلامكم، والتى لم يكن لها أساس من الواقع!!! [٨]، ثم عاد وكرر لدى زيارته لمصر، فيما بعد، هذا الزعم، داعيا إلى اتخاذ إجراءات محددة تستهدف تبديل " صورة الإسرائيلى " لدى العقل العربي، وقال إن كل صياغة أدبية أو دينية تخالف التصورات الصهيونية " تُعَدُّ مساسا بالسلام! " وأعلن عن الحاجة إلى تشكيل قيادة مشتركة أسماها " قيادة السلام العليا! "، تتألف من المفكرين وعلماء النفس وأساتذة علم الاجتماع وبعض السياسيين، " مهمتها بحث الوسائل المناسبة لإقرار السلام وتعميقه بين الشعبين! " [٩].

لماذا تهتم إسرائيل هذا الاهتمام البالغ بالتطبيع الثقافى بينها وبين العرب، والمصريين في المقدمة؟! ولماذا تولى مسألة " إعادة نمذجة " العقل المصرى كل هذه العناية؟! ولماذا تضع عملية إعادة رسم " صورة الإسرائيلي " في المخيلة العربية والمصرية، على نفس مستوى أهمية الترتيبات السياسية والعسكرية بينها وبيننا؟!

للإجابة على هذه الأسئلة الهامة، وغيرها، ينبغى أن نبدأ " الحكاية " من أولها، فيكون المدخل الطبيعى للإجابة على هذه التساؤلات هو الإجابة على سؤال أولى ماذا نعنى بالثقافة؟!

٣ ـ مفهوم الثقافة ودورها :

والثقافة التي نتحدث عنها في هذا المجال، هى الثقافة بمعناها الحقيقى الواسع، " أي مجمل الأفكار والقيم العليا والمعتقدات والانحيازات والخرافات، التي تشكل الإطار العام لحركة المجتمع، وهذه الثقافة التي تُعَبِّرُ عن نفسها في الآداب والفنون القولية والشكلية، وفى العادات والتقاليد، والأمثال والنوادر والحكم الشعبية، وفى التراث الشعبى عامة، هذه الثقافة هى التي تميز شعبا عن غيره من ناحية، كما أن دراستها وفهمها يسهلان عملية فهم الشعب والتعامل معه من ناحية أخرى [١٠].

ومن هذا المنطلق، يمكننا أن ندرك استهدافات إسرائيل من تطبيق بنود " الاتفاقية الثقافية " الموقعة بينها وبين الحكومة المصرية، في القاهرة، يوم ١٩٨٠/٥/٨، والتى تضمنت ثمانى مواد هى:

تشجع التعاون في المجالات الثقافية والعلمية والفنية، وتشجيع تبادل الزيارات بين العاملين والخبراء في هذه المجالات، فضلا عن تبادل المطبوعات الثقافية والعلمية والتعليمية وبرامج الإذاعة والتليفزيون والأفلام الثقافية والعلمية.. وغير ذلك [١١].

وكما هو معروف فإن الثقافة تشكل السياج الحامى لتراث الأمة وأفكارها وتجلياتها الإبداعية، ومن هذا المنطق تتجسد الاستجابة الإيجابية للتحديات الثقافية بتبنى ثقافة المقاومة والفعل والإنجاز والانفتاح والتسامح، أو تتجسد الاستجابة السلبية للتحديات بسيادة المفاهيم الماضوية، الانتكاسية، السكونية الارتدادية المغلقة، ونرى

هذا البعد الآخر " السلبى "، في الثقافة الهروبية التي تتخندق في الماضى، وتستدعى نموذج العصور الذهبية. لمواجهة تحديات الحاضر، وتروغ من حل إشكاليات اليوم بالحياة في الأمس، وهذا أمر طبيعى، ذلك أن " ردة الفعل المباشر على كل ما هو طارئ ووافد بقوة، هى العودة إلى المخزون التراثى، لذا توافقت المقاومة المباشرة للغريب والمحتل والغرب ببعث الثقافة القومية، وبلغ هذا السلوك سقفه مع الاتجاه الأصولى " (١٢).

وربما كان العدو الصهيوني أكثر إدراكا - بحكم وعيه بمكامن القوة والضعف فينا، وبحكم الخبرة العملية أيضا - لأهمية دور العنصر الثقافي الوطنى في التصدى لمحاولات اختراقه الدائبة لبلادنا، فهو يعرف جيدا أنه طوال عقدين من السنين، (١٩٧٧ - ١٩٩٧)، فشل في تحقيق أية إنجازات ذات قيمة، على المستوى الشعبى، وظلت الشكوى الدائرة لممثليه الرسميين من عجزهم عن الوصول إلى الشارع المصرى، أو اختراق حاجز الكراهية الشعبية والعزلة القاتلة، مثلما عبر " موشيه ساسون " السفير الإسرائيلي السابق في كتابه " سبع سنوات في بلاد المصريين "، ومن ثم فقد تبلورت خططه، في هذا السياق، في المحاولة المستمرة لتفتيت الإجماع الثقافى المصرى الرافض - جذريا - لوجوده أو التعامل معه، عن طريق السعى للتدمير الداخلى للقيّم الثقافية الوطنية المحتشدة في مواجهته، واستبدالها بمنظومة جديدة رخوة، ضعيفة التماسك، قابلة للاجتياح، سهلة التطويع.

٤ ـ انحطاط الخطاب التطبيعي :

وقد نجح هذا المخطط المعادى للوطن ومصالحه، وساعدت الأنظمة العربية، مجتمعة ومنفردة، في دفع هذه التوجهات الخطرة والسماح لها بالحركة والتأثير، وحمتها، في الوقت الذي حاصرت فيه بقسوة وعدوانية، الرؤية الوطنية،

وحاربتها، بكل سلاح متاح، وبات لـ " اللوبى الصهيونى "، أو " الطابور الخامس " الإسرائيلي في مصر، منابر ورموز ومحافل تنطق بدعوته، وتدافع عن أفكاره التي رَوَّجَ لها للأسف، بعض من كبار مثقفينا ورموزها، مثل " توفيق الحكيم " الذي أخذ يطالب بـ " حياد مصر "، أي بانعزالها عن الامتداد العضوى العربي، محققا بذلك غاية استعمارية صهيونية أساسية، وكذلك " د. لويس عوض " الذي اعتبر العروبة " لونا من ألوان النازية " [١٣]، وهو وصف متجاوز شديد الإجحاف، غير علمى، ولا موضوعى، ويفيد منه في المقام الأول عدونا الصهيوني، الذي ظل يبتز العالم بجرائم النازية طوال الخمسين عاما الماضية.. والأغرب من هذا كله أن هذا التوصيف، بحذافيره، هو ذاته الذي استخدمه الإرهابى الصهيونى " بنيامين نيتنياهو " رئيس الوزراء الإسرائيلي لتبرير سلوكه وسلوك حزبه في مواجهة العرب، فهو يقول في كتابه " مكان تحت الشمس " [١٤]: " يجب ألا نستغرب إذا رأينا أن العرب اليوم يطبقون أجزاء مهمة جدا من استراتيجية الدعاية النازية "، (ص: ١٩٠)، " إن التشابه الكبير بين نظريتى القومية النازية والعربية، يبدو أمرا طبيعيا ومفهوما لدى كثيرين من الشعب العربي! " (ص: ٢١٧)، وهو أكبر دليل على انحطاط الخطاب التطبيعى، ودونيته، في مواجهة منطق الأعداء التاريخيين للأمة، والذى ينتهى به المقام إلى تبنى أطروحاتهم والنطق بلسانهم الصريح!.

وإذا كان مثقفون وكتاب كبار من وزن " توفيق الحكيم " و " لويس عوض " قد جانبهم الصواب في رؤيتهم لجذور الصراع وأبعاده، واستهدافاته في المنطقة، إلى هذا الحد، فإن الرعيل الجديد من مفكرى التطبيع، في مصر والعالم العربي، قد تمادوا في غيِّهم، ووصلوا في أطروحاتهم حدودًا غير مسبوقة، وبذلوا في سبيل

خدمة أهدافهم التطبيعية كل مرتخصٍ وغال، وبلغ انحطاط الخطاب التطبيعى لديهم جدًا يثير الرثاء، ويعكس - بصورة جلية - إحساسهم الدفين بعمق الجريمة التي ارتكبوها في حق الوطن، بتخطيهم " الخط الأحمر " للثوابت الوطنية المستقرة في ضمير الأمة، وأولها الدفاع عن مصالحها الوطنية وتراثها وثقافتها.

ويمكن لعينة من نماذج هذا الخطاب أن تشير إلى مضمونه ومحتواه ولغته، وأن تعكس مستوى الانحطاط " الموضوعى " الذي وصل إليه.

*** علي سالم: لا خطر من إسرائيل ولا طموحات لها في بلادنا والشعب المصرى شعب جاهل!:**

" على سالم "، الذي يصفه الكاتب " محمود مراد " في جريدة " الأهرام "، باعتباره: " النصير الأول لإسرائيل، وحامل لواء الدفاع عنها، والمبشِّر بعظمتها، وبما يمكن أن نجنيه، نحن المصريين والعرب، من خسارة إذا تجرأنا وتشجعنا على التصدى لها، ليس بالعدوان - كما فعلت - وإنما لكى نطالب بحقوقنا، وبالتمسك بالعدل والعدالة " [١٥]، هو أحد رواد التطبيع الثقافى (المصرى)/ الإسرائيلي، وقد بادر بالسفر إلى إسرائيل أكثر من مرة، بتمويل ورعاية جهات صهيونية، وكتب بعد عودته كتاب " رحلة إلى إسرائيل " (كتاب اليوم - ١٩٩٦)، الذي ينضح بالإعجاب بالأصدقاء الصهاينة، وبالتهجم على مصر وتراثها وثقافتها، ونعرض - هنا - لأهم الأفكار التي يتبناها " على سالم "، ويطرحها في أحاديثه وكتاباته [١٦]:

١ - لا تمثل إسرائيل أدنى خطر على المنطقة " على الإطلاق، لا في المدى القريب ولا في المدى البعيد "!، وهى كذبة صفيقة ينكرها الماضى والحاضر

وتفضحها النوايا الصهيونية والمخططات الإسرائيلية المعلنة والمستورة!.

٢ - الخطر الحقيقي - على مصر والمنطقة العربية - كما يحدده " على سالم "، يأتي من " أصحاب الأفكار الشمولية، (اليساريين)، والفاشست (الناصريين). و " حزب ا لله " و " حماس " والجماعات الإسلامية والإخوانية، (أي الشعب كله بكافة طوائفه واتجاهاته).

٣ - " المدافعون في مصر عن القطاع العام "، " هم المدافعون عن استمرار الحرب مع إسرائيل، وهم ليسوا أكثر من أدوات لجهات حكومية!! "، وكأن الدفاع عن ثروة الأمة جريمة، وكأن " الجهات الحكومية " المزعومة هى التي تدفع معارضى نهب الوطن للمعارضة، من وجهة نظر " على سالم "، متجاهلاً أن هذه الجهات ذاتها هى صاحبة القرار الأول والأخير في تبديد ملكية الوطن، وتصفية ركائز نهضته الاقتصادية تحت شعار " الخصخصة " الشهير.

٤ - " الشعب المصرى جاهل، لن يستطيع أن يفهم معنى زياراته (أي زيارات على سالم لإسرائيل) إلا إذا تخلى عن هذه الجهل(!)، (من حديث مع " ليلى نجار "، مذيعة التليفزيون الإسرائيلى في برنامج " لقاء مع ليلى ")، وهو من جهله ضد مصلحته!!.

٥ - " المثقفون المصريون بشيخهم (نجيب محفوظ)، و " فتحى غانم " مع السلام (الصهيوني!).. ولا أريد أن أورط أحدًا بذكر اسمه!؟ " وعندما سألته المذيعة عن موقف النقابات المعارض بقوة للعلاقات مع إسرائيل (مثل نقابة الصحفيين والمحامين)، كان رد " على سالم " : " إنها ضد السلام لأنها نقابات تأسست في " أيام الحكم الشمولى، وما زالت تُحكم من الداخل بالحكم الشمولى "!!

٦ - " إسرائيل ليس لها طموح للهيمنة على النظام الشرق أوسطى، والخطر الأصولى المدعوم برغبات إيران التوسعية هو الذي يهدد المنطقة بالحرب ".

٧ - " أقرب شعبين لبعضهما البعض في المنطقة هما المصريون واليهود!، ففى أعماق اليهودي ما يدفعه للتصور أنه ينتمى إلى قبيلة مصرية خرجت من مصر، ومن ناحية درجة التحضر، يرى أنه والمصرى مكملان لبعضهما، وهو يكره أن يكون على عداء مع المصريين!!.

٨ - الشعب المصرى ضحية لحركة إعلامية مبتذلة، تجعله ضد حلفائه (أي إسرائيل)، حملة تصب في أذنه وعقله كل يوم أكاذيب عن ذلك العدو المرعب المخيف، وهذا العدو في تحليل الجيش الإسرائيلي نفسه، ليس أكثر من قرية إذا ما قورن بالمصريين! ".

*** سميح القاسم: معارضو التطبيع: " مزايدون " و " عنصريون " و " جبناء " وأولاد كلب "!:**

لسميح القاسم. كشاعر من شعراء المقاومة الفلسطينية، رصيد كبير من الاحترام والإعزاز لدى قطاع كبير من أبناء الشعب الفلسطيني والجماهير العربية، ولذا كانت الصدمة كبيرة للغاية في تحولاته الاستراتيجية التي مسخته إلى بوق ساقط من أبواق " التطبيع "، يدافع عن العلاقة مع الإسرائيليين، ويهاجم القوى الوطنية المصرية والعربية بأقذع الاتهامات والكلمات المبتذلة، التي لا تصدر إلا عن إنسان موتور، مهزوم، مُحبط فاقد الإحساس غائب الوعى.

وهذه عينة من خطاب التطبيعيين العرب، على لسان واحد منهم هو " سميح القاسم "، المناضل السابق (١٧).

يدين القاسم كل الذين يأبون أن يكونوا مَطّية لعدو أمتهم، ويسبهم بأقذع كلمات السباب فهم " مزايدون "، و " تجار مبادئ "، " يركبون المرسيدس "، و " عنصريون "، و " عرقيون، و " جبناء أقدامهم من قصب "، ويعتبر أن كل من يرفض الحوار مع الإسرائيليين هو " ابن كلب يزايد علينا.. ولن نسمح له بذلك "!!.

وبصرف النظر عن سوقية الحجج والألفاظ والاتهامات التي يوجهها " سميح القاسم " لنا، نحن المعارضين للتطبيع مع عدو أمتنا، وهى مسائل لا يمكن - بأى حال - التغاضى عن مدلولاتها مع مثقف عربى وفلسطينى كبير بحجم " سميح القاسم ". بصرف النظر عن ذلك، فما هى الحجج أو المبررات (القوية) التي يستند إليها " سميح " في إقراره لهذا الموقف؟!

يقول " سميح " مدافعا عن الدولة الصهيونية ومواطنيها الإسرائيليين: أنهم " جيران لنا وشركاء في الوطن والحضارة ولا مجال لتجاهلهم، ولا ينبغى للعداء السياسى أن يتحول إلى عداء عرقى "!!، والحق أن هذه الحجة شديدة الظلم والادعاء، وهى طعنة نجلاء ليس لنا فحسب، وإنما أيضًا للشعب الفلسطيني الصابر، ولسميح القاسم ذاته، الذي عاش عمره، واستمد مقومات شهرته، من التغنى بالوطن المسلوب وبمقاومة العنصرية الصهيونية الباطشة.

ليس " مائير " كاهانا " سيد العنصرية المعاصرة، الذي عمل على سحق الفلسطينيين وإهدار دمهم، بعربى، ولا العرب هم الذين اغتصبوا الأرض، وبقروا البطون، وهدموا الدور، وطردوا أهلها، وليس العرب هم الذين احتلوا بلادا كانت لهم (للشركاء والجيران الصهاينة)، بل هم، أشتات الأرض، الذين أتوا لكى يغتصبوها منّا في عز النهار. ولا يعنى هذا الأمر - بالطبع - أن العرب مبرؤون

من الخطايا.. لكنهم - في هذا الأمر بالذات - كانوا ضحايا ولم يكونوا جلادين.. ويمكن أن يُسأل ملايين الفلسطينيين، الذين ما زالوا مشردين، ترميهم الحدود للحدود، ويرفض الجميع فتح الأبواب لهم، عمن تسبب في هذه المأساة الإنسانية؟!.

كما أن التاريخ لم يعرف أن العرب كانوا عرقيين أو عنصريين، بل إن حضارتهم التليدة هى أبلغ دليل على التسامح والإنسانية، ففيها التقت الأجناس وتعددت المنابع، وما " ابن ميمون " و " السموأل " - اللذان يستشهد بهما سميح - إلا أبرز دليل على ذلك.

لقد فَرَّط العرب، والمفاوض الفلسطيني - بالكثير من أوراق الضغط، وباتوا بلا مصدر يُقَّوى موقفهم، ويحميهم من استبداد " الجار وشريك الموطن "، الصهيوني - على حد وصف " سميح القاسم "، وهم الآن يستجدون فيض رحمته، ويلوذون به من عبء مواجهة الواقع المر وتحمل مسؤولية تجاوزه.. وإذا ما فرط المثقفون الوطنيون، المصريون والعرب، بورقة التوت الأخيرة، " التطبيع! "، يكونون كمن يهدم بيته على رأسه، ويقف عاريا في مواجهة عدو لا يرحم.. لقد تحطمت محاولات اختراق جبهة المثقفين الوطنيين، على صخرة صمودهم، وليس لسميح، ولا لغيره، أن يغوونهم على تسليم آخر أسلحتهم وأسلحة أمتهم للعدو، نعم العدو، مهما كان رأى " سميح " وزمرته من غلاة المطبعين! والحق أن لجوء " سميح " إلى استخدام حجة " إزالة مخاوف " العدو الصهيوني، لتبرير عملية التطبيع، لهو أمر عجيب وشاذ بالفعل. فمن هو المعتدى عليه الذي يحتاج لإزالة أسباب تخوفه؟! واستخدام هذه الحجة المقيتة ليس إلا تكرارا خطيرا لمقولة إسرائيلية ابتزت بها الصهيونية العالم أجمع!!، وحينما يرددها عربى، فهو إقرار بأحقية عدونا فيما يردده من دعاوى زائفة وأباطيل كاذبة، يُرَوَّجُ بها لمفاهيمه العنصرية!

ويعترف " سميح القاسم " في ثنايا حديثه، بأن ما حدث داخل إسرائيل من تغيرات، مرجعه الأساسى، الحروب، وليس للأسباب الثقافية: " انتصار أكتوبر وعملية العبور هى التي غيرت، خروجهم من بيروت سنة ١٩٨٢ وانتفاضة الحجارة غيرتا أيضا "!! وهو عين ما نقول به، ويدحض مقولات " سميح " والمطبعين معه، من أساسه، فهذا كيان عدوانى، بنى على العنف وعبادة القوة، والصمود في مواجهته، والإصرار على الحق المغتصب، والذود عنه بقدر الطاقة، هو السبيل الوحيد لمواجهة الهجمة الصهيونية وإحداث تغيرات استراتيجية في بنية إسرائيل العدوانية.. وليس غايتنا بالطبع أن " نرمى اليهود في البحر " كما ادَّعوا، وإنما نستهدف كسر شوكة الأيديولوجية العنصرية الصهيونية، وتفكيك بنية الدولة العرقية الهمجية، وتحرير اليهود من ربقة العبودية لفكرٍ معادٍ للبشرية، مبنى على العدوان والتسلط، مُدججٍ بالسلاح والقنابل النووية وأسلحة الدمار الشامل.

وتغادر فضيلة التواضع " سميح القاسم " أيضا، فاتحاد الأدباء العرب، الذي يرأسهم داخل فلسطين المحتلة، أو " إسرائيل " كما يجب أن يُطلِقُ عليها، وعددهم ٣٠٠ عضو، مثلما يذكر، لابد وأن يفسحوا مجالا للاستماع إلى وجهة نطر عشرات الآلاف من الكتاب والفنانين والمهنيين والعاملين، المصريين والعرب، الذين قرروا بملء إرادتهم، وفى مواجهة الدولة والمطبعين، أن يقفوا سدا حاجزا ضد الغزو الصهيونية، وأن يهزموها.

وإذا كنا نتفهم، لأسباب عدة، دواعى الحوار بين عرب الأراضي المحتلة، وبين سلطة العدو الصهيونى، لأنهم في سجن ولا سبيل أمامهم إلا التحاور مع سجانه، فنحن لا نعتقد أن هناك ما يجبرنا على دخول السجن بأقدامنا. أو يُكرهنا على التحاور مع جلادينا، والهرولة باتجاه قاتلينا ومغتصبى حقوقنا، ويدعمنا في رؤيتنا

الوطنية للموقف مع إسرائيل مثقفون فلسطينيون كبار أيضا، يرون ما نرى، ويوافقون على ما أجمع عليه أغلب مثقفى مصر والوطن العربي، من ضرورة مقاطعة العدو الصهيوني على كل الجبهات، وأساسا الجبهة الثقافية، وفى مقدمة هؤلاء الشاعر الفلسطيني الكبير " محمود درويش " رفيق درب " سميح القاسم " السابق، الذي يحدد [١٨] مواقفه، ومواقف كل وطنى فلسطينى وعربى، على النحو التالى: -

عن الاحتلال: " لم يخرج، وأقول دائما أنه خرج من غرفة النوم إلى الصالون، وهو حقيقة إيجابية، ولكننى لا أستطيع مواصلة الاحتفالات لمجرد أن الاحتلال خرج من غرفة النوم ليجلس في الصالون، الشعب الفلسطيني لا يزال تحت الاحتلال ".

وعن الاستيطان: " عندما ذهبت إلى الضفة رأيت حجم الاستيطان، ودهشت. لأننا كا نتحدث عن المستوطنات وكأنها مواقع كشافة أو مواقع عسكرية سهلة التفكيك، فإذا بها مدن حقيقية تقطع أوصال الأرض الفلسطينية وتحرمها ماديا من إقامة علاقة جغرافية حقيقية بين أعضائها، وأحيانا تشعر أن الأساس هناك هو المستوطنة والثانوى هو الوجود العربي، والوحدة الجغرافية قائمة بين المستوطنات وليس بين المحيط الفلسطيني، وهذا عامل موضوعى يعوق تشوه الدولة الفلسطينية مستقبلا.

وعن الحوار: " إن ما ينطبق على ضرورة العلاقة وطرح الأسئلة المتعلقة بجوهر السلام بين الكتائب الفلسطينيين والإسرائيليين، منفصل عن الاستنتاج بأن هذه العلاقة يجب أن تُعَمَّمَ على المثقفين العرب ".

" أرجو أن أكون واضحا، فإذا كان الفلسطيني مضطرا للتعامل مع الإسرائيلي، فالمثقف العربي خارج فلسطين غير مضطر، ولا يجب أن يقول أن دخوله في الحوار دعم للفلسطينيين، الفلسطينيون مضطرون، بحكم الوجود الجغرافى، أما بالنسبة للعرب فإن الأسباب التي جعلت الحوار مستحيلا، ما زالت قائمة، فاحتلال الأراضي العربية لا يزال موجودا ".

و " الإحجام العربي عن المشاركة في هذا الحوار يدعم موقفنا، ويساعد في الضغط المطلوب على الوعى الإسرائيلى، ويساعدهم على الفهم بأن للسلام شروطا ".

" ويجب أن نقوم بعملية تفاهم بين المثقفين العرب حول مفهوم الحوار وضرورته، وهو يختلف عن ضرورة التعرف على تيارات الفكر والثقافة الإسرائيلية كواجب معرفى تجاه أنفسنا ".

" العرب قبلوا بالإسرائيليين وقبولهم صادق، والإسرائيليون لم يقبلوا حتى الآن، بسبب عقد تطاردهم، وكلما قابلتهم أكثر طالبوك بضمانات تتعلق بالقرن الثانى والعشرين للتعجيز ".

وأخيرا، فمحمود درويش، الشاعر الكبير والمناضل الكبير أيضا هو القائل: " ليس **من شروط المفاوضات تخلى الفلسطينيين، (والعرب طبعا)، عن ذاكرهم التاريخية** " [١٩]!.

* د. عبد العظيم رمضان: لاسرائيل الحق في الوجود، ورافضو التطبيع متخلفون عقليا!:

وينحط " الدكتور عبد العظيم رمضان " إلى درك من الإسفاف غير مسبوق في أية دراسة أكاديمية، أو لواحد من أصحاب المواقع العلمية، فيبادر بوصف المكافحين من أجل حرية أوطانهم ناعتًا إياهم بالإرهابيين، في حين يمنح إسرائيل صك البراءة من أية أعمال إرهابية فعلية! (ومن ضمنها مذبحة قانا)، مُحددا العدو، والخطر الأكيد بما يسميه " قوى التطرف العربي " التي لا تستطيع أن تهضم أساليب النضال التي تتفق مع العصر الجديد!..

ويزعم رمضان أن " قوى التطرف العربي " هذه هى التي تقوم " باستفزاز المجتمع الإسرائيلي وإثارة خوفه "، وتشكيكه في جدية مساعى العرب السلمية! وينصب " عبد العظيم رمضان " من نفسه قاضيا للدفاع عن مفهوم الصهاينة لـ " الأمن الإسرائيلي " [٢٠] ويزعم - دون أدنى إحساس بفضيلة التواضع الذي يليق بالعلماء - أنه استطاع (ومعه بعض المثقفين المصريين منهم الكاتب " أنيس منصور ") أن يحول نصف المجتمع الإسرائيلي لطريق السلام!، ثم يتهم المعارضين للتطبيع بأنهم " ليسوا متخلفين سياسيا، بل بعضهم متخلف عقليا! " [٢١]، ويتمادى في أفكاره إلى الحد الذي يدفعه لأن يكون " ملكيا أكثر من الملك "، فيزعم أن علينا نحن " أن ندرك أيضا أن حركة التاريخ تقتضى وجود الدولة الإسرائيلية!! " [٢٢]، وهذه - حسب علمى - هى المرة الأولى التي يتطوع فيها كاتب مصرى، أو عربى، باختلاق مبررات لوجود الدولة الإسرائيلية، يلصقها لصقًا بـ " حركة التاريخ "، متجاوزا في ذلك العديد من عتاة الصهاينة حتى!.

وكان " عبد العظيم رمضان " قد عاب على المصريين الرسميين إبطاء معدل

تطور العلاقات مع إسرائيل، في أعقاب مذبحة الخليل، ونشر في جريدة " الأهرام " سلسلة من المقالات بعنوان " أكذوبة الأمن القومى العربي " (٩، ١٣، ١٩٩٤/٤/٢٣) طالب عبرها العرب بالكف عن الحديث عن " الأمن القومى العربي "، باعتباره مصطلحا " نشأ لأن الأمة العربية كانت تواجه الخطر من جانب عدوين رئيسيين لا ثالث لهما: وهما الإمبريالية وإسرائيل، وكانت تريد حماية نفسها من هذين العدوين، ولكن مع نهاية حرب الخليج كان هذان العدوان قد تحولا إلى حلفاء! وأصبح العرب وإسرائيل يقفون في خندق واحد تتساقط عليهم صواريخ سكود العراقية! " كما هاجم في المقال الثانى اليسار المصرى لأنه بينما يفترض في اليسار بصفة عامة " قيادة التقدم ونقل بلدنا إلى مركز عالمى أفضل كان اليسار المصرى، يفعل العكس تماما، وكان على الدوام متخلفا عن السادات. فلم يستطع أن يمد بصره إلى ما مد إليه السادات العظيم بصره! ". كما أنه متخلف عن الرئيس مبارك إذ أن اليسار المصرى الآن " يتجمد ويتقوقع في موقفه من إسرائيل، في الوقت الذي يتحرك الرئيس مبارك برؤية ثاقبة إلى المستقبل، تستهدف مصلحة مصر في العالم المتغير، يراعى فيها كل المتغيرات.. وهكذا فالسادات العظيم حرر سيناء بينما لو كان اليسار المصرى هو الذي حكم مصر لما تحررت سيناء، والآن يبدو اليسار المصرى، بالمقارنة بالرئيس، أناسًا " يعيشون في العصور الوسطى "، ويبدو الرئيس مبارك، بالمقارنة بهم، " أشبه بقادم من المريخ يُخاطب أناسا من أهل الكهف! " [٢٣].

وقد جعلت هذه المواقف - بكل ما تحويه من دلالات - كاتبا وأستاذا وطنيا مرموقًا هو " د. جلال أمين " يكتب معلقا على " حالة " الدكتور " رمضان " قائلا: و " أنا الآن، بعد أن قرأت له ما قرأت أعتقد أنه من المفيد، بل ربما من الضرورى أن

يكون في حياتنا أمثال د. عبد العظيم رمضان "، مؤرخا وكاتبا سياسيا، بل ربما لو لم يوجد لكان علينا اختراعه. إذ فلنتصور حياتنا الثقافية بدون رجل مثله؟ نقرأه فنعرف بالضبط ما الذي تريده إسرائيل منا! ".

" لقد قرر د.. " رمضان " أن يُصبح " واقعيا "، وأن يلتفت إلى ما يحدث في العالم من " متغيرات "، وأن يكسب عيشه من أن يحاول أن يلقن الناس مزايا الواقعية وحسن الجوار مع إسرائيل، وأن يعتبر الحدود القائمة بين الدول العربية هى الحدود المثلى لأنها هى الحدود " الواقعية " وأن يعتبر الأمن القومى العربي أكذوبة لأن العرب لم يستطيعوا تحقيقه حتى الآن، وأن استدعاء الكويت والسعودية للقوات الأمريكية إلى أراضيهما هو أحكم القرارات لأنه يتمشى مع كون الولايات المتحدة هى الزعيمة الوحيدة في العالم!! " (٢٤).

*** د. سعد الدين إبراهيم: المهزومون – مثلنا – لا حقوق لهم!..**

وهكذا تكلم " بنيامين نتنياهو! " :؟؟

الدكتور " سعد الدين إبراهيم " غنى عن التعريف، وعلاقاته بالأمريكيين والإسرائيليين في غير حاجة لتوضيح، وهو نفسه يشير إليها صراحة فيقول أنه " مشترك في مبادرات أخرى من أجل السلام! "، منها تلك المسماة " البحث عن أرضية مشتركة " أو " المبادرة من أجل السلام والتعاون "، وهو جهد بدأ قبل عملية " كوبنهاجن " بست سنوات، بل وسبق اجتماع السلام في " مدريد "، وبعض من شاركوا في تلك المبادرة شاركوا أيضا في وفود بلادهم في مدريد (٢٥).

وكان " سعد الدين إبراهيم " وزوجته (الأمريكية الجنسية) ضيوفا على مؤتمر " التسامح الممكن في الشرق الأوسط "، الذي عُقد في " القدس المحتلة "، وقد عبر

عن " فرحته ودهشته من حرارة الترحيب الدافئ الذي قوبل به هو وزوجته في إسرائيل "، كما قدم في هذا المؤتمر اعتذاره عن مواقفه الوطنية (سابقا) بسبب " أننى كنت طفلا، وتلقفتنى " القومية العربية " إياها.. والآن: نضجت.. وفى حرب الخليج اكتشفت أن إسرائيل ضحية !! ".

كما تحدث مؤبنا " إسحاق رابين "، في خطاب مؤثر قرأه في الجلسة الختامية للمؤتمر، ناعيا الرجل " الذي استعظم العرب واليهود مقتله!! "، متجاهلا دور " رابين " الإرهابى في صنع الدولة الصهيونية، والحروب التي قادها ضد وطننا، والخراب والدمار الذي تسبب فيهما لأبناء شعبنا، وتحطيمه لعظام أطفال فلسطين[٢٦].. إلخ!!.

ويعتبر " سعد الدين إبراهيم "، أن الحوار الذي دار حول " كوبنهاجن " في مصر يعكس تخلفا فكريا مذهلا في نوعية الخطاب ومناهج الاختلاف "، ويُرجع أسباب الخلاف حول أطروحات مجموعة " كوبنهاجن " إلى " أبعاد شخصية ".. " ربما يسبب التنافس على رئاسة المجموعة "[٢٧] مجردا المسألة من أبعادها الوطنية الأساسية، والأخطر من ذلك، أنه ينطلق من أرضية أننا مهزومون - في صراعنا مع إسرائيل - لا لكى نقاوم أسباب الهزيمة ومظاهرها، ولا لكى نناضل من أجل تجاوز واقع الهزيمة والتحرر من تبعاته، وإنما لكى نركع ونقبل بكل شروط إسرائيل، قبول المذعنين المعترفين بالخسارة والانكسار، فعلى حد قول د. " إبراهيم، فإن الشروط التي وضعها البعض للحوار مع الإسرائيليين، ولو بهدف ضبط الاندفاعات الخطيرة لبعض المثقفين وغير المثقفين من العرب والمصريين تجاه إسرائيل، " توحى بأننا نحن العرب قد انتصرنا في كل حروبنا مع إسرائيل، ومن ثم فعلى هذه الأخيرة أن تُذعن لكل شروطنا، فينبغى الانسحاب من كل

الأراضي، وينبغى الإبقاء على عروبة " القدس "، وينبغى تفكيك كل المستوطنات، وإعادة كل اللاجئين، وإنشاء دولة فلسطينية، ثم بعد ذلك نفكر هل نضع أيدينا في أيدى " الجزارين الصهاينة " أو " سفاكى الدم اليهود " أم لا؟!.

نحن مهزومون، في رأى " سعد الدين إبراهيم "، والمهزوم لا يملك حقا، ولا حتى حق المقاومة، أو التطلع للانتصار.. وهو ذات رأى العدو الصهيوني منطوقا على لسان " بنيامين نيتنياهو " شخصيًا، إذ يقول: " لا توجد سابقة أبدا لمثل هذه الظاهرة التي يطالب فيها معتدٍ مهزومٍ! باستعادة ما فُقد في الحرب، ناهيك عن كون العرب يطالبون بنفس الأراضي التي كانت منطلقًا للعدوان! " [٢٨].

وهكذا يحاول مفكرو التطبيع، وسدنة التعاون الثقافى مع عدونا، أن يُرَوِّجُوا لنفس الأفكار الخبيثة التي تُصنع في تل أبيب، وهم، بدون رادع من وطنية أو ضمير، يزايدون على الموقف الوطنى، وترتفع أصواتهم بالدفاع عن المصالح الإسرائيلية، وبتبنى المفاهيم الصهيونية التي يصكّها قادة إسرائيل وزعماء الإرهاب بها!!.

خرافة معسكر " السلام " في إسرائيل :

أما الحجة التي يستند إليها التطبيعيون العرب - " لطفى الخولى وعصبته " فهى أن هناك قطاعا ضخمًا في المجتمع الإسرائيلي يناصر السلام وينحاز للحق العربي!!، وهى حجة واهية تكذبها الحقائق الموضوعية، والفلسفة التي ارتكزت عليها بنية الدولة الإسرائيلية، ومسلكيات الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة (عمل وليكود).. ويمكن - دحضا لهذه المزاعم - أن نرصد بعض المظاهر ذات الدلالة، على النحو التالى:

١ - كل المحطات الرئيسية في بناء الدولة الصهيونية واغتصاب الأرض العربية

وشن الحروب العدوانية على مصر والأمة العربية، تمت في عهود حكم " دعاة السلام " الإسرائيليين من حزب العمل، أو " اليسار " المزعوم في إسرائيل، وآخرها " مذبحة قانا " التي راح ضحيتها العشرات من الأبرياء في القرية اللبنانية الجنوبية الوديعة، وعلى يد السفاح " شمعون بيريس "، " حمامة السلام " في نظر دعاة التطبيع، وسدنة " كوبنهاجن " !!.

٢ - كتب " ميخائيل وارشكوفسكى "، مدير " مركز المعلومات البديلة " بالقدس، يدين سلوك حزب " العمل " وجماعة " السلام الآن " لمواقفهما المخادعة، ويُذَكِّر أن " يوسى بيلين " زعيم حزب " العمل "، والمهندس الرئيسي لاتفاقات " أوسلو "، توصل إلى اتفاق مع قادة الاستيطان " الرابى يو " و " بن بيمن "، حول اتفاقية قائمة على صفقة سياسية، يؤيد فيها اليمين " اتفاق أوسلو " من جهته، على أن يفعل حزب " العمل " كل ما في وسعه لاستمرار المستوطنات وسياسة الاستيطان " (٢٩).

٣ - في مؤلفه " السعى وراء السلام " تاريخ حركة السلام الإسرائيلية ". للكاتب " موردخاى بار أون "، يدين الكاتب أعضاء هذه الحركة الذين " كانوا يخشون أن يروا فعلا ما يجرى في الأراضي المحتلة "، ويشير إلى أن دوافعهم في حركتهم إنما هى الحرص على مصالح إسرائيل الذاتية، " بالترويج لمتطلبات الأمن البعيد المدى للبلاد والتصدى للتأثر المفسد للاحتلال على المجتمع الإسرائيلى "، وتشير " هيلينا كوبان "، الكاتبة البريطانية، في عرضها للكتاب إلى الفوارق التي ميَّزت رؤى ومسار حركة المستعمرين " البوير "، من ذوى الضمائر، خلال عهد الفصل العنصرى (في جنوب أفريقيا)، مقارنةً بمعظم أعضاء " معسكر السلام " الإسرائيلي اليهودي في الوقت الحاضر، " فالفارق الرئيسى بين ثقافتى هاتين

الحركتين هو التردد القوى لدى معظم أعضاء " السلام الآن " في أن يقفوا بالكامل إلى جانب الحقوق المتساوية بكل البشر، بغض النظر عن ديانتهم أو جنسيتهم، ويؤيدوا الاعتراف الصادق بآثام الحركة الصهيونية في الماضي والحاضر والتعويض عنها ".. فأي معسكر للسلام هذا؟! " على حد تعبير الكاتبة البريطانية (٣٠).

٤ - أبدى " موسى راز "، السكرتر العام لحركة " السلام الآن "، أسفه لقلة عدد الإسرائيليين الذين شاركوا في المظاهرة التي تمت في منطقة " جبل أبو غنيم "، احتجاجا على بناء المستوطنة، فلقد وصل إلى المنطقة ثلاثة أتوبيسات نصف فارغة تحمل أعضاء الحركة، إضافة إلى ضيوفهم الذين كان أبرزهم الكاتب المصرى " لطفى الخولى " وقال سكرتير الحركة أن ضعف إقبال الشباب يعود إلى الإحساس المتزايد داخل هذه الفئات بقلة قدرتها على التأثير.

وقالت جريدة " ها آرتس " الإسرائيلية، أن زيارة " لطفى الخولى " الأولى لإسرائيل كان يمكن أن تتحول إلى حدث ذى أبعاد سياسية مهمة، لولا أنها ضاعت في خضم الأحداث، وقالت " هاآرتس " : إن " لطفى الخولى " بدأ خطابه قائلا : " هذا عهد الشعوب لا عهد الحكومات في بناء السلام " إلا أن الشعب الذي وجّه إليه " الخولى " خطابه لم يكن موجودا فضلا عن أنه كان مصابا بالبلبلة والاضطراب ".

ويقول البروفسيور " إبيشاى مرغليث " من قادة الحركة: " إن الحركة تعانى ضعفا متزايدا، كما أن ضعف حكومة نيتنياهو يسهم بشكل غريب في هذه السلبية المتزايدة، لأن لدى الجميع انطباعا خاطئا بأن الحكومة سوف تنهار من تلقاء نفسها " (٣١).

١ - أفــاد بحــث دولــى أجــرى فــي ٢٧ دولــة، مــن بينهــا إســرائيل، أن " الشباب اليهودي يربط بين السلام وبين القيم عديمة المغزى " من وجهة نظره، مثل " التعاون مع أوروبا " و " التضامن مع العالم الثالث! "، كما أكد البحث أن الشباب اليهودي في إسرائيل " لا يضع السلام على رأس جدول القيم التي يؤمن بها، أو تشكل محددا لسلوكه وحياته! " (٣٢).

٢ - أظهر استطلاع للرأى في جريدة معاريف (٣٣) أن ٧٩.٤ % من الإسرائيليين المشتركين فيه يعارضون الانسحاب من جنوب لبنان، و ١٦% يؤيدونه و ٤.٦% لم يدلوا برأيهم.

وعلق " إسحاق مردخاى "، وزير الحرب الصهيوني، على نتائج هذا الاستطلاع بأنه " يقدر حكمة الرأى العام الذي يتفهم الموقف ويدعم سياسة الحكومة والجيش " (٣٤).

فإذ كانت برامج وسلوكيات القوى السياسية الكبرى، المؤسسة للدولة الصهيونية، " العمل " و " الليكود "، في مسارهما اليومى منذ خمسين عامًا وحتى الآن، تُكَذِّبُ المزاعم الواهية عن التوجّه الإسرائيلي للسلام، وإذا كانت " حركة السلام الآن الإسرائيلية " بهذا الضعف والتفسخ والتضارب الفكرى والمبدئى الذي يعترف الجميع به، (إلا أنصارها في مصر؟!)، وإذا كان الشباب الإسرائيلي لا يجد في قضية " السلام " قيمة ذات مغزى في حياته، وإذا كان ما يقرب من ٨٠% من المجتمع الإسرائيلى يؤيد استمرار الاحتلال والعدوان واستخدام فلسفة القوة في مواجهة المطالبين باسترداد الأرض العربية والحقوق العربية المغتصبة.. فعن أي سلام، ولأى " تطبيع " يدعونا كهنة " كوبنهاجن " إذن؟! سؤال لا يحتاج لعناء حتى يمكن الإجابة عليه، وهو يُعَرِّى بوضوح هشاشة الخطاب التطبيعى وإسفافه

وتناقضاته الداخلية، كما أنه يعكس - بوضوح لا مجال للشك فيه - إلى أي مدى يشعر " التطبيعيون "، المصريون والعرب، أنهم يضرون شعوبهم ضررا بالغًا بما يطرحونه من مفاهيم مغلوطة، ويُفَرطّون في مصائر الأوطان مقابل حفنة من المصالح، ويقايضون على مستقبل البلاد، ويختارون الارتماء في أحضان العدو التاريخى للأمة بإصرارهم على الترويج لبضاعتهم الفاسدة.

" كوبنهاجن " وإعادة تثقيف المثقفين العرب :

إن إلحاح " عصبة كوبنهاجن " الآن بالذات على تعليمنا - نحن معارضى الاستسلام للعدو الصهيوني - باسم التطبيع، دروس " المتغيرات الإقليمية والدولية "، و " آداب السلوك في حضرة الملوك "، وتجريعنا كأس تسوية الإذعان الأمريكية الإسرائيلية المفروضة على أوطاننا باسم " السلام " المزعوم، يبدو أمرا شديد الغرابة ويثير الريبة والشكوك، ويطرح العديد من علامات الاستفهام فيما يخص التوقيت الذي طُرحت فيه والكيفية التي أديرت بها العملية برمتها، ويكفى أن نقارن مقالات " لطفى الخولى " ومجموعته في جريدة " الأهرام " حول موضوع " كوبنهاجن "، بمقولات " بنيامين نيتنياهو " رئيس الوزراء الإسرائيلي حول " إعادة تثقيف المثقفين العرب (والمصريين أساسا) "، لكى ندرك منبع ومسار عملية " كوبنهاجن " من البداية حتى النهاية، فنتنياهو يرى أن موقف المثقفين الوطنيين العرب، والمصريين، المقاوم لمشاريع الهيمنة الصهيونية، هو العقبة الرئيسية في وجه مخططات " الليكود " الإرهابية، حيث يقول نتنياهو : " إن مصير العلاقات بين العرب واليهود سيتحدد في المدارس والجامعات وفى قاعات تحرير الصحف وفى المساجد في الشرق الأوسط.. وللآن وبعد عشرين سنة تقريبا من عقد أول معاهدة سلام عربية إسرائيلية، لا يوجد قبول لإسرائيل في هذه البوتقات للتعليم

والتثقيف للعرب، فلا خريطة عليها اسم إسرائيل، ولا كتاب مُقرر في المدارس يشير لاسم إسرائيل كدولة لها الحق في الوجود، ولا طفل يتعلم أن إسرائيل هى جارة دائما، ولا صحيفة تتجنب أكثر أنواع التحريض المشحونة بالسموم ضد إسرائيل واليهود، ولا أي قيادة دينية في العالم العربي تبشر بالتسامح تجاه الدولة اليهودية، ولن يحدث هذا التغيير إذا لم يقم المثقفون والقيادات الروحية في العالم العربي بالانضمام إلى الدعوة للقبول بإسرائيل [٣٥].

وهو ما وصفه صحفى أمريكى بأن " نتنياهو "، " يُطالب بعملية غسيل مخ كاملة للعرب، لا يستثنى منها طفل في مدرسة أو واعظ في مسجد أو مثقف أو حتى صحفى، وهى عملية لم يسبق أن حدثت بين أي أعداء سابقين حتى بعد مرور قرون، وليس عشرات السنين، وبعد زوال جميع أسباب العداء، كما حدث بين فرنسا وبريطانيا أو فرنسا وألمانيا، وليس كما هو حادث الآن بين العرب والإسرائيليين، حيث ما زالت أسباب العداء قابعة على الأرض في حالة استفزاز مستمرة! " [٣٦]، وقد أدلى " نيتنياهو " بهذه التصريحات ذات الدلالات الواضحة أثناء زيارته أخيرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية (فبراير ١٩٩٧). وفى هذه الزيارة قدم رئيس الوزراء الصهيوني إلى الإدارة الأمريكية خريطة جديدة لإسرائيل أسماها " خريطة الخطوط الحمراء "، وهذه الخريطة توضح بجلاء مساحة إسرائيل التي ستتضمنها التسوية الليكودية المقترحة، حتى بعد عقد كافة معاهدات واتفاقات (السلام)، حيث ستشمل ٥٠% من أراضى الضفة الغربية، " بالتمام والكمال " [٣٧].

وإذا كانت عملية غسيل المخ " المطلوبة، قد فشلت في السنوات العشرين السابقة - باعتراف قادة إسرائيل أنفسهم - فالمطلوب الآن أن يجتهد دعاة " كوبنهاجن "

لتحقيق ما فشلت فيه آلة الإعلام الأمريكية - الغربية - الإسرائيلية - الرسمية العربية، طوال السنين الماضية، وتحت دعاوى عن تجاوز " التخريب الأيديولوجى "، والانتقال من " الوقوف على الرصيف " إلى الفعل المؤثر.. إلخ إلخ، تمارس " عصبة كوبنهاجن " كافة أشكال الابتزاز السياسى والثقافى والأيديولوجى أيضا، من أجل إكراهنا على مغادرة مواقعنا الوطنية، والتخلى عن قناعاتنا الفكرية، والعزف معهم على نوتة الليكود الموسيقية، بالضبط مثلما كتبها " بنيامين نيتنياهو " وأركانه، ومن قبل " شمعون بيريس "، عرّاب " الشرق الأوسط الجديد " وبطانته، وهو ما يتبدى واضحا في كتابات " لطفى الخولى " و " على سالم " و " محمد رضا محَرّم... " ومن لف لفهم!.

ويقودنا هذا التصور إلى إدراك أن المعركة مع " تحالف كوبنهاجن "، وغيرهم من حملة مباخر " التطبيع " و " التطويع "، لم تعد معركة بسيطة ولا هى جولة سريعة ستُحسم بالضربة القاضية، وإنما - على الأرجح - ستكون معركة طويلة المدى، سُتكسب بالنقاط، يجب أن يُشن خلالها عشرات من الهجمات المتنوعة التأثر، والتى تستهدف العديد من فئات المجتمع وقطاعاته، لحصار التأثير الضارة لحلف " كوبنهاجن "، الذي هو - في الأساس - امتداد لحلف " كامب ديفيد " بما يعنيه من مؤسسات وعلاقات ومصالح متشابكة، تراكمت على مدى عقدين كاملين، منذ زيارة السادات للقدس في نوفمبر ١٩٧٧، وحتى هذه اللحظات.

وهذا هو التحدى الرئيسى الذي يواجه القوى الوطنية والديمقراطية في مصر والعالم العربي الآن، ويتوجب على المثقفين الوطنيين أن يرسموا لعملهم المقاوم استراتيجية طويلة المدى، تأخذ في اعتبارها كافة عناصر الصراع ومدخلاته، وتضع في حسبانها استنهاض كل القوى الفاعلة في الأمة، وترتيب صفوف

المثقفين الوطنيين، والبدء في حملة وطنية مضادة، تفضح مخططات " التطبيع الثقافي " - و " حلف كوبنهاجن " كمحطة في هذا الطريق لا أكثر - وتُعَرِّى الأهداف الخطيرة الكامنة وراءها ووراءه.

* * *

هوامش الفصل الرابـع

(١) جريدة " الأهالي "، القاهرة، ١٩٩٦/١١/٦.

(٢) جريدة " العالم اليوم "، القاهرة، ١٩٩٧/١/٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) جريدة " العالم اليوم "، القاهرة، ١٩٩٧/٢/٣.

(٥) انظر: جابر القرموطى، " إسرائيل فَرَّقتهم، والاتحاد الأوروبى لم شملهم، جريدة " الحياة "، لندن "، ١٩٩٨/٨/١٠.

(٦) لميس الحديدى، " البيزنس مع إسرائيل " حلال ": المشاركة في الخصخصة ومشروع للتكنولوجيا بين مصر وإسرائيل.. قريبا "، جريدة " العالم اليوم "، القاهرة، ١٩٩٧/٣/١٠.

(٧) جريدة " العالم اليوم "، القاهرة، ١٩٩٨/١/٣.

(٨) انظر: عرفة عبده على، " تهويد عقل مصر "، دار سينا، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ١٥.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) قاسم عبده قاسم، " البعث الثقافى للصراع العربي الإسرائيلى "، مجلة الوحدة، الرباط - المغرب، السنة الخامسة، العدد ٥٦، مايو ١٩٨٩، ص: ٣٢.

(١١) محسن عوض وسيد البحراوى، " أربع سنوات على التطبيع الثقافى بين مصر وإسرائيل "، مجلة المواجهة، يونيو، ص: ١١.

(١٢) د. أنيسة الأمين، " الثقافة والمقاومة ". في " ثقافة المقاومة ومواجهة الصهيونية "، لجنة الدفاع عن الثقافة القومية - المجلس الثقافى اللبنانى، القاهرة، نوفمبر ١٩٨٩، ص: ٤٣، ٤٤.

(١٣) د. لويس عوض، الأساطير السياسية، جريدة " الأهرام "، القاهرة، ١٩٧٨/٤/٧.

(١٤) بنيامين نتنياهو، " مكان تحت الشمس "، دار الجليل، عمان، الأردن، ١٩٩٥.

(١٥) جريدة " الأهرام "، القاهرة، ١٩٩٦/٢/٢٦.

(١٦) المصدر: حديث على سالم لجريدة " الحياة "، لندن، (١٩٩٦/٦/٢٠)، وحديثه للتليفزيون الإسرائيلي مع المذيعة " ليلى النجار "، عرضت له جريدة " العربى " بتاريخ ١٩٩٦/٦/١٧. وجريدة " الدستور " بتاريخ ١٩٩٦/٧/١٧.

(١٧) المصدر: مجلة " المصور "، العدد ٣٧٧٣، ١٩٩٧/١/٣١ وحوار الصحفى " أسامة عفيفى " معه، جريدة " الأسبوع "، ١٩٩٧/٣/٣.

(١٨) جريدة " أخبار الأدب "، القاهرة، ١٩٩٧/١٢/١٦.

(١٩) جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٥/٧/٧.

(٢٠) د. عبد العظيم رمضان، المتطرفون العرب وقضية الأمن الإسرائيلى، جريدة " الأهرام "، القاهرة، ١٩٩٦/٧/٦.

(٢١) مجلة " المصور "، العدد ٣٧٧٥، ١٩٩٧/٢/١٤.

(٢٢) مجلة " المصور " العدد ٣٧٧٨، ١٩٩٧/٣/٧.

(٢٣) مذكورة في: د. جلال أمين، أكاذيب عبد العظيم رمضان، جريدة " العربي " ١٩٩٤/٢/٥.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) مجلة " روز اليوسف "، القاهرة، العدد (٣٥٨٤)، ١٩٧٧/٢/١٧.

(٢٦) جريدة " الأحرار "، القاهرة، ١٩٩٦/١/١٥.

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) بنيامين نتنياهو، مصدر سبق ذكره، ص: ١٧١.

(٢٩) ميخائيل وارشوفسكى، بعد عام على اغتيال رابين، جريدة " الأهالى "، القاهرة، ١٩٩٦/١٠/٦.

(٣٠) " هيلينا كوبان "، " تأملات السنة الجديدة للأصدقاء في حركة السلام الإسرائيلية "، جريدة " الحياة "، لندن، ١٩٩٧/٢/٦.

(٣١) مجلة " المصور "، القاهرة، العدد (٣٧٨٢)، ١٩٩٧.

(٣٢) جريدة " هاآرتس " الإسرائيلية، ١٩٩٦/١٢/١٦.

(٣٣) جريدة " معاريف " الإسرائيلية، ١٩٩٧/٢/١١.

(٣٤) مذكورة في: محمود عزمى، هل تستطيع إسرائيل الخروج من " المستنقع " من دون تسوية مع سورية أو شن حرب ضدها؟! "، جريدة " الحياة "، لندن، ٤/ ١٩٩٧/٢.

(٣٥) محمد وهبى، " نتنياهو: إعادة تثقيف العرب ضرورة من ضرورات السلام

“، مجلة " المصور "، القاهرة، العدد (٣٧٧٧)، ١٩٩٧/٢/٢٨.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) المصدر نفسه.

* * *

الفصل الخامس

السلام المراوغ في الشرق الأوسط الجديد

الفصل الخامس

السلام المراوغ في " الشرق الأوسط الجديد " !

قراءة في كتاب " شمعون بيريس " :

تقديم لابد منه:

لقد توقفت عجلة " الشرق أوسطية " مؤقتا، بعد أن تكفل " بنيامين نتنياهو " - بعنصريته الفجة وعدوانيته البغيضة - بدفع هذه الفكرة جانبًا، والإرتكان إلى منظومة القهر والعنف التقليدية، التي صاحبت الأيديولوجية الصهيونية منذ غرست أقدامها فوق أرضنا، وباعتبارها الأسلوب الوحيد الذي ينبغي التعامل مع العرب من خلالها!.

لكن مأزق التسوية السياسية الراهن، الذي يقود المنطقة بأسرها إلى حافة الهاوية، ويهدد كل ما تحقق للمشروع الصهيوني الإمبريالى وللمساعي الأمريكية الغربية من إنجازات، في العقدين الأخيرين حتى إجراء انتخابات جديدة، يجرى الاستعداد لها في إسرائيل الآن، قد تقود حزب " العمل " وأنصاره إلى سدة الحكم مجددا، ليعيد من جديد طرح مشاريعه " السلمية " مرة أخرى، وهى - في نهاية المطاف - لا تخرج عن أفكار ومشاريع تكتل " الليكود " و " بنيامين نيتنياهو " إلاّ من حيث الشكل، فهى السم في العسل، والموت في قفاز من حرير ناعم. ومن أجل ذلك يجب أن نُعيد قراءة " مانفستو " حزب " العمل " في طبعته الجديدة، كتاب " شمعون بيريس " الأشهر، كى نتعلم منه الدروس الواجبة.

إنهم لا يقرؤون :

القصة معادة ولكن لا مفر من روايتها مرة أخرى: في كتابه

" مذكرات حملة سيناء - Dairy of The Sinai Campaign "، الصادر عام ١٩٦٥، ألقى " موشيه دايان "، وزير الدفاع الإسرائيلي الراحل، الضوء على محاور خطة حرب ١٩٦٧، التي مُنى فيها العرب بهزيمة لازالت تداعياتها تؤثر فينا حتى الآن، وحينما سُئل عما إذا كانت الخشية قد انتابته من أن يكون العرب قد اطلعوا على الكتاب فانتبهوا لاستراتيجية الحرب المقبلة، أجاب بيقين: " لم أكن أخشى شيئا.. لأنهم لا يقرؤون "!.. وعلى هذا يراهن أعداؤنا.

فهم يعرفون أننا أمة أغلبها من الأميين، ويعرفون أكثر أن نخبة مثقفينا مشغولين عن مسئولياتهم تجاه شعوبهم بأشياء أخرى غير أداء واجبهم الأسمى نحو بلادهم.. ولأنهم يشعرون بالمسئولية تجاه مواطنيهم - فهم لا يخشون بأسا من أن يكتبوا للرأى العام الخارجى ولشعوبهم ما يفكرون فيه، وما يخططون له دون قلق.. لأنهم يعلمون أننا لا نقرأ ما يكتبون، ولا نتابع ما يُحاك لنا!.

ومن أجل هذا، فإن الكتاب الذي بين أيدينا لابد أن يُقرأ بدقة، وأن يُستوعب بإمعان.

كل مُحبٍ للوطن لابد أن يقرأه، وكل غيورٍ على مستقبل بلاده ينبغى أن يدرسه جيدا، وعليه أن يتذكر دائما ما جاء فيه.

ولو كان بيدى لطبعت من هذا الكتاب ملايين النسخ، ولوزعتها بأبخس الأسعار في أرجاء البلاد، حتى يعرف المصريون، وحتى يدرك العرب، ما يُدبر لهم في الخفاء، وما يُرسم لمصائرهم من مؤامرات. وحتى ينتبهوا لما يُعِدَّهُ لهم الأعداء.. وأخيرا: حتى لا تتكرر مأساة " الهنود الحمر "، مرة أخرى، في بلادنا، وعلى أرضنا، ونحن على أعتاب القرن الحادى والعشرين!.

Made in Israel :

وليس هذا وحده هو الدافع لذلك.. وإنما هناك سبب آخر مهم، هو أن يعرف المصريون والعرب، عمق الاختراق الذي أحدثته إسرائيل في جبهتهم الثقافية، تلك الجبهة الصامدة التي تحطمت على صخرة عنادها الوطنى - في الماضى - كافة محاولات " التطبيع " مع العدو الصهيوني، وانكسرت على درع تحديها - بالأمس - كافة مخططات الغزو الفكري والثقافي - مقدمة الغزو المادى والحضارى - لعقل وطننا.

فمن قراءة هذا الكتاب نكتشف بسهولة ويسر، أن الحجج والأفكار المطروحة على الساحة، حول " السلام " الذي سيجلب " الرخاء " في إطار ما أسمى " السوق الشرق أوسطية "، وكل (إبداعات) سادتنا الأفاضل من المفكرين ورؤساء التحرير المرموقين، والكُتّاب العظام، و " الدكاترة الأشاوس " الذين لا يُشق لهم غبار، وكل الحيل المستخدمة في الترويج لهذه الفكرة، وفى " تسويق " الدور الإسرائيلي القديم / الجديد، في منطقتنا، للأسف الشديد، مكتوب عليها Made In Israel ، مطبوعة بحروف عبرية شديدة الوضوح، وهى جميعها خرجت من عباءة رجل واحد، يملك كل حقوق الإبداع والتأليف والنشر.. والتوزيع أيضا.. هو " شمعون بيريس "، وزير الخارجية الإسرائيلية ثم رئيس الوزراء الصهيوني السابق، مهندس اتفاق " غزة - أريحا أولا " و " اتفاقية طابا ثانيا " وعرّاب " السوق الشرق أوسطية " في " الشرق الأوسط الجديد "، ولو كان الأساتذة الذين صدّعوا أدمغتنا بما كتبوه لتجميل صورة الدور الإسرائيلي الجديد في بلادنا يملكون بعض الشجاعة، أو شيء من الأمانة، لكانوا اعترفوا بمصدر الوحى، وأشاروا - ولو من بعيد - إلى منبع الإلهام، وسر التناسق والترتيب في أطروحاتهم، والانسجام - على عكس العادة - البادى في مفاهيمهم عنها.. ولذكروا لنا الحقيقة على مراراتها.. ومن هنا نبدأ.

من طرح الفكرة إلى تثبيت الواقع:

و " شمعون بيريس " ليس بالشخصية المجهولة أو محدودة التأثير، إنه واحد من صانعى إسرائيل الكبار، شخصية من أبرز شخصيات جيل الصهاينة المؤسسين الثالث، بعد الجيل الأول الذي طرح فكرة الدولة الصهيونية (تيودور هرتزل ورفاقه)، والجيل الثانى الذي أسس بالفعل هذه الدولة، (جيل " حاييم وايزمان، وديفيد بن جوريون ")، ويشكل " بيريس " مع " إسحاق رابين " ومعهما " موشى دايان "، ثلاثة من أهم عناصر الجيل الثالث: بصماتهم واضحة في أركان الدولة، ودورهم معترف به في شتى أرجائها، وأداؤهم بارز في أهم ركائزها: المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، وإذا كان الجيلان السابقان، قد تحملا عبء بذر بذور الشجرة الصهيونية السامة في أراضينا، فلقد تحمل الجيل الثالث، ولا زال يتحمل، مسئولية نشر ثمارها المميتة في أرجاء وطننا. وإقناعنا بأن فاكهتها المرة هى الأطيب والألذ والأشهى والأكثر فائدة لنا ولأبنائنا!.

الشرق الأوسط الجديد :

" **الشرق الأوسط الجديد** " هو عنوان الكتاب، الذي صدر في مستهل عام ١٩٩٤ عن دار نشر (Element) " في لندن، وأصدرت " دار الجيل "، (عمان - الأردن) ترجمة عربية له، ثم تُرجم بعد ذلك أكثر من مرة في أكثر من موقع عربى، وهو كتاب ليس ككل الكتب: إنه برنامج عمل، أو خطة للتنفيذ، هدفه الواضح والمعلن، إعادة رسم خريطة المنطقة بما يتفق والدور الإسرائيلي المقبل فيها، وبما يحقق مصالح المشروع الصهيوني التاريخية بها. وغاياته المحددة: فرض الأمر الواقع لإسرائيل، لا باعتبارها - كما هو الحال - جسم غريب دفع قسرا وقهرا بين ثنايا وطننا، وإنما على أساس أنه جزء عضوى من كيان المنطقة، يتفاعل معها،

ويقودها بما يحقق لـه وضـعية مميزة فـي بلادنـا، وبالطريقة التـي تجلـب لـه عوائد هائلة، تضمن بقائه في القمة، وللأبد، وهذه المرة برغبة مواطنيها، وبحماس أهليها ذاتهم!.

دواعى الفكرة :

مثلهـا مثـل أي فكـرة أو عقيـدة تسـعى للتحقـق فـي الواقـع المعـاش، تتقـدم العنصـرية الصهيونية وتتراجع حسبما يواجهها من مقاومة أو يجابهها من عقبات، وتتخذ في كل حالة منهجا للصراع يناسب ظروفها، ويوائم حاجاتها.. لكنه في كل لحظة لا يبعد بها عن غايتهـا النهائيـة إلا لكـى يتقدم ثانيـة باتجاههـا.. فالهدف النهـائى واضـح، ومحطـة الوصـول ماثلـة أمـام الأنظـار، والعيـون شاخصـة إليهـا، والأقدام سـائرة نحوهـا.. مهمـا كانت التراجعات التكتيكية أو التبدلات اللحظية في الخطط والأساليب.

و " **السوق الشرق الأوسطية** " واحدة من التكتيكات الإسرائيلية الجديدة والمتجددة: خطوة هامة على الطريق باتجاه تحقيق حلم " الأرض الموعودة "، تماما مثلما كـان مـؤتمر " بـازل " بسويسـرا (عـام ١٨٨٧) خطـوة، ووعـد بلفـور (١٩١٧) خطـوة، وإعلان قيام الدولـة (١٩٤٨) خطوة، وحروب (١٩٥٦ - ١٩٦٧ - ١٩٧٣ - ١٩٨٢) خطـوة و " كامـب ديفيـد " (١٩٧٨) خطـوة و " اتفـاق إعـلان المبـادئ الفلسـطيني - الإسرائيلى (١٩٩٣) وطابا (١٩٩٥)، و " وادى بلانتيشن (١٩٩٨) خطوة بعد خطوة هى الأخرى!.

فالدولة الصهيونية، باعتبارها مشروع غربى استيطانى استعمارى متطور، اتصفت دائما بقدرة كبيرة على التَشَكُّل، وبمرونة فائقة على التحول، لمواجهة ما يستجد من ظروف، وما يُستحدث من تبدلات، وهو ما حدث أيضا مع مطلع حقبة التسعينات

حيث أدركت إسرائيل أن العالم كله يمر بفترة تحولات حاسمة استطاعت أن تفهمها، وأن تستوعب مستجداتها ثم تتحرك باتجاه الاستفادة منها أقصى استفادة متاحة.

التبدلات العالمية وحدود الدور الإسرائيلي بعد انتهاء " الحرب الباردة " :

ويمكن أن نلمس في الخلفية من طرح فكرة " السوق الشرق الأوسطية "، كما بَشَّرَ بها " شمعون بيريس " ومريدوه، مجموعة من الأسباب والدوافع التي يشير إليها في ثنايا كتابه: أولها أن العالم لم يعد كما كان، ساحة لصراع دام بين قوتين عظميين، فلقد انهار " الاتحاد السوفيتي " وتفكك المعسكر الشرقي، واستفادت إسرائيل من انهيارهما أيما استفادة، بعد أن اشتغلت من أجل تحقيق هذه الغاية ردحا طويلا، استفادت مثلما يستفيد مقاول الهدم من فرز الهدد وتجارة الأنقاض، وخرجت إسرائيل من هذه المأساة بمئات الآلاف من المهاجرين اليهود الذين شكّلوا زخمًا لا ينقطع، يدعم بنيان الدولة الصهيونية، ويُقوى أركانها، كما استفادت من عودة علاقاتها بكل هذه المجموعة من الدول، وبتهافت الأنظمة الجديدة، بعد التحول، للوقوف على أبوابها.. ومن هذا فإن إسرائيل تشعر في قرارة نفسها بأن عليها أن تُكَيِّف أمرها مع الحال الجديد، غياب وضع الاستقطاب بين المعسكرين - كما كان في الماضي - يُحتم عليها البحث عن أبعاد جديدة لدورها في المنطقة، حتى لا يتم تهميشه أو الحد من تأثيره. فبلدان الشرق الأوسط - التي رأت الحرب الباردة - على حد تعبير " بيريس " - بمثابة " حقيقة مركزية " في الحياة السياسية، وسعت لاستثمار هذا النزاع العالمي بغية تعزيز النزاعات المحلية، وتجنيدها لصالحها، تعايش لحظة تتغير فيها السياسات الكونية المؤثرة في حقائق الحياة في منطقتنا، " وعليها أن تستجيب لها حتى لا تذهب ضحيتها ".

التلويح بالخطر الأصولي :

وإذا كان هذا المتغير، على المستوى العالمى، يؤثر تأثيره المباشر على توازنات الصراع في المنطقة، مما يستوجب وضعه في الحسبان، والتكيف مع أثاره ونتائجه.. فإن هناك متغيرا إقليميا جديدا لا يقل أثرا، يتبدى خطره، كما يراه " شمعون بيريس " من خلف السطور وبين ثنايا الكلمات.. هو " **انبعاث الأصولية الدينية في العالم العربي والإسلامى** ".

يُخَوِّفنا " شمعون بيريس " مرتديا ثياب الناصح الأمين، من مغبة التهوين من خطر " الأصولية الإسلامية " في المنطقة، ويُلقى علينا الدروس والعظات حول مرتكزات التطور الراهن في الحركات الأصولية، مُرجعا إياها إلى سبب أساسى هو استطالة أمد الصراع العربي - الإسرائيلي، الأمر الذي أدى إلى " استمرار بؤس الملايين، وتحول الكثيرون، انطلاقا من الشعور بالإحباط، إلى الغيبيات والعالم الآخر رافضين الدولة الحديثة، غارقين في " الأصولية الدينية "، الأمر الذي يهدد " استقرار وسلام المنطقة، وينذر المصالح العالمية بالخطر ".

ويغالى " بيريس " - لهدف في نفس " يعقوب " - في التلويح بخطر " الأصولية " فيقول : " إن خطر وقوع الأسلحة النووية، (أية أسلحة؟!)، بأيدى المتعصبين الدينيين، لا يمكن أن يُبالغ به، فهو لا يشكل تهديدًا لجيرانهم المباشرين فحسب، بل لعموم المنطقة والعالم. إن المزيج الفاتك من الأصولية الدينية، والصواريخ، والأسلحة غير التقليدية، يُهدد السلام " !، وهو في هذا السياق يتناقض مع نفسه حين يقرر في موقع آخر أن " المتطرفين " من السنّة شأن متطرفى الشيعة، يعتبرون أن الخلاص من القادة السياسيين " الكافرين " واجبا مقدسا لابد من إنجازه بأية وسيلة، وهم يعتبرون أن هذه الفريضة أهم من الجهاد ضد إسرائيل ".. ويستشهد في تأكيد هذه المقولة بما كتبه " محمد عبد السلام فرج "،

" مؤدلج "، الحركة السّرية المسؤولة عن اغتيال " السادات "، " جماعة الجهاد ": " إن العدو يتمثل في الحكام الحاليين، وواجبنا المباشر هو محاربة هؤلاء الحكام، هذا هو الجهاد الإسلامى الحق، والنداء الأسمى الذي يجب أن يصب المسلمون عرقهم ويسفحوا دمائهم في سبيله "، فإذا كان الأصوليون لا يضعون مواجهة إسرائيل على جدول أعمالهم ولا يشكلون خطرا حقيقيا على وجودها، فما غاية " بيريس " إذن من التلويح بخطر " الأصولية " المزعوم؟!، الإجابة واضحة، وهى تأتى أيضا في ثنايا صفحات كتاب " الشرق الأوسط الجديد ".

إن " شمعون بيريس " يوجه خطابه هذه المرة إلى السلطات الحاكمة في المنطقة العربية، ويضغط على مخاوفها من الأصوليين، كي يبتز منها مواقف راكعة، مرتمية في أحضان إسرائيل، باعتبار أن الدولة الصهيونية هى الدرع الحامى والستار الواقى من شر " الأصولية "، ويستخدم هذه " الفزّاعة " لتمرير فكرة " السوق " وتزيينها لهم، بتصويرها كمفتاح التنمية الاجتماعية والاقتصادية والديمقراطية المرجّوة، ووسيلة القضاء على " الفقر والجهل "، اللذان يمثلان " مهد الأصولية " وسر التعصب!.

ويستخدم " شمعون بيريس "، لتأكيد فكرته هذه، مقولة حق يراد بها باطل، فهو يطالب بتخفيض ميزانيات التسلح، وبشراء الخبز بدلا من الدبابات، مشيرا إلى أن " الاستثمار الهائل في السلاح وتركيز المعرفة والمواهب في مجال الأمن، يأتى على حساب الاعتبارات الاجتماعية ويقود إلى الفقر والمعاناة، وهما بدورهما يؤديان إلى بروز التعصب والأصولية والمهدوية "، دون أية مناقشة لمسؤولية العدوانية الصهيونية والإرهاب الإسرائيلى في تصعيد سباق التسلح في المنطقة، وبدون إشارة إلى أن هذا الخيار لم يكن ترفا بالنسبة لدول المواجهة بالذات، وإنما كان استجابة

موضوعية لتهديدات الأمن القومى العربي، من إسرائيل ورعاتها.

صعوبة قمع الانتفاضة :

وإذا كان ما تقدم يمثل استعراضا مُرَكّزا لدواعى طرح فكرة " الشرق الأوسط الجديد " على المستويين العالمي والإقليمى، فهناك على المستوى الداخلى عدة أسباب لا تقل عنها أهمية، منها: أن الانتفاضة الفلسطينية التي عمت أرجاء الوطن المحتل، قد أصبحت تشكل هما لا ينكر، وعبئا يصعب احتماله على الدولة الصهيونية ومؤسساتها العسكرية والأمنية، إذ يعترف " شمعون بيريس " أن " رد هجوم عسكرى مباشر من عدو، لأسهل بكثير من التعاطى مع معارضة مكينة من شعب فقد أرضه لا شرفه.. لقد أجبرت قوات الدفاع الإسرائيلى على أن تغدو في الواقع ثكنة حامية - قوة حكم محلية - وإن جنودها، المقدرين أعلى التقدير، يتصادمون مع مواطنين محليين وأطفال في أزقة معسكرات اللاجئين في غزة وحوارى نابلس، مُستَفزين بالفتيان الفلسطينيين رماة الحجارة، وواقعين تحت رحمة فتيان ملثمين يندفعون في الطرقات شاهرين الخناجر أو المسدسات، مطلقين أقزع النعوت ضد الحكم العسكرى الإسرائيلى. إن الذخيرة الحية والنصال الحادة التي يحملها هؤلاء الشباب لدليل نابض على عُقم الأمر الواقع، الذي صُمم لفرض أمن إسرائيل! ".

لكن الأمر لم يقف عند هذه الحدود وحدها، بل إن المؤشرات كانت تترى من الجانب الآخر، " الفلسطيني الرسمى "، تشير إلى تطورات في مواقفه تيسر عمليات الالتقاء، بدون خسائر تذكر في الجبهة الإسرائيلية، فمنظمة التحرير الفلسطينية - بعد عمليات ترويض مستمرة – كانت، هى الأخرى، تقدم الدليل تلو الدليل على التراجع في مطالبها، والقبول بمستويات أدنى من التسوية، والاستعداد

لتقديم تنازلات أكبر للعدو الذي أتمت الاعتراف به، وقبلت بهيمنته، ووصلت الأمور إلى لحظة تاريخية انتهى فيها الصراع " الصفرى "، إذ لم يعد فيها ما يفيد منظمة التحرير يضر بإسرائيل أو العكس.. إنما أصبح " انهيار " منظمة التحرير الفلسطينية لا يفيد إسرائيل قطعًا.. بل صح الاستنتاج، كما يشير " شمعون بيريس " بأنه " من مصلحة إسرائيل أن تلعب منظمة التحرير الفلسطينية دورا في هذه المرحلة السياسية " (ص: ٣٢ من الترجمة العربية).. فإذا كانت الانتفاضة تُعَرِّض جيش " الدفاع " الإسرائيلي " لمصاعب لا سابق لها "، وإذا كانت حدود دور المنظمة الجديد لم تعد تشكل تحديا يذكر لإسرائيل، وإذا كان حل " المعضلة الفلسطينية " هو شرط لازم لانفتاح إسرائيل على السوق العربي، الواسع، الشديد الإغراء في المنطقة، وللقبول بها كعضو مركزى وأساسى داخل محيطها.. فلماذا لا يُطرق الحديد وهو ساخن؟!.. وهذا ما حدث بالضبط فيما عُرف باتفاق " غزة - أريحا ".. ثم كَرّت السبحة بعد ذلك!.

* * *

١ـ الشرق الأوسط الجديد

من إسرائيل " الكبرى " إلى إسرائيل " العظمى "

تعددت السبل والغاية واحدة. فهدف المشروع الصهيوني، بالأساس، هو الهيمنة على شؤون المنطقة، والسيطرة على ثرواتها، ونهب خيراتها.

فى لحظة تاريخية معينة، كان اللجوء للقوة المسلحة وسيلة ناجعة، فاستُخدمت هذه الأداة بضراوة وعدوانية قلّ أن يكون لها نظير، لكن متغيرات جَدَّتْ، جعلت من الصعوبة بمكان الاستمرار في الارتكان إلى وسيلة القمع العسكرى، أو الاستمرار فـي التعويل علـى دور إسرائيل كـأداة قهر لطموحـات شـعوب المنطقـة فقط، بـل أصبحت هذه الصورة، تهدد المكاسب التي تحققت، وتقود إلـى تقويض الإنجازات التي تراكمت على مدى ما يقرب من نصف القرن، منذ إعلان الدولـة الصـهيونية وحتى الآن، ومن هنا جاءت فكرة بناء " **نظام إقليمى جديد** "، يتسع لدور إسرائيل في صدارته.. لكن هذه المرة ليست إسرائيل العدوة المفروضة والمرفوضة، وإنما إسرائيل الصديقة، المطلوبة، التي يخطب ودَّها الجميع، ويتبارى الكل فـي اكتسـاب رضاها، لأنها كالساحر العجيب، وحدها التـي تملك العصـا السـحرية لحل مشـاكل بلادنا، وترقية شئون شعوبنا، والدفع بمواطنينا إلى حدود الحياة الإنسانية الكريمة!.

لكن هل يعنـى هذا الأمـر تبـدلا فـي الاسـتراتيجيات الصـهيونية، أو تغيـرا للغايـات النهائية للمشروع؟!.

في واقع الأمر لا.. فالفرق بين فكرة إسرائيل " الكبرى " التـي تقوم علـى التوسـع العدواني، واحتلال الأرض.. وبين فكـرة إسرائيل " العظمـى " التـي ترتكـز علـى التوسع " الحضـاري "، بفتح الأسـواق، هو فـارق كمـى لا كيفـى وقـد لام " إسـحاق رابين "، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، معارضيه من " الليكود " علـى ضيق

أفقهم، ومحدودية نظرتهم، مبينا الفارق الهام والدقيق بين رؤية حزب " العمل " ورؤيتهم في هذا السياق، قائلا: " إن هؤلاء يقيسون قوة إسرائيل بمساحة ما تستولى عليه من أراضٍ، أما نحن فنقيس قوة إسرائيل بمساحة ما نسيطر عليه من أسواق "، (جريدة الأهرام، ١٩٩٤/١١/٤)، وفى الحالة الأخيرة أيضا يضاف احتمال اللجوء إلى القوة والعنف - إذا احتاج الأمر - فلم يتضمن المشروع، كما صاغه وعرضه " شمعون بيريس " بكفاءة بالغة، أدنى تعهد بعدم اللجوء إلى هذا الخيار، إذا حتّمت الظروف، أو دفعت مقتضيات الحال.

الصراع على إسرائيل " الكبرى " صراع على الجغرافيا، والصراع على إسرائيل العظمى صراع على " الاقتصاد ".

والصراع الأول: ثمنه مرتفع، ويحتمل الخسارة.

أما الصراع الثانى: فتكاليفه منخفضة (وسيدفعها الغير كما سنرى)، وكله مكاسب!.

ولهذا نرى بلاغة " بيريس " تصل قمتها وهو يروج لمشروعه الشديد الجاذبية: " إن الفقر ليس مسألة صدفة، كما أن الضنك ليس عقابا من الأعلى، إنهما نتاج عمل الإنسان، فعندما نخصص كثيرا من الأموال لزيادة القوى التدميرية للأمة، فإننا نكون بذلك قد تركنا مصادر قليلة جدا لدعم النمو الاجتماعى والمالى، ولدعم عملية الخلق والإبداع والبناء ".

" وإذا كانت الحرب هى مصدر البؤس الإقليمى، فإن الحل الممكن والوحيد هو السلام، وعدا المزايا المباشرة للسلام (يقدم " بيريس " هنا غواية جديدة لزعماء دول المنطقة تسيل لعابهم) ثمة طيف بديع من الفرص المنتفخة بدعم من المصادر المحلية والأجنبية، إضافة إلى العون الحكومى والعالمي. إن خلق سلام دائم يطلب

ضخا سخيا لرؤوس الأموال! ".

مصيرنا " يصاغ بيد الآخرين :

وخلف هذا الكلام المعسول الرومانتيكي الناعم، تقف ملامح مرحلة جديدة بالغة الخطورة، يُصبح فيها مصير أمتنا ووطننا لعبة في أيدى أعدائنا، وتُصاغ فيها حياتنا، وتُرسم حدودها وتوزع الأدوار، في مكاتب المسؤولين الإسرائيليين والأمريكيين والغربيين، وما على سادتنا الحاكمين " إلا البصم " والانصياع!.

فـ " شمعون بيريس "، الذي لم يذكر أى دور لأى حاكم أو نظام عربى، لا في طرح فكرة " النظام الإقليمي " الجديد " أو " السوق الشرق الأوسطية "، ولا حتى في الموافقة على بنوده، نراه - بعد أن تبلورت فكرته - يروح ذاهبا وغاديا، يرتب سبل تحقيقها، وأشكال تمويلها، وأدوات تنفيذها (أو فرضها) دون أدنى احتجاج عربى، أو بادرة للتساؤل: " عرضت خلال محادثاتى الكثيرة، يقول " شمعون بيريس "، مع كبار الشخصيات الأوربية، خلال العام الأول من عمر حكومة التحالف العمالى، برنامجا لإقامة " شرق أوسط جديد "، على غرار الخطة الأوربية، للتعاون الاقتصادى أولا، يكون مشفوعًا بزيادة التفاهم السياسى الجاري وصولا إلى الاستقرار ".

" لقد ألهبت الفكرة خيال العديد من حلفاء إسرائيل، بمن فيهم الرئيس الفرنسى " فرانسوا ميتران "، والمستشار الألمانى " هلموت كول "، ورئيس المجموعة الأوربية " جاك ديلمور "، الذي رأى الإمكانات العظمى لهذا الترتيب الإقليمى الجديد، لكل من أوروبا والشرق الأوسط ".

" نتيجة لذلك، بدأت الشركات الأوروبية الكبرى بتطوير خطط لتوسيع أعمالها في

الشرق الأوسط، واندفع البنك الدولى إلى حلبة النشاط، وأرسيت قاعدته لتعزيز مختلف الأنشطة، وعرض اليابانيون تولى أمر السياحة، والفرنسيون والألمان أمر المواصلات، والإيطاليون أمر قناة البحر الأحمر والبحر الميت، والنمساويون الماء والكهرباء، والبريطانيون التجارة الحرة، والدنماركيون الزراعة، والأمريكيون الموارد البشرية، والكنديون اللاجئين، وأنشئت مختلف لجان العمل للحفاظ على الصلات بين جماعات العمل، وبخاصة خلال الفترة الفاصلة بين الاجتماعات "!!.

إنها باختصار ورشة عمل كبيرة، على اتساع العالم الغربى كله، يتم فيها تشريح الجسد العربي، واقتسام غنائم الحرب، في غياب أصحاب الشأن الأصليين!!، والغريب في الأمر أن الصوت العربي الوحيد، الذي ارتفع - عبر صفحات كتاب " بيريس " - محاولا أن يلحق بجزء من فتات " موائد اللئام " هذه، كان الصوت الفلسطيني الذي عرض على الإسرائيليين، عبر المسؤول الاقتصادى " أحمد قريع "، (أبو علاء)، ما أطلق عليه " خطة تنمية الشرق الأوسط "، وهو " جهد " حظى بتقريظ " بيريس " لأنه يساير المشروع الإسرائيلي، ويسبح في نفس اتجاه التيار (الخطة منشورة بالتفصيل في مجلة " الدراسات الفلسطينية " - العدد: ١٦ - خريف ١٩٩٣ - تحت عنوان " العوائد المتوقعة من السلام والتعاون الاقتصادى الإقليمى ")، ولعل هذا - من جهة أخرى - يفسر سر دعوة الرئيس الفلسطيني " ياسر عرفات " لقيام " سوق شرق أوسطية " تلعب فيها إسرائيل دورا معترفا به!.

التسوية السياسية مدخل السوق الاقتصادى :

إن سوقا اقتصاديا مفتوحا، على امتداد رقعة هائلة تضم دولا " شرق أوسطية " وأخرى عربية، وتلعب فيه إسرائيل دور المايسترو، المدير والقوميسونجي، و " البنكير " أيضا، فكرة عبقرية تسيل لعاب اليهودي البارع

الذكاء، وأيضا تجر قطاعا من مواطنى هذه المنطقة، الطامعين للفوز بنصيب من فتات عوائد هذه المشروع، ولو على حساب شعوبهم وأوطانهم!.

وهى كذلك تضمن حشدًا عالميًا واسعًا - كما سبق الإشارة - من المؤسسات والهيئات الرأسمالية العالمية، كل منها يسعى إلى نصيب من الكعكة الشهية.

لكن المدخل الأساسى لتمرير هذه المسألة واضح لا لبس فيه: لابد من تسوية سياسية تُنهى " الوجع " الفلسطيني، وتُيسر على الأطراف العربية المعنية تبرير عملية الهرولة باتجاه " العدو " التاريخى، والارتماء في أحضانه!.

إن إسرائيل مستعدة لخطوة ما في هذا السبيل، والمنظمة التي أنهكها التعب والتحلل السياسى مستعدة أيضا، ورسالة " بسام أو شريف " مستشار " ياسر عرفات "، " المفعمة بالدفء "، مؤشر واضح على ذلك: " عزيزى السيد " بيريس " إننى واثق من أن الإسرائيليين يريدون السلام، على غرار ما يريده الفلسطينيون، وأن المتطرفين! من كلا الجانبين سيخسرون لحظة يتقدم الرجال الشجعان المميزون لردم الهوة وكسر حاجز الخوف، وانعدام الثقة!.. إننا نُكبر فيك رؤيتك الواضحة للمستقبل!، وقدرتك على التقاط الجديد في هذا العالم، وأفكارك الأصيلة الهادفة إلى خلق شرق أوسط جديد، ونحن نشاركك ذلك!.

(...) ونحن مستعدون لأن نضع أيدينا في أيديكم لبناء مستقبل زاهر، مستقر، لأجيالكم وأجيالنا المقبلة! ".

هل رأيتم كيف يمدح المسؤول الفلسطيني مغتصب أرضه وناهب ثرواته وقاتل شعبه؟!.

إنه نفس الخطاب الساداتى الإنشائي الاستهلاكى، الذي يُبَرِّرُ التراجع الاستراتيجى،

والتنازل التاريخي عن الحقوق المشروعة، بقصائد عن " السلام " و " الرخاء " و " نبذ الحروب "، دون ارتكاز على أساس يجعل من هذه الأحلام الوردية إمكانية قابلة للتحقق!.

غزة ! ! .. لتذهب إلى الجحيم :

لكن هذا الغزل المتبادل بين الطرفين، كان يعوقه الحضور القوى للشعب الفلسطينى الثائر في المشهد السياسى عبر " الانتفاضة " التي أرَّقت العدو الإسرائيلى. كان لابد لإسرائيل أن تتخلص من مأزق هذه " الانتفاضة " بأسرع السبل وأقل التكاليف، لقد جاءت الانتفاضة، كما يعترف " بيريس "، " لتُعَرِّضَ جيش الدفاع الإسرائيلى إلى مصاعب لا سابق لها، إن المؤرخين سوف يبررون سلوك الجنود والضباط الإسرائيليين بمواجهة وضع غير تقليدى - كهذا - وضع لا يمكن لأي جيش أن يتدرب عليه، ولا يمكن لأى جيش أن يجابهه، لا عمليا، ولا معنويا ".

لقد أصبحت كلفة الحفاظ على السيطرة الإسرائيلية في منطقة كقطاع غزة لا تمثل ضرورة استراتيجية، أو إغراء اقتصاديا، لإسرائيل، باهظة، وغير محتملة.. وأصبح وجودها - في هذه الظروف - كابوسا لا يطاق، يَقضُّ مضاجع قادة إسرائيل، وكان حلم القادة الإسرائيليين أن يستيقظوا من النوم، فيجدونها قد ذهبت إلى الجحيم، غزة المناضلة التي أصبحت شوكة في جنب إسرائيل تنزف دما وصديدًا.. لابد إذن من اقتلاعها حتى يفوز الثعلب الصهيوني بباقى الفريسة، ويتفرغ لهضم الكعكة الكبرى.. فلا أحد، يقول " بيريس "، " يريد غزة "، " فقطاع غزّة يشغل مساحة ٣٦٥ كيلو مترا مربعا، وبنفوس تقارب ٨٠٠ ألف نسمة، إن غزة ليست أرضنا، فهى ليست مأهولة فحسب، بل تسجل الرقم القياسى في العالم

من ناحية كثافة السكان، وهو من هذا الإطار، إضافة إلى تفجره بأعمال الثورة والعنف، يمثل خطرا على التكوين الدموغرافى للدولة يصعب إيجاد حلا له، إن استمرار الوضع الحالى في مخيمات اللاجئين في قطاع غزة، بدون المستوى المقبول، هو وصفة مؤكدة للغليان القومي والمدني الذي سينتهى إلى راديكالية متعصبة معادية للسلام والديمقراطية ".. هكذا يرى " بيريس " المشكلة، أما الحل - في ضوء هذا الوضع - فهو أن تُترك غزة بـ " بلاويها " للفلسطينيين.. وتحديدا للمنظمة، شرط " أن تُقر منظمة التحرير الفلسطينية - علنا - بحق إسرائيل في الوجود بسلام ضمن " حدود آمنة "، وأن تقبل منظمة التحرير الفلسطينية بقرارى مجلس الأمن " التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨ كأساس للتفاوض، وأن تنبذ منظمة التحرير الفلسطينية اللجوء إلى (الإرهاب)، وأن تكافح العنف و(الإرهاب) (!)، وأن تلتزم منظمة التحرير الفلسطينية بتسوية الخلافات المقبلة عبر المفاوضات السياسية، لا عن طريق استخدام العنف و (الإرهاب)، وأن تشطب منظمة التحرير الفلسطينية عموما الثلاث والثلاثين مادة من الميثاق الفلسطيني التي تدعو بصورة مباشرة (٢٨ مادة) أو ضمنا (خمس مواد) إلى إزالة إسرائيل، وطالبنا أيضا بإجراء تغيير جوهرى في مبادئ منظمة التحرير الفلسطينية بما يتفق والصيغة المعَدّلة للمعاهدة بيننا، وحذف كل نصوصها المعادية للسلام!! ".

وقد قبلت منظمة التحرير الفلسطينية شروط الإذعان الصهيونية وغيَّرت منظمة التحرير الفلسطينية سياستها الأساسية تجاه إسرائيل، يقول " شمعون بيريس "، لكن، مرة أخرى، " كيف يمكن تحقيق ذلك "؟! .. " لقد فهمنا أننا إذا اقترحنا غزة أولا، فإن الفلسطينيين سيرتابون في أننا نقدم لهم غزّة فقط، وما لم تكن هناك إشارة

واضحة إلى مواصلة المفاوضات حول الضفة الغربية، فإن الفلسطينيين لا يستطيعون قبول العرض، لقد تعلمت أن العروض التي تُقدم طواعية تلقى الرفض، أما العروض المقدمة استجابة لمطالب فتعتبر نصرا "، بتعبير آخر: إن فرض تمرير " غزة أولا تتوقف على شرطين مسبقين: أن تكون غزة مع شئ آخر، وأن يُطالبِ الفلسطينيون بذلك ".. وقد نجح هذا التكنيك الذكى والتكتيك الماكر، حيث قُدِّمت " أريحا " لاستكمال العرض، ومُهدت الأجواء، واستُخدمت الوساطات - وبعضها عربى - لتزيينه أمام المنظمة، وبما يكفى لاعتباره غاية فلسطينية، والتهليل له بصفته.. نصرا مؤزرًا!!!.

* * *

٢ـ السوق الشرق أوسطية

المنطقة ترقص على أنغام إسرائيلية

السلام مدخل لإعادة التنظيم:

مثلمـــا شـــرحنا ســـابقا، جـــاء إدراك الإدارة الإســـرائيلية لـــدور " السلام "، بـــالمفهوم الإســـرائيلي الأمريكـــى، باعتبـــاره المـــدخل الطبيعـــى لإعـــادة صـــياغة أوضـــاع المنطقـــة، وبنـــاء علاقـــات جديـــدة فيهـــا، تصـــب لخدمـــة مصـــالحهما (أي أمريكـــا وإســـرائيل)، الاســـتراتيجية علـــى امتـــداد ســـاحاتها. وحســـب تعبيـــر " شـــمعون بيـــريس "، فـــإن الســـلام " بـــين إســـرائيل وجيرانهـــا، " ســـيخلق البيئـــة الموائمـــة لإعـــادة تنظـــيم مؤسســـات الشـــرق الأوســـط بصـــورة أساســـية، إن التوافـــق، وقبـــول العـــرب بإســـرائيل كاملـــة ذات حقـــوق ومســـؤوليات متســـاوية، سيُنجب نوعـا جديـدا مـن التعـاون، لا بـين إسـرائيل وجيرانهـا فحسـب، بـل بـين البلـدان العربيـة أيضـا ".. لكـن تحقيـق هـذا الأمـر يقتضـى (علـى حـد تعبيـر بيـريس) " ثـورة فـي المفـاهيم "، مفاهيمنـا نحـن العـرب بـالطبع، مضـمونها الاعتـراف بـالوجود الصـهيوني، وبشـرعيته، وبكونـه جـزءا مـن واقـع المنطقـة ومسـتقبلها، والإذعـان أمـام إرادة " شـعب الله المختـار " الـذي لـن يخـرج مـن هـذه الأرض مهمـا كانـت النتـائج، فــ " نحـن " - يقـول " شـمعون بيـريس "، " شـعب ذو حـزم، ومـا مـن قـوة علـى وجـه البسـيطة تسـتطيع أن تحملنـا علـى مغـادرة هـذه الأرض بعـد خمسـين جـيلا مـن العـيش فـي الشـتات (الدياسـبورا)، خمسـين جـيلا مـن الاضـطهاد، والعـذاب والإبـادة.. لـن نتزحـزح مـن المكـان الوحيـد فـي هـذه الـدنيا الـذي نسـتطيع فيـه أن نجـدد اسـتقلالنا، ونكفـل سـلامتنا "، ومـا دام الطـرف الآخـر قـد قبـل بوجودنـا، وارتضـى الإذعـان لشـروطنا،

فلنتقدم خطوة أخرى باتجاه تشكيل المنظومة الإقليمية الجديدة، وتحديد شبكة العلاقات داخلها...!.

عوامل تشكيل النظام الإقليمي المقترح :

ويشرح " شمعون بيريس " العوامل الأربعة الجوهرية التي تبرر الحاجة لهذا الإطار الإقليمى المقترح، وهى: الاستقرار السياسى، والاقتصادي، والأمن القومى.. وأخيرا... إشاعة الديموقراطية.

بالنسبة لقضية الاستقرار السياسى، يرى " شمعون بيريس " أن قيام هيكل إقليمى منظم سيحقق " إطارا جديدا للمنطقة، ويوفر القدرة على النمو الاقتصادى والاجتماعى، وإطفاء " نيران التطرف الديني وتبريد رياح الثورة الساخنة "، أما بالنسبة للاقتصاد فهو يرى في ارتفاع مستوى المعيشة، الشرط المسبق لتخفيف التوترات في بلدان الشرق الأوسط، فطالما كانت هناك هُوّة واسعة تفصل بين المستويات داخل النظام الاجتماعى - السياسى، فإن المجال يتسع فسيحا أمام الأصولية، أما الرد على استفحال هذه الظاهرة الأخيرة، فهو - كما يتصور " بيريس "، بإنشاء " منظمة تعاون إقليمية تتحرك على " قاعدة فوق قومية " وأما **عنصر الأمن القومى،** فإن السبيل الوحيد لتحقيق قدرًا معقولاً منه في عصر الصواريخ - أرض - أرض والقدرات النووية، كما يرى "بيريس "، لن يكون إلا بإقامة " نظام إقليمى للرقابة والرصد "، فالمفاهيم التقليدية للاستراتيجيات العسكرية قد غدت بالية بعد حرب " عاصفة الصحراء "، وبدلا من " توازن الرعب " (يلاحظ هنا أن "بيريس " يوحى بالتهديد النووى المتبادل!، ويتجاهل حقيقة امتلاك إسرائيل وحدها للقنبلة النووية

وأسلحة الدمار الشامل)، " فإن التحالف الإقليمى سوف يساعد على منع طرف ما من الضغط على الزر المهلك، الذي لا يبقى ولا يزر "!!.

وفيما يخص **مسألة " إشاعة الديموقراطية "**، فيربط " شمعون بيريس " بينها وبين " تبديد العوامل الكامنة وراء التحريض الأصولى " من جهة، ودورها كـ " هيئة رقابة " تحرس (السلام) من جهة أخرى، ويستنتج استنتاجا غريبا بأن " الأمم الديموقراطية لا تدخل في حرب ضد بعضها البعض "، (مع أن هذا الأمر تكذبه الوقائع الدامغة، القريبة، وأهمها انفجار حربين عالميتين شاملتين بين دول الغرب الديمقراطية!).

إن هذه العوامل الأربعة، ستحض، من وجهة نظر "بيريس "، القائمين على شئون المنطقة، نحو السعى لبناء " حالة " جديدة، وفى هذا السياق، فإن خطة الحكم الذاتى، التي تم إقرارها بين المنظمة وإسرائيل، تلعب دور العنصر الفاصل بين الماضى والحاضر، وتؤرخ لتخطيط " شرق أوسط جديد "، وتمثل " الممر " الذي يستخدم للانتقال بين عالمين.

ما كان.. وما سيكون :

يستند " شمعون بيريس " إلى مقولة لـ " ديفيد بن جوريون " يقول فيها " إن كل الخبراء هم خبراء فيما كان، وإننا بحاجة إلى خبراء بما سيكون "، لكى يقدم تصوره عن المستقبل، الذي يصوره نقيض الماضى، مفعما بالأمل والتفاؤل، وهو تفاؤل مُبرر، فها هى الدعوة الصهيونية تتقدم وتحقق إنجازات ملموسة، بينما تتراجع الدعوة العربية وتلحق بها الهزيمة تلو الهزيمة، وارتكازا على هذه القاعدة،

يرسم الحدود الجديدة للمنطقة، ويخطط لها بحرص، إذ " ينبغى أن تكون خطتنا - كما يقول "بيريس " محترفة، محكمة، جيدة الصياغة، بحيث يمكن لها أن تقودنا، في الاتجاه الصحيح، مُحَوِلةً النظرية إلى سياسة مثمرة ".

وأهم أسباب الحرص في التخطيط هو محاولة تجاوز " رواسب " مفهوم القومية، الذي يمكن له أن يعوق إقامة الجماعة الإقليمية المنتظرة.

– مراحل الخطة الثلاثية الركائز:

يقترح " شمعون بيريس " خطة ثلاثية الركائز، أو " هرما ثلاثى الأضلاع " للتعاون الإقليمى تتضمن:

مرحلة أولى: مشاريع ثنائية أو متعددة القومية، مثل إنشاء معهد أبحاث مشتركة لإدارة الصحراء، أو مصالح تعاونية لتحلية المياه.. إلخ، وهو يضرب لهذا النمط مثلا بالتعاون مع النظام المصرى في مجال الزراعة، ولا يشترط الانتظار حتى توطيد أواصر " السلام الدائم " كشرط لبدء هذه المرحلة، فلإسرائيل - كما يذكر بيريس - " أصلا، برامج اقتصادية، وبرامج أبحاث مشتركة مع مختلف البلدان التي لم نوقع معها معاهدات سلام بعد "!.

المرحلة الثانيـــة: وتحتوى " كونسورينمات " دولية تتولى المشاريع التي تتطلب استثمار رأسمالي هائل، بإشراف البلدان ذات العلاقة في المنطقة، علاوة على أطراف أخرى ذات مصلحة أيضا، ومن نماذج مشاريع هذه المرحلة: قناة البحر الأحمر / البحر الميت، إنشاء ميناء إسرائيلى - أردنى - سعودى، تطوير الطاقة الكهرومائية، ومشاريع تحلية المياه، تطوير صحراء النقب (حلم من أحلام " بن جوريون "، كما يذكر "بيريس ")، وغيرها.

أما المرحلة الثالثة: فتشمل سياسة " الجماعات الإقليمية "، مع التطوير التدريجى للمؤسسات الرسمية الخاصة بها.

إن دول هذه المنطقة، كما يقول "بيريس " يَشُدّها إلى بعض ميل " فوق قومى " للجماعات الإقليمية، بينما يُنَفِّرها من بعض الميل للانغلاق القومى.. وهذا الميل ينبغى محاصرته بمجموعة من " الروابط "، أو " الأحزمة " الاقتصادية / السياسية، تستهدف - عبر مجموعة من الخطوات التدريجية - إقامة جماعة تشبه الجماعة الأوروبية، التي كان بين مكوناتها حروب كبرى وعداء تاريخي مكين هى الأخرى!.

من " اقتصاد الصراع " إلى " اقتصاد السلام " :

تجبر الحروب التي تشهدها المنطقة حكومات الدول المشتركة فيها، على تخصيص ميزانيات ضخمة لتطوير ترساناتها العسكرية، ومع تطوير التكنولوجيا، وارتفاع تكاليف السلام، فإن سباق التسلح يستنزف كميات هائلة من الأموال، تبلغ حوالى ٦٠ مليار دولار سنويا، إن الشرق الأوسط كما يذكر "بيريس "، يحتل المرتبة الأولى بين مناطق العالم في إنفاقه على الأسلحة والتسلح بالنسبة لإجمالى الإنتاج القومى، وتُظهر الأرقام أن الاستثمارات في المعدات العسكرية قد استهلكت ٢١% من جميع الميزانيات الحكومية في المنطقة [باستثناء معونة الدفاع (الأمريكى) التي هى بمثابة عنصر مركزى في الميزانيات الإسرائيلية والمصرية].. لقد أنفقت دول الشرق الأوسط، ومن بينها إيران، والعراق نسبة يصل معدلها إلى ١٧% من إجمالى الإنتاج المحلى (GDP) على الدفاع، وأكبر النفقات هى لدى سوريا التي بلغت نسبتها ٥٠%، ويليها في هذه النفقات إسرائيل،

حيث بلغت نسبة الإنفاق فيها ٢٦%.

إن عجز الميزانيات، يقول "بيريس " وارتفاع الديون الوطنية في هذه الدول الشرق أوسطية، ما هى إلا نتائج مباشرة لهذا الاستثمار، ففى عام ١٩٨١ بلغ مجمل الديون الوطنية الشاملة في المنطقة ما نسبته ٣٥% من إجمال الإصدارات، وبعد عشر سنوات كانت النسبة قد بلغت ١١٣%، وكلفة حرب الخليج (الثانية) قدّرتها المصادر العربية بحوالى ٦٧٦ بليون دولار، وإذا نشبت حرب شاملة في المستقبل، ستتكبد إسرائيل ما لا يقل عن بليون دولار في كل يوم من أيامها، وهذا الرقم لا يشمل الدمار الواسع الذي تلحقه الحرب بالبنية التحتية المادية للبلاد، وهو ما سيحدث للخصم على أقل تقدير أيضا، ويضاف إلى هذه الخسائر خسائر غير مباشرة " بسبب عناد العلاقات التجارية بين الدول المتجاورة ".

ويلجأ "بيريس " مرة أخرى إلى التخويف بفزاعة " الأصولية الإسلامية ":

إن هذا الوضع يترك بصماته الملحوظة على الظروف الاقتصادية لدول عديدة في المنطقة، فعندما نخصص كثيرا من الأموال لزيادة القوة التدميرية للأمة، فإننا نكون بذلك قد تركنا مصادر قليلة جدا لدعم النمو المالى والاجتماعى، ولدعم عملية الخلق والبناء، وهذا يهيئ تربة خصبة للأصولية، " فهى تشجع على انتشار الديماجوجيين الذي يتكلمون باسم الدين، ولكنهم عاجزون عن حل المشاكل الأساسية للبشر ".. إن المخرج من هذا المأزق، كما يشرح "بيريس " هو الخروج من ضيق العداء القومى إلى رحابة " السوق الإقليمية " الواسع.. إن الأسواق الإقليمية المشتركة تعكس الروح الجديدة للعصر، وبعد أن يتم توطيد العلاقات الثنائية والمتعددة بين دول المنطقة، سيتم الدخول إلى حيز الصناعات الإقليمية من

خلال تعاقد الهيئات العالمية والاتحادات الدولية المستقلة، إن العمليات التجارية هنا، ستسبق السياسة، قبل أن " يتوحد الشرق الأوسط في سوق مشتركة، بعد أن نكون قد أحرزنا السلام! ".

وفى هذا السوق، سيستلزم الأمر تشييد بنية تحتية ملائمة، ستُبنى الطرق وتُمد خطوط السكك الحديدية، وتُجدد المسارات الجوية، وتُربط شبكات النقل، وتُحدّث وسائل الاتصالات، ويتوفر النفط، ويدخل الكمبيوتر كل مرافق الحياة، ويسود مبدأ " الاقتصاد وليس السياسة "، أي (" البيزنس " وليس الوطنية أو القومية)، وبواسطة السلام ستتحول الحدود من حواجز فاصلة إلى جسور موصلة!!.

إن المشاريع جاهزة، والدراسات الأساسية قد أتمت: خطوط الطرق والموانئ والمطارات مناطق التجارة الحرة والزراعة والسياحة، إن

" بركات السلام " على حد تعبر "بيريس "، ستحل على المنطقة، فالعالم الغربى كله، بمؤسساته وكياناته المادية والاقتصادية، على أهبة الاستعداد لتمويل هذا المشروع الاستثمارى الهائل، لبناء " حصن ضد الأسلحة النووية! والرعب، وعنف الرايكالية الدينية، وهما التهديدان الرئيسان لسوق النفط العالمى، التي هى هرم الحياة للاقتصاديات الحديثة "، وهو أيضا، مثلما اقترح "بيريس " على " هولمت كول " المستشار الألمانى، وسيلة حل مشاكل الغرب، كالبطالة، أو الركود.

إن هذه العملية الكبرى ستستوجب مبادرة الاحتكارات العملاقة بالحركة، والشركات الأمريكية عابرة القارات لم تتأخر، فقد دعا " وارن كريستوفر "، وزير الخارجية الأمريكى، حولى ٥٠ مديرا من مديرى الشركات

الأمريكية الكبرى، لكى تضع تفصيلات التطورات التي تحتاجها في الشرق الأوسط، وسَيُقام بنك يقوم بجمع الأموال المخصصة للاستثمار في الشرق الأوسط، حيث يجذب المستثمرين الجدد، و " يوفر الأموال من المنطقة نفسها "، ومن الأفضل ألا يُعتمد على البنك الدولى الآن، لأنه لا يمثل " العربة الأمثل في الظروف الحالية ".

كما أن هذه المهمة العملاقة، ستحتاج إلى بنك للمعلومات لوضع السياسات الاجتماعية والاقتصادية للشرق الأوسط المقبل.

وهكذا: تخطيط كامل دقيق، لم يترك شاردة أو واردة دون أن يحصيها، ومخطط متكامل ينسج شبكة عنكبوتية تقبض على الفريسة، ولا تترك لها مهربا، والغائب الوحيد في كل هذه الصورة الهائلة هو نحن، نحن أصحاب الأرض والسماء والخيرات، لم يستأذننا أحد، ولم يعن إنسان بسؤالنا عن رأينا!.

وجعلنا من الماء... :

بعد هذا كله تبقى نقطة أساسية لا يجب أن تغيب عن بالنا، ونحن نطالع كتاب " شمعون بيريس "، " الشرق الأوسط الجديد ".. ألا وهى مركزية وخطورة **قضية المياه** في الفكر الصهيوني الاستراتيجى المعاصر.

لاشك أن أزمة المياه المستحكمة، تمثل بالنسبة لإسرائيل، في نهايات القرن العشرين، واحدة من أهم وأعمق التحديات التي تواجهها، إن لم تكن الأهم والأعمق بالفعل.

وخلف طرح فكرة " السوق الشرق أوسطية "، بل وخلف القبول بمساعى التسوية السياسية للقضية الفلسطينية، تتبدى أشباح الرعب من العطش القاتل الذي تلوح

بوادره في الآفاق.

إن مصادر إسرائيل المضمونة، من المياه، محدودة للغاية، وهى لا تكاد تفى باحتياجها إلا بمشقة بالغة، ومع نمو حاجات المجتمع الإسرائيلي وازدياد أعداده المتتالية بالهجرات، تتصاعد حاجاته للمياه، وفى الماضى استطاعت إسرائيل تأمين حاجاتها باحتلال بعض مصادر المياه العربية، أما الآن فالمسألة أعمق وأشد خطرا.

ومن هنا فإن الحل الأوحد، والمثالي، بالنسبة لإسرائيل لن يتم إلا بمشاركتها في مياه المنطقة، على قدم المساواة مع الأصحاب الأساسيين لمصادر هذه المياه، وفى ظل " السوق الشرق أوسطية "، وحيث الاقتصاد هو المحرك، وليس السياسة، يمكن أن تمر هذه المسألة، وبدون ذلك، يهددنا "بيريس " : " يصعب القول بأن الاستقرار والهدوء سيعودان إلى دلتا النيل، أو الهلال الخصيب، وإذا لم تُبرم إسرائيل السلام مع سوريا ولبنان والأردن، فإن حوضى اليرموك والأردن قد يصبحان مجددا مصادر للأعمال العدائية الخطيرة! ".

إن المياه في " الشرق الأوسط "، لا حظوا ما يقول " شمعون بيريس " بأقصى درجات الانتباه: " هى ملك للمنطقة، ولعل المياه، أكثر من أي قضية أخرى، تعتبر دليلا على مدى الحاجة لإقامة نظام إقليمى، ومن خلال هذا النظام فقط يمكننا التخطيط وتنفيذ تنمية المياه، وتوزيع المياه على أساس اقتصادى، لأسلوب عادل ومؤتمن "!!.

" إن الحاجة للاتفاق على سياسة مياه إقليمية، تبرز الآن وبشدة، بسبب ازدياد

مشكلة تناقص المياه خطورة، ولأن المبدأ الذي يحكم حقوق المياه لا يناقش السيادة المطلقة لكل دولة على استخلاص المياه من الحوض الواقع ضمن سيادتها، ومن هنا فإن الإعلان عن قيام " هيئة إقليمية "، تشارك فيها كافة الأطراف المعنية، يعنى كذلك تخفيف أسباب التوتر والعمل من أجل السلام! ".

والواقع أنه.. يستكمل "بيريس " إنذاره، " ليس هناك من حاجة للانتظار لإقامة نظام مياه إقليمى. وهنا فإن التسويات والاتفاقيات الثنائية والمتعددة تمثل سلسلة من الإجراءات في قطاعين رئيسيين هما: نقل المياه من المناطق التي تحظى بوفرة منها إلى المناطق التي هى في أمّس الحاجة إليهما (إسرائيل يقصد) ومن خلال تكنولوجيا المياه المالحة ".

انتهى إنذار "بيريس " ومضمونه أوضح ما يكون: إن لإسرائيل حقا صراحا فيما تحتاجه من مياه، أيا كان اسم الدولة التي تملكها.. ومن الأفضل أن يتم ذلك طواعية، وإلا فإنها الحرب لا محالة!، إن الحرب من أجل المياه هو عنوان الفترة القادمة، ونقطة الماء تعادل نقطة دم لا أقل.

وهذا الأمر يذكرنا بمبادرة السادات " التطوعية " التي أعلن فيها موافقته على نقل مياه النيل لإسرائيل، عبر ما أسماه " ترعة السلام "، التي دخلت بالفعل حيز التنفيذ، وينبهنا إلى مزيد من اليقظة والحذر في التعامل مع هذا القضية الحيوية البالغة الأهمية.

* * *

عبر هذا الاستعراض المفصل لكتاب " الشرق الأوسط الجديد " تتضح أبعاد ما يُرسم لمنطقتنا، وما يُراد بمستقبلها: محددا وقاطعا، وبقلم واحد من كبار منظرِّيه.

إنها ليست " نظرية المؤامرة " التي يعيبون علينا الحديث عنها باستمرار هذه المرة، بل هى المؤامرة بعينها مسجلة وواضحة المعالم ومحددة التفاصيل!.

وإذا كنا قد فقدنا الأمل، في أن يعى " ولاة أمورنا " المخاطر التي تحيط بأوطاننا، فلا أقل من أن تفهم جماهيرنا أبعاد المجزرة القادمة، ولا يغرنكم أن الجزار هذه المرة يرتدى ملابس السهرة، وفى يديه قفاز من حرير.

إنهم ينظرون إلى هذه الأرض باعتبارها أرضهم، أرض صهاينة إسرائيل وملك أجدادهم، وإذا كانت " إسرائيل الكبرى " بقوة السلام وإرهاب البطش يصعب تحقيقها الآن، فلا بأس من تحقيق " إسرائيل العظمى " بقوة الاقتصاد، وبرشوة قطاعات متواطئة من النخب الحاكمة بالمنطقة، وفى الطبقات المستفيدة.. وإذا ما انتابكم الشك لحظة في صحة هذا الأمر، اقرؤوا بتمعن كلمات " شمعون بيريس " لقد ابتنى آباؤنا المعابد والأهرامات والقلاع وشقوا القنوات.. فأورثونا بذلك مواقع سياحية مذهلة " !!.

وراجعوا رأى " نتينياهو " في بناء، الأهرام على أيدي أجداده المزعومين!!.

إنها أرضهم يعلنونها، ولا يخفونها، وهم قادمون: بالأمس على جناح الفانتوم الأمريكية، والآن في مركبة اسمها " السوق الشرق لأوسطية "، مصنوعة في إسرائيل، وممهورة بخاتم أمريكا والغرب، وبمباركة نظم التسوية والصلح أيضًا.

فالمقاومة.. أو الموت

الفهـــرس

* * *